الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية – قسنطينة -

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
شعبةاللغة العربية و الدراسات القرآنية

الرقم الترتيبي:
رقم التسجيل :

# سورة الحجرات
# دراسة أسلوبية

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير
قسم اللغة و الدراسات القرآنية

إعداد الطالب:
ابن موناح بلقاسم

لجنة المناقشة

| | |
|---|---|
| أ.د عمر بوقرورة | رئيسا |
| أ.د رابح دوب | مشرفا و مقررا |
| د: بلقاسم د فة | عضوا |
| د: حسن كاتب | عضوا |

تاريخ المناقشة

السنة الجامعية : 2003/2002

# إهداء

إلـــى زهــــــرة الحيــــــــاة

وريحـــانـــة البيـــت

إلـــى ابنـتـــي العــزيـــزة

** ليـنـــة **

أهـــدي هـذا العمـل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على رسوله الأمين، و على آله و صحبه الغر الميامين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و بعد...

فهذا كتاب الله قد أعيى الكُتاب و الدارسين و الباحثين، الأولين منهم و الآخرين، و ذلك لما تضمن من دلائل الإعجاز و آيات التحدي.

فمنهم من تناول الجوانب العلمية من هذا الإعجاز، و منهم من عكف على دراسة الجوانب الإخبارية، و منهم من أسهب في دراسة الجوانب التشريعية، و آخرون تعمقوا في تناول الجوانب البلاغية، و الأدبية، و اللغوية و الأسلوبية و نحوها.

فمن الذين اهتموا بدراسة الإعجاز الأسلوبي، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، و من مؤلفاته : إعجاز القرآن، و كذلك مصطفى صادق الرافعي، و من مؤلفاته : إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، و عبد القاهر الجرجاني، و من مؤلفاته : دلائل الإعجاز، و ابن قيم الجوزية، و من مؤلفاته : بدائع الفوائد، و الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان، و كذلك عبد الكريم الخطيب، و من مؤلفاته : إعجاز القرآن، و محمود السيد شيخون، و من مؤلفاته : الإعجاز في نظم القرآن، و بكري شيخ أمين، و من مؤلفاته : التعبير الفني في القرآن الكريم، و عبد الفتاح لاشين، و من مؤلفاته صفاء الكلمة...، و كذلك حسن ضياء الدين عتر، و من مؤلفاته : بينات المعجزة الخالدة، و غيرهم كثير و كثير جدا.

إلا أن هذه المؤلفات -في غالبها- تناولت الإعجاز المتحدث عنه من جانبه النظري، فانصبت الجهود حول دراسة هذا الإعجاز على وجه العموم دون تطبيق النتائج المتوصل إليها على جميع سور القرآن الكريم و كل آياته، فقلما تجد ذلك إلا عند بعض المفسرين كالزمخشري في الكشاف، و الفخر الرازي في التفسير الكبير، و الزحيلي في التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، و الألوسي البغدادي في روح المعاني، و البرسوي في روح البيان، و الطاهر بن عاشور في التحرير و التنوير و غيرهم...

و كذلك عند بعض المهتمين بهذا الجانب من الإعجاز كمحمد أبي موسى في كتابه من أسرار التعبير القرآني -دراسة تحليلية لسورة الأحزاب-، و عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه : سورة الرعد : دراسة أدبية و لغوية و فكرية، و محمد بن سعد في كتابه : النظم القرآني في سورة الرعد، و بكري عبد الكريم في كتابه : الزمن في القرآن الكريم : دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه، و كذلك حسن محمد باجودة في كتابه : تأملات في سورة الإسراء، وكتابه:

تأملات في سورة الفاتحة و كتابه : تأملات في سورة الفرقان، و كذلك أحمد ماهر، و محمود بن الشريف، و غيرهم.....

و لعل كل هذه العوامل بالإضافة إلى تلك الرغبة الصارخة و القوية في الإطلاع على بعض الكنوز المكنونة في طيات هذا الكتاب، و معرفة بعض أسرار الإعجاز في ألفاظه و عباراته، مما دفع بي إلى اختيار هذا الموضوع.

فحينما كنت طالبا بالجامعة وجدتني أكثر انجذابا إلى المحاضرات التي تتناول علوم القرآن عموما، و قضايا الإعجاز الأسلوبي خصوصا، و ذلك لما كنت أشعر به من متعة لا متناهية، و لذة غريبة حينما أقف على بعض أسرار استعمال لفظ دون لفظ في كلام الله، أو استعمال نظم دون نظم، أو تقديم لفظ على غيره، أو تأخير عبارة و تقديم أخرى، أو تعريف كلمة و تنكير غيرها، أو ذكر بعض الألفاظ و الحروف و العبارات في موضع وحذفها في موضع آخر مماثل، أو حينما أقف على الحكمة من استعمال بعض الجمل الخبرية التي تخرج -في غالب الأحيان- عن مقتضى ظاهرها لتفيد معاني أخرى أو حينما أقف على الفوائد المقصودة باستعمال الأساليب الإنشائية المختلفة التي تخرج -بدورها- في غالب الأحيان- عن ظاهر مدلولها الأصلي...

فكل هذا بالإضافة إلى أن موضوع الدرس هو أقدس نص و أشرف كلام على الإطلاق مما عزز لدي فكرة البحث في هذا الموضوع الذي جعلته تحت عنوان :

**سورة الحجرات – دراسة أسلوبية –**

إلا أنني لا أعني بالأسلوبية المصطلح المتداول عند الأسلوبيين في العصر الحديث، و الذي يقصد به "البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب"[1]، أو "الدرس العلمي للأسلوب الأدبي"[2] أو "البعد اللساني لظاهرة الأسلوب"[3] أي: "دراسة الخصائص اللغوية التي تنقل الكلام من مجرد وسيلة إبلاغ عادي إلى أداء تأثير فني"[4].

---

(1)- الأسلوبية في النقد العربي الحديث: نور الدين السد، رسالة دكتوراه دولة -غير منشورة- 1993-1994م، ص10.

(2)- المرجع نفسه ، ص : 14.

(3)- المرجع نفسه.

(4)- المرجع نفسه.

و إنما الذي أعنيه –كما هو واضح من العنوان– هو دراسة أسلوب سورة الحجرات مُركزا على جانبين أساسيين هما : جانب المعاني، و جانب الألفاظ، و مشيرا إلى طريقة أسلوب القرآن الكريم –من خلال سورة الحجرات بالطبع– في اختيار اللفظ الأنسب، و موضعه الأليق، و اجتناب الصعب و الغريب منه، للتعبير عن المعنى الأدق و الأصوب و الأشمل و الأبلغ في آن واحد.

و قد اقتضت طبيعة الموضوع أن أتتبع –في هذه الدراسة– المنهج التحليلي الذي يعتمد على الوصف و الكشف عن مواطن الجمال، ثم التعليل و الكشف عن أسباب هذا الجمال.

ومع ذلك فإن البحث لم يخل من الإشارة إلى بعض اللفتات النظرية في بعض المحطات كالتمهيد و الخاتمة لبعض المباحث و الفصول، أو عند الحاجة إلى تعزيز بعض وجهات النظر.

أما عن سبب اختيار سورة الحجرات بالتحديد، فلأنها السورة التي تضمنت –بشكل كبير– على قلة عدد آياتها – أسمى الآداب التي تضبط سلوك المسلم مع الله تعالى، و مع رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم، و مع المؤمنين عموما، و مع غيرهم من الناس، بل و مع كل الشعوب و الأمم.

و قد اعتمدت في هذه الدراسة بشكل كبير على التفاسير القديم منها و الحديث صارفا النظر عن اختلافات المفسرين العقدية و المذهبية و الفكرية، مراعيا أكثر التفاسير اهتماما بالقضايا الأسلوبية و الفنية.

و لعل السبب في اعتمادي على التفاسير بالدرجة الأولى راجع لانصباب جهود أغلب المفسرين على دراسة النص القرآني كاملا من كل جوانبه : اللغوية و المعنوية، و مناسبة النص، و الهدف منه و أشياء أخرى.

أما عند غير المفسرين فلا تكاد تقع –في مؤلفاتهم– إلا على البعض من النماذج، و لو كثرت، و لذلك تجدني قد رجعت –مثلا– إلى الزمخشري، و أبي حيان، و الرازي، و الألوسي، و الزحيلي و البرسوي، من خلال تفاسيرهم مرات عديدة في حين لم أرجع –مثلا– إلى د/ بكري شيخ أمين في كتابه: التعبير الفني في القرآن الكريم إلا قليلا، و ذلك لاكتفائه –في هذا الكتاب– بدراسة ثلاث آيات فقط من سورة الحجرات، و هكذا...

و قد اعتمدت بشكل كبير أيضا على بعض المصادر القديمة –غير التفاسير– و التي تناول أصحابها –فيها– كثيرا من النماذج القرآنية الكريمة، من الحجرات و من غيرها، ككتاب :

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان، و كتاب : بدائع الفوائد لابن القيم، فتجدني كثيرا ما أقتطف منهما بعض الشواهد التي أوردها في هذين المؤلفين و أذكر ما قاله -مثلا- عن الحكمة من جمع السماوات و إفراد الأرض في القرآن الكريم عموما ثم أحاول -من جهتي- إسقاط ذلك و تطبيقه على ما ورد في الحجرات مثالا لذلك. و كذلك الأمر بالنسبة لحذف حروف العطف بين أسماء الله تعالى في عموم آيات القرآن الكريم، و غير ذلك...

كما أنني قد أفدت كثيرا من كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، و كتاب : الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، و كتاب : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الانصاري، و اقتبست منها الكثير من الدلائل و الحكم و الفوائد التي تعد -بالفعل- عدة السالك، و زادا لمسيرة كل من يتوق شوقا لمعرفة المزيد من أسرار الإعجاز في كتاب الله عز وجل.

و قد قمت بتقسيم البحث إلى تمهيد و ثلاثة فصول و خاتمة.

في التمهيد : تحدثت -بإيجاز- عن سورة الحجرات و أهميتها في بناء المجتمع الصالح، و كذا عن سبب تسميتها بالحجرات، و مناسبة نزولها، و عن ترتيبها من حيث النزول، و عن ترتيبها في المصحف الشريف، و كذلك الأفكار و المباحث التي تضمنتها السورة، و عن الترابط القائم بين هذه الموضوعات.

و في الفصل الأول : تناولت أسلوب السورة من حيث الخبر و الإنشاء و قسمته إلى ثلاثة مباحث.

في المبحث الأول : تحدثت عن الخبر و بينت ما أمكن من الدلالات التي تهدف إليها الأخبار الواردة في السورة.

و في المبحث الثاني : تحدثت عن أغراض الإنشاء، و جعلته في مطلبين :

المطلب الأول : تناولت فيه الإنشاء الطلبي و أغراضه.

المطلب الثاني : تناولت فيه الإنشاء غير الطلبي و أغراضه.

و قد حاولت قدر المستطاع الكشف عن أبعاد كل هذه الأغراض، و الحكمة منها.

و في المبحث الثالث : تحدثت عن ظاهرة الالتفات، و عن براعة أسلوب القرآن الكريم في استعماله، و حاولت تجلية الفوائد و الأبعاد التي من وراء الالتفاتات الواردة في السورة الكريمة.

و في الفصل الثاني : تناولت ظاهرتين أراهما جديرتين بالاهتمام عند الحديث عن أسلوب القرآن الكريم، و هما الذكر و الحذف، و قد قسمت الفصل إلى مبحثين.

في المبحث الأول : تحدثت عن فوائد الذكر، أعني : ذكر بعض الحروف و الكلمات و العبارات.

و في المبحث الثاني : تحدثت عن بلاغة الحذف، أعني : حذف بعض الحروف و الكلمات و العبارات.

و حاولت الكشف عن بعض الأبعاد المرجوة بهذا الحذف و ذاك الذكر.

و في الفصل الثالث : تحدثت عن استعمال الألفاظ و العبارات و الحروف، و قسمته إلى خمسة مباحث :

في المبحث الأول : تكلمت عن البعد الأسلوبي في اختيار اللفظ، و قسمته إلى مطلبين :

المطلب الأول : تحدثت فيه عن استعمال لفظ دون لفظ، و حرف دون حرف، و بينت الحكمة من ذلك.

و في المطلب الثاني : تحدثت عن استعمال صيغة صرفية دون أخرى و عن الحكمة من ذلك و من تعريف بعض الكلمات و تنكير أخرى.

و في المبحث الثاني : تكلمت عن الدقة في استعمال الزمن، و قسمته إلى مطلبين:

في المطلب الأول : أشرت إلى استعمال الماضي دون المضارع.

و في المطلب الثاني : أشرت إلى استعمال المضارع دون الماضي.

و حاولت الكشف عن الحكمة من هذا التفنن في استعمال أحدهما محل الآخر.

و في المبحث الثالث : تكلمت عن الدقة في استعمال العدد، مشيرا إلى الفوائد المقصودة باستعمال بعض الألفاظ بصيغة الإفراد، و بعضها بصيغة التثنية، و بعضها بصيغة الجمع، و ذلك في الشواهد الواردة في السورة مرتبة حسب ترتيب الآيات في السورة الكريمة.

و في المبحث الرابع : تكلمت عن استعمال نظم دون آخر، أعني : إيثار التعبير بجملة دون أخرى، كاستعمال الجملة الموصولة بدل الاسم المفرد مثلا و غيرها، وكتفضيل التعبير ببعض العبارات على نسق معين دون آخر.

و قد حاولت –ما استطعت– إزاحة اللثام عن الحكمة من كل ذلك.

وأما المبحث الخامس: فقد تكلمت فيه عن ظاهرتي التقديم و التأخير، وقسمته إلى مطلبين.

في المطلب الأول : تحدثت عن تقديم موضوعات على أخرى.

و في المطلب الثاني : تحدثت عن تقديم مفردات على أخرى.

و حاولت –بالطبع– الكشف عن الأسرار التي تنطوي تحت هذا التفنن في تقديم بعض الكلم على بعض.

أما الخاتمة، فقد ذكرت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها بعد رحلة البحث هذه.

ثم وضعت فهرس المصادر و المراجع التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة، ثم فهرس الموضوعات التي تناولتها في البحث.

و في آخر المطاف فإنني أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدني على إخراج هذا العمل، و على رأسهم أستاذي و مشرفي على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور : رابح دوب.

كما أتقدم بالشكر إلى كل الأصدقاء و الزملاء الذين وقفوا إلى جانبي وقوفا شد أزري وحفز همتي، و شجعني على مواصلة الدرب و عدم الإستجابة لاستفزازات الظروف.

و أخيرا فإنني أحمد الله الذي وفقني لإتمام هذا البحث و أسأله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم و ما ذلك عليه بعزيز و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# تمهيد

# في رحاب الحجرات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المتتبع لسيرة الرسول صلى الله عليه و سلم، لا شك أن يعايش تلك المحن التي تعرض إليها عليه الصلاة و السلام و أصحابه رضي الله عنهم في مكة في بداية الدعوة الإسلامية، إلى أن أذن الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة المنورة، حيث استقر المسلمون، و استتب لهم الأمر، و كتب لهم النصر، فدخل كثير من الناس في دين الله لما رأوا فيه من كمال معاني الرحمة و العدل و الاستقرار.

و من ثم كان من حكمة الله أن توضع القواعد التي تكفل لهذا المجتمع أمنه، و لهذه الأمة استقرارها، فتوالت الآيات و السور القرآنية الكريمة تتنزل على الرسول صلى الله عليه و سلم سعيا لبناء النفوس و العقول.

و من جملة تلك السور، الحجرات، حيث " سُمّيت في جميع المصاحف و كتب السّنة و التفسير "سورة الحجرات". وليس لها اسم غيره، و وجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ "الحجرات" ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله صلى الله عليه و سلم من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة " [1].

و الحجرات " التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة و الشريعة، و من حقائق الوجود و الإنسانية، حقائق تفتح للقلب و العقل آفاقا عالية و آمادا بعيدة، و تثير في النفس و الذهن خواطر عميقة و معاني كبيرة، و تشمل من مناهج التكوين و التنظيم، و قواعد التربية و التهذيب، و مبادئ التشريع و التوجيه، ما يتجاوز حجمها و عدد آياتها مئات المرات "[2].

و الحجرات " هي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة، و قبل سورة التحريم و كان نزول هذه السورة سنة تسع "[3] أي في السنة التاسعة للهجرة.

أما من حيث ترتيبها في المصحف فقد ذكرت بعد الفتح و " ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال[4] لأن الأولى كالمقدمة و الثانية كالنتيجة ...

---

(1)– التحرير و التنوير: الطاهر بن عاشور، الدار التونسية (بتونس)– المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر) 1984، ج 26، ص 213

(2) - في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق بيروت– القاهرة، 1402هـ – 1982م، ط 10، ج 26، ص : 3335.

(3)– التحرير و التنوير: الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 213.

ينظر كذلك الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1408 هـ – 1988م، ج01 ص 27.

(4)– و هي سورة (محمد). على رواية ورش.

لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح الله عليها و النبي صلى الله عليه و سلم بينها، و استتب الأمر، وجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه، و كيف يعاملونه ؟ و كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ " [1]

**- لمحة موجزة عن الأفكار الواردة في سورة الحجرات :**

لقد استهلت سورة الحجرات بالخطاب الموجه إلى المؤمنين " ألاّ يقطعوا أمرا دون أن يحكم الله و رسوله به، و لا أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه و سلم و لا أن يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض، لِما في ذلك من الاستخفاف الذي قد يؤدي إلى الكفر المحبط للأعمال " [2]

ثم عقب الله ذلك بالثناء على أولئك الذين " ارتعشت قلوبهم . و ارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب، و ذلك التحذير الرعيب ... و تأدبوا في حضرة رسول الله صلى الله عليه و سلم خشية أن تحبط أعمالهم و هم لا يشعرون " [3] فغضوا أصواتهم أمامه و لم يجهروا له بالقول كما يفعل ذلك بعضهم مع بعض.

ثم بعدها " ذم الله الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه و سلم من وراء حجرات أزواجه، و أرشدهم إلى أن انتظارهم له حتى خروجه هو أفضل لهم في دينهم و دنياهم " [4]

و لما " كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة و مصدر التلقي، و كان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة و توقير، و كان هذا و ذاك هو الأساس لكافة التوجيهات و التشريعات في السورة، فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون، و من تقرير مكان القيادة و توقيرها لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها و وزنها و طاعتها... جاء هذا النداء الثالث [5] يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء و كيف يتصرفون بها و يقرر ضرورة التثبت من مصدرها"[6] خاصةً إذا كان الناقل لها هو الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين فمثل هذا مظنةٌ للكذب و الإفتراء، و عليه فالواجب حسن النظر و دقة التأمل في كل أقواله.

---

(1)- تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، 1394 هـ - 1974 م، ط03، ج26، ص 120

(2)- المرجع نفسه.

(3)- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3339.

(4)- تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، ج26، ص 123

(5)- المقصود هو قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ... " الحجرات : 06.

(6)- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3340.

ثم إنه لما كان لكلام مثل هذا الرجل تأثير في بعض النفوس " و كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذي نقله الوليد بن عقبة، و إشارة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعجل بعقابهم " [1] جاء قوله تعالى﴿ وَ أَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[2] ليذكرهم " بالحقيقة الضخمة و النعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها و ينتبهوا دائما لوجودها ". [3]

ذلك لأن " من مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدي الله و رسوله، و لكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا و قوة و هو يخبرهم أن تدبير رسول الله صلى الله عليه و سلم لهم بوحي الله أو إلهامه فيه الخير لهم و الرحمة و اليسر، و أنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا و شق عليهم الأمر، فالله أعرف منهم بما هو خير لهم، و رسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم و يختار ". [4]

غير أن بعض المسلمين تورعوا عن فعل ذلك فاستثناهم الله بقوله : << وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ...>> [5] أي : إلى بعضكم و لكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم. [6]

و لولا هذا الاختلاف و المفارقة لما حسن الاستدراك ب (لكن) في مثل هذا الموضع بالذات. [7] و هو استدراك يحمل معنى الاستثناء، أي : استثناء من حبب الإيمان إليهم و زين في قلوبهم، و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان ليكونوا – بحق – من الراشدين.

" ثم بعد أن حذر الله تعالى المؤمنين من نبأ الفاسق، أبان... ما يترتب على خبره من

---

(1)– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3341، و قد ذكر المؤلف في الصفحة ذاتها كلاما مفاده : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه، فلما سار الوليد و اقترب منهم خاف و فزع، فرجع إلى الرسول صلى الله عليه و سلم و قال يا رسول الله : إنهم منعوا الزكاة و هموا بقتلي فأشار بعض الصحابة إلى الخروج لقتالهم....

(2)- الحجرات، 07

(3)– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3341.

(4)– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3342.

(5)- الحجرات، 07

(6)– ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق و تعليق: محمد مرسي عامر، دار المصحف: القاهرة –مصر ج: 06 ، ص :16.

(7)– ينظر التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، وهبة الزحيلي دار الفكر : دمشق سورية، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، 1991، ج 26، ص 229.

الفتنة و النزاع، و ربما الاقتتال، فطلب الله تعالى الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة و الوعظ و الإرشاد و التحكيم، فإن بغت إحدى الفئتين على الأخرى فتقاتل الباغية، الظالمة – ثم علل الأمر بالصلح بوجود رباط الأخوة بين الفريقين، ثم أمر الوُسطاء و الأطراف المتنازعة بتقوى الله " [1] " فإذا تم قبول البغاة لحكم الله، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله و طلبا لرضاه" [2].

و " بعد أن ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى و مع النبي صلى الله عليه و سلم و مع من يخالفهما و يعصيهما و هو الفاسق، بَيّنَ ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، فذكر أنه لا ينبغي أن يسخر منه و لا أن يعيبه بالهمز و اللمز، و لا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه، فبئس العمل هذا، و من لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه و ارتكب جرما كبيرا " [3].

كما بين أنه لا يجوز للمؤمن أن يسيء الظن بالناس، لأن ذلك عادة ما يحمل على تتبع عورات الغير و عيوبهم، و منه التعرض لذكر بعضهم بما يكرهون في غيبتهم، فحسب من يفعل هذا أن يُمثّل بأكل لحم أخيه الميت العاجز عن حمايته نفسه.

كل هذا من أجل تحقيق مبدإ الأخوة التي حثّ عليها رسول الرحمة صلى الله عليه و سلم فقد ذكر البخاري في صحيحه " حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن أبي بردة بريد بن أبي بردة قال أخبرني جدي أبو بردة عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبّك بين أصابعه " [4]

و " بعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا و أخذهم إلى ذلك الأفق السامي، الوضيء من الآداب النفسية و الاجتماعية، و إقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم و حريتهم و حرماتهم، و ضمان هذا كله..يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها و ألوانها، ليردّها إلى أصل واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق

---

(1)– التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج وهبة الزحيلي، ج 26، ص 237.

(2)– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3343.

(3)– تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي، ج 26، ص 133.

(4)– صحيح البخاري بشرح الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط: 03، 1405 هـ– 1985م، ج:21،ص: 178

السامـــق " [1]. قال الله تعالى : << يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَـــاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ >> [2] و ربما جاءت هـــذه الآية الكريمة بعد النهي عن الغيبة و احتقار الناس بعضهم لبعض تنبيها علـــى تســاويهم فـــي البشرية لكي يحصل بينهم التعـــارف.[3]

و " في ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان و قيمته في الرد علـــى الأعـــراب الذين قالوا << آمنا >> و هم لا يدركون حقيقة الإيمـــان، و الذيـــن منّـــوا علـــى رســـول الله – صلى الله عليه و سلم – أنهم أسلموا و هم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان... فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم و هم يقولون هذا القول، و أنهم دخلـــوا فـــي الإســـلام استسلاما، و لم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمـــان...

و مع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصـــهم منه شيئا " [4].

ثم بيّن الله سبحانه و تعالى " أن من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس و المال فـــي سبيل الله... ثم أعقب هذا بأن الله يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوي، إذ لا تخفى عليـــه خافية في الأرض و لا في السماء، و أنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه، بل من حق الرسول أن يمتن عليه بأن وُفق للهداية على يديه إن كان صادق الإيمان " [5].

" لأن الإيمان هو كبري المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد و سائر ما يتعلق بـــالوجود مـــن آلاء الـــرزق و الصّحة و الحياة و المتاع " [6].

ثم بعد هذا البيان لحقيقة الإيمان بالميزان القرآني يأتي قوله تعـــالى : << إِنَّ اللَّهَ يَعْلَـــمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ >> [7] للتنبيـــه إلى أن " الذي يعلـــم غيـــب

---

(1)– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3348.

(2)– الحجرات : 13.

(3)- ينظر تفسير ابن كثير، دار الأندلس، بيروت – لبنان. ط4، ج06، ص 387.

(4)- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3349.

(5)– تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي، ج 26، ص 145.

(6)– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3351.

(7)- الحجرات : 18.

النفوس، و مكنون الضمائر، و حقائق الشعور، و يبصر ما يعمله النّاس، فلا يستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم، و لكن من مشاعر تجيش في قلوبهم، و أعمال تصدق ما يجيش في قلوبهم " [1]

**الترابط الموضوعي بين أفكار و مباحث السورة :**

إذا أردنا أن ننظر إلى موضوعات السورة و مباحثها تبين لنا أنها " خمسة أقسام (أحدها) يتعلق بجانب الله و (ثانيها) بجانب الرّسول و (ثالثها) بجانب الفساق و (رابعها) بالمؤمن الحاضر و (خامسها) بالمؤمن الغائب فذكرهم [2] الله تعالى في السورة خمس مرات ( يا أيها الذين آمنوا ) و أرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة " [3].

فأرشد الله المؤمنين في النداء الأول إلى وجوب عدم التقديم بين يدي الله و رسوله، و ذكرُ الرسولِ صلى الله عليه و سلم هنا لأن طاعة الله لا تُعلم و لا تتحقق إلا بطاعة رسوله صلى الله عليه و سلم. قال الله تعالى ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [4].

ثم أرشدهم في النداء الثاني إلى وجوب احترام الرسول صلى الله عليه و سلم احتراما يليق بمقام النبوة.

ثم بيّن لهم في الثالث وجوب الاحتراز من أقوال الفاسق نظرا لِما يترتب عنها – في الغالب – من نزاعات و حروب بين الجماعات المسلمة.

أما في الرابع، فقد حذر الله من إيذاء المؤمن لأخيه المؤمن بالاحتقار و الازدراء له في حضرته.

و أما في النداء الخامس و هو الأخير الموجه إلى المؤمنين، فقد شدد التحذير من اغتياب المؤمن لأخيه بنهش لحمه و هتك عرضه.

و المتأمل في هذه الأقسام يجد أنها "في غاية الحسن و الترتيب، فإن قيل : لِمَ لَمْ يُذكر المؤمنُ قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة. الابتداء بالله و رسوله، ثم بالمؤمن الحاضر، ثم بالمؤمن

---

(1) - في ظلال القرآن: سيد قطب، ج 26، ص 3354.

(2) - ضمير الجمع يعود على المؤمنين حيث أن في الآيات إرشادا لهم إلى المكارم.

(3)– التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، دار الفكر المجلد : 14، ج 26 ص : 118.

(4)-- النساء : 80.

الغائب، ثم بالفاسق ؟ نقول : قَدم الله ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جانب الله، ثم جانب الرسول، ثم ذكر ما يُفضي إلى الاقتتال بين طوائف المؤمنين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق و الاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارا للصدور، و أما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتل، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الإقتتال، فقال << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا >> (1)" (2).

فإن قيل : أين موضعُ الآية الثالثة عشر و المصدرة بـ: (يا أيها الناس ....) من ترتيب مباحث السورة و موضوعاتها ؟ نقول : إنه لَمّا حذر الله تعالى من إيذاء المؤمن و امتهانه سواء في حضرته أو في غيابه،و ذلك كالإفتخار عليه بالمال أو الجاه أو بالجمال، أو بكثرة النفر، أو بالأنساب و الأحساب كما كانت عادة العرب جارية آنذاك، هتف الله بالبشرية جمعاء و أرشدهم إلى أنه لا مجال للتفاخر بشيء من هذا أو ذاك إذ الكل من أصل واحد ، و من طينة واحدة، مهما اختلفت- بعد ذلك – أجناسهم و ألوانهم و ألسنتهم.

و إذا كان و لا بد من الافتخار ، بل من الاعتزاز، فإن ذلك إنما يكون بمقدار ما في القلب من إيمان بالله تعالى و حب له و رجاء في رحمته و خوف من عقابه و استعداد للتضحية في سبيل كل ذلك بكل غال و نفيس.

فهذه هي فقط الغاية الأسمى التي تجعل العبد يتسامى بروحه على معايير الأرض ليرتقي إلى موازين رب الأرض و السماوات، مُحققا إرضاء المولى، غير متردد في سبيل ذلك بالتنازل عن كل أمواله و ثرواته، بل بالتضحية بها هو أغلى و أعز، و هي النفس.

هذا مجمل ما جاء من كلام عن السورة من حيث الأجواء العامة التي نزلت فيها، و كذا عن سبب تسميتها بالحجرات، و من حيث عدد آياتها القليل و مقارنة ذلك بضخامة ما تتضمنه السورة من المعاني و تقل المواضيع و المباحث، و كذلك من حيث الترابط القائم بين أجزاء هذه السورة و أفكارها، ... ذكرناه كتوطئة لننتقل إلى أهم ما تتمحور حوله دراستنا هذه، و هو الكشف على الجماليات الأسلوبية التي كثيرا ما انصبت جهود المفسرين و العلماء لتجليتها و توضيح أسرارها سواء ما تعلق منها بالجانب اللغوي أو ما تعلق منها بالجانب الأسلوبي،

---

(1)- الحجرات : 09.

(2)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، دار الفكر، ج 26 ص : 119.

أو الجانب التشريعي، خصوصا و نحن نتأمل في كلام هو بالدرجة الأولى المصدر الأول لمصادر التشريع الإسلامي.

إلا أننا لا نعني بالجانب التشريعي الخوض في المسائل الفقهية و العبادات المختلفة، و إنما المقصود هو بعض الإشارات الخفية إلى هذه الأمور، و المتمثلة في القواعد العملية – مثلا – من ورود جملة على نسق معين، أو من ورود لفظة قبل أخرى في موضع، و ورود الثانية قبل الأولى في مواضع أخرى و هكذا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الفصل الأول

## بين الخبر والإنشاء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من المتداول في علم المعاني، - و هو فرع له مكانته في الدراسات الأدبية، و الأسلوبية على وجه الخصوص - أن الكلام إما أن يكون خبرا أو إنشاء. [1]

1- و الخبر إما أن يكون إثباتا لقول أو فعل [2]، فمثال القول : قال زيد كذا،أو صدق عمر في كلامه، و مثال الفعل : بنى المسلمون المسجد، أو هُزم جيش العدو.

- و إما أن يكون نفيا لقول أو حدث [3]، فمثال القول : لم يقل زيد هذا، أو ما قال عمر الحقيقة، و مثال الحدث : لم ينهزم المسلمون في بدر، و لم تُشف جراح العليل.

2- أما الإنشاء فليس فيه مجال للحديث عن إثبات أو نفي الأقوال و الأفعال، و إنما فيه أمران، إما الطلب، و يشمل الأمر كقولنا : قم يا زيد، أو النهي كقولنا : لا تشرك بالله، أو الاستفهام كقولنا ، أ أديتم واجب الزيارة أم لا ؟ [4].

- أو غير الطلب، و يشمل المدح كقولنا : نِعم الرجل هو، أو الذم كقولنا : بئست المرأة تلك، أو الرّجاء كقولنا : لعل رحمة الله تشملنا [5]...

- هذا و بما أن القرآن الكريم هو كلام، فلا ريب أن يكون منه خبر و إنشاء.

---

(1)- ينظر : الإتقان في علوم القران : جلال الدين السيوطي، ج : 03، ص : 225.

(2)- ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة - البديع و البيان و المعاني - د/ إنعام فوال عكاوي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - 1417 هـ - 1996 م، ط : 02، ص 559.

(3)- ينظر : المرجع نفسه.

(4)- ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة . البديع و البيان و المعاني - د/ إنعام فوال عكاوي،ص : 236.

(5)- ينظر : المرجع نفسه.

# المبحث الأول

## دلالات الأسلوب الخبري

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من المعلوم أيضا – في علم المعاني – أن كل خبر إذا نظرنا إلى مضمونه من حيث القائل أو من حيث الواقع يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب، [1]أما و نحن نتحدث عن كلام الله، فلا شك أن يكون هذا الكلام مقطوعا بصدقه و براءته من الكذب، سواء روعي في ذلك القائل أو الواقع، سواء استند في ذلك على النقل أو على العقل، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [2]، و قال أيضا : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [3].

و إذا كانت الأخبار – في كلام الناس– تحتمل الفائدة منها أو لازم هذه الفائدة [4] فهل يمكن أن تقتصر أخبار القرآن الكريم – و بالتحديد الواردة في الحجرات – عن فائدتها فقط ؟ أم أن لهذه الأخبار لوازم و أبعادا مستنبطة منها ؟ ذلك ما سنتطرق إليه في هذا المبحث، فإليك هذا البيان مع جملة الأخبار الواردة في الحجرات، و أغراضها.

**الأول :** قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [5] فهو " تعليل للنهي عن التقدم بين يدي الله و رسوله و للأمر بتقوى الله " [6] حيث قد ورد في الآية ذاتها نهي و أمر : نهي عن البث في أمر من الأمور قبل النظر في حكم الله و رسوله صلى الله عليه وسلم فيه، و أمر بالتقوى و الحذر من اقتراف مثل هذا الصنيع. و معنى ذلك: إن الله يسمع أقوالكم و يعلم أفعالكم فلأجل هذا عليكم بالمراقبة المستمرة له و الحذر من إتيان ما نهاكم عنه.

كما قد يكون الغرض من هذه الفاصلة الإخبارية هو تأكيد " ما تقدم لأنهم قالوا آمنا، لأن الخطاب يفهم بقوله (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فقد يسمع قولهم و يعلم فعلهم و ما في قلوبهم من التقوى و الخيانة، فلا ينبغي أن يختلف قولكم و فعلكم و ضمير قلبكم، بل ينبغي أن يتم ما في سمعه من قولكم آمنا و سمعنا و أطعنا، و ما في علمه من فعلكم الظاهر، و هو عدم التقدّم، و ما في قلوبكم من الضمائر و هو التقوى" [7]

---

(1)- ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة – البديع و البيان و المعاني – د. إنعام فوال عكاوي، ص 553.

(2)- البقرة : 1 – 2.

(3)- فصلت : 42 .

(4)- ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة . البديع و البيان و المعاني – د. إنعام فوال عكاوي، ص : 555.

(5)- الحجرات : 01.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج 26، ص : 219.

(7)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص : 112.

و لعله لأجل هذا المعنى ذكرت عبارة << بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ >> [1] الغرض تقرير النهي المتقدم، و الأمر المتأخر " لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديرا بأن يتقيه " [2] و يحذر من مخالفته.

**الثاني :** قوله تعالى : << ...أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ >> [3] فهو أيضا " تعليل لما قبله من النهيين .... و المعنى : إنني أنهاكم عما ذكر لكراهة حبوط أعمالكم بارتكابه " [4] حيث أن في الآية الكريمة بيانا " لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته – صلى الله عليه و سلم– من خسران " [5] " كما أن الجهر له بالقول يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم " [6].

و ربما ما يؤكد هذا هو تذليل النهيين بفاصلة << وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ >> " للتنبيه إلى مزيد الحذر من هذه المهلكات حتى يصير ذلك دربة حتى يصل إلى مايُحبط الأعمال " [7] لأن الذي يشعر بالأمر يكون على حذر منه أما الذي لا يشعر به فيتعذر عليه أو يصعب عليه الحذر منه.

**الثالث :** قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ >> [8] و فيه " حث على ما أرشدهم إليه " [9] في الآية السابقة حيث تجلى ذلك في النهي عن رفع الأصوات فوق صوت النبي صلى الله عليه و سلم و الجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض.

و كما أن في الآية الكريمة دلالة صارخة على تفخيم شأن هؤلاء الغاضين أصواتهم، ففيها ...

---

(1)- الحجرات : 01.

(2)- لتفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص : 111.

(3)- الحجرات : 02..

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني؛ الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 135.
ينظر كذلك : غرائب القرآن و رغائب الفرقان؛ النيسابوري، (على هامش تفسير الطبري ط :04) دار المعرفة، بيروت– لبنان– ج:26، ص: 74.

(5)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السّيد طنطاوي، مطبعة السعادة، 1406 هـ – 1986م، ج:26، ص: 172.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 221.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 222.

(8)- الحجرات : 03.

(9)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص : 115.

كذلك " تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم و إستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء " [1]

أي: الغاضين أصواتهم . هذا و في الآية أيضا تأكيد " لمضمون الآية السابقة و تشويق للإنتهاء بما فيها من النهي". [2]

أما " افتتاح الكلام بحرف التأكيد [ف]للإهتمام بمضمونه من الثناء عليهم و جزاء عملهم، [كما] تفيد الجملة تعليل النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما و [قد] أكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله:<< أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى >> مع ما في اسم الإشارة من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذكر من الوصف قبل اسم الإشارة " [3].

و أما قوله تعالى : << لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ >> فهو استئناف " لبيان جزاء الغاضين إحمادا لحالهم " [4] و ثناء عليهم لما بدا منهم من توقير للرسول صلى الله عليه و سلم. و لو لا الاستئناف – ربما – ما كان ليصبح لهذا الثناء بليغ المعنى مثلما كان له ذلك حينما ضمن جملة الاستئناف، و ذلك حتى يبقى هذا الجزاء كالشعار المستقل الثابت الذي لا يتبدل.

**الرابع :** قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ >> [5] فالآية الكريمة فيها تخلص من المقدمة إلى الغرض المقصود، و لذلك – ربما – لم يكن ليظهر حسن موقع قوله تعالى في هذه الآية كما ظهر بعد النهي عن رفع الصوت و الجهر له صلى الله عليه وسلم بالقول، إذ " في هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادوا النبي صلى الله عليه و سلم من وراء الحجرات ". [6]

---

(1)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري،ج: 06، ص: 14.

ينظر كذلك : البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر 1328هـ :ج:08، ص: 106.

(2)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان، 1411 هـ – 1991 م، ج: 18، ص: 314.

(3)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 222.

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 138.

ينظر كذلك : روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، دار إحياء الثرات العربي، بيروت – لبنان، ج: 26، ص: 66.

(5)- الحجرات : 04.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 221.

فالمناداة من وراء الحجرات فيها من القبح و الإستنكار ما يدخل – بحق – في نطاق الرفع للأصوات و الجهر بالقول مع النبي صلى الله عليه و سلم، فهي مظهر من مظاهر الرفع و الجهر المنهي عنهما.

و قد " حكم عليهم بعدم العقل لأنهم لم يعقلوا أن هذا النحو من النداء خارج عن قانون الآداب و منبئ عن عدم الوقار و الأناة لا سيما في حق النبي صلى الله عليه و سلم فإنه لم يكن يحتجب عن الناس إلا عند الخلوة أو الإشتغال بمهام أهل البيت ". (1)

**الخامس** : قوله تعالى : << وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ >> (2) كلام مستأنف (3) لبيان ما كان ينتظر هؤلاء المنادين للرسول صلى الله عليه و سلم من وراء الحجرات من خير كثير، و ربما لبيان أنهم كانوا سيكونون على حال أفضل لو أنهم صبروا النفس و انتظروا حتى يخرج إليهم الرسول صلى الله عليه و سلم.

و مع ذلك فإن الله " ذو عفو عمن ناداك [أيها الرسول] من وراء الحجرات إن هو تاب من معصيته بندائك كذلك و راجع أمر الله في ذلك و في غيره، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك بعد توبته منه " (4) " فالله هو الغفور لذنوب العباد الرحيم بالمؤمنين حيث إقتصر على نصحهم و تقريعهم، و لم ينزل العقاب بهم ". (5)

و هذا ما يجعلنا نميل إلى أن قوله تعالى << وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ >> فيه " تحقيق لأمرين (أحدهما) لسوء صنيعهم في التعجّل، فإنّ الإنسان إذا أتى بقبيح و لا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه، بل لبيان عظيم جناية العبد [ و هنا يتبين – بالفعل – كيف يمكن للخبر أن يخرج عن مقتضى ظاهره فلا يكتفي بفائدته فقط، بل يتعداها إلى ما يلزم عن هذه الفائدة ] و (ثانيها) لحسن الصبر، يعني:بسبب إتيانهم بما هو خير، يغفر الله لهم سيئاتهم و يجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات، كما يقال للآبق إذا رجع إلى باب سيده أحسنت في

---

(1)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان، النيسابوري، ج: 26، ص: 77.

(2)- الحجرات : 05.

(3)- ينظر : تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه: محمد علي طه الدرة، دار الحكمة – دمشق – بيروت، 1411 هـ – 1990 م، ج: 26، ص : 588.

(4)- تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي، ج 26، ص 125.

(5)- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم- بيروت 1402هـ – 1981م ط4 ، المجلد 03 ص 233.

رجوعك و سيدك رحيم، أي:لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك، بسبب ما أتيت به من الحسنة، و يمكن أن يقال بأن ذلك حث للنبي صلى الله عليه و سلم على الصفح " [1]و ليس ذلك ببعيد فهو النبي المرسل رحمة للعالمين.

**السادس :** قوله تعالى : << ... أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ... >> [2] وهو " تعليل للأمر بالتبين أي : فتبينوا كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا (قَوْمًا) أَيَّ قوم (بِجَهَالَةٍ) ملتبسين بجهالة لحالهم". [3]

و معنى ذلك أن الله تعالى بعد أن أمر بالتبين " علل التبيين بقوله (أَنْ تُصِيبُوا) أي : كراهة إصابتكم (قَوْمًا) حال كونكم جاهلين بحقيقة الأمر". [4]

أما قوله تعالى : بعد ذلك : << ...فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ >> [5] فهو " تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعا، أي : ما يوجب التوبة من تلك الإصابة " [6] التي في قوله : << أَنْ تُصِيبُوا... >>.

و على العموم فالتعليل فيه تأكيد للأمر بالتبين لأن من يدرك علة الشيء يكون أكثر استجابة للأمر، و أما التحذير ففيه مزيد إشعار بخطورة الأمر، لأن من يقف عن إدراك نتائج أمر ما يكون أكثر ابتعادا عنه إن كان في جانب الشر، و أسرع تنفيذا له إن كان في جانب الخير.

**السابع :** قوله تعالى : << ...لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ >>.[7]

الملاحظ أنه قد وقع اختلاف بين المفسرين حول قوله تعالى : << لَوْ يُطِيعُكُمْ... >> فمنهم

---

(1)- التفسير الكبير : فخر الدّين الرّازي، ج: 26، ص : 118.

(2)- الحجرات : 06.

(3)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 147.

(4)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان، النيسابوري، ج:26، ص: 79.

(5)- الحجرات : 06.

(6)- التحرير و التنوير : الطّاهر بن عاشور، ج 26، ص : 234.

ينظر كذلك :التفسير الكبير : فخر الدّين الرازي، ج: 26، ص : 121.

(7)- الحجرات : 07 و 08.

من يرى أنها استئناف لكلام جديد و تشريع مستقل بذاته [1]، و منهم من يرى أن هذه " الجملة المصدرة بلو ليس كلاما مستأنفا لاختلال النظم حينئذ و لكنها حال من أحد الضميرين في فيكم و هو المستتر المرفوع أو البارز المجرور، و المعنى أن فيكم رسول الله على حالة يجب تغييرها و هي أنكم تطلبون منه اتباع آرائكم ". [2]

و قريبا إلى هذا الرأي ذهب أحدهم حين قال : أن هذه الجملة هي " كالجواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول : لماذا نرجع إليه و لا يرجع إلينا و لا يوافقنا ؟ فأجيب بأنه (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) ". [3]

و علاوة على كل ذلك فإنه حينما يُعلم أن الخطاب موجه إلى المؤمنين يظهر – بعدها – جليا أن فيه " إيحاءً الهم بأن يتركوا أمرهم لله و رسوله " [4] و أن لا يفتاتوا على الرسول صلى الله عليه و سلم، و لا يغالوا في إبداء الرأي له دون أن يأذن لهم أو يفاتحهم بذلك.

و لذلك لمّا برئ بعضهم من مقارفة هذا السلوك جاء قوله تعالي : << وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ .... >> " كتجريد للخطاب و توجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بيانا لبراءتهم من أوصاف الأولين و إحمادا لأفعالهم و هم الكاملون الذين لا يعتمدون على كل ما سمعوه من أخبار " [5] و هو –كما يبدو – " استدراك على ما يقتضيه الكلام فإن ( لَوْ يُطِيعُكُمْ) خطاب ... للبعض الغير الكُمَّل... و المحبب إليهم الإيمان هم الكمل فكأنه قيل : و لكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان، و عدل عنه لنداء الصفة به" [6] أي:لوجود الصفات المميزة لهؤلاء الكمل متضمنة في هذا الإستدراك.

---

(1)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 234.

ينظر كذلك : روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج: 26، ص: 71.

(2)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان، النيسابوري، ج:26، ص: 80.

(3)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج :18، ص : 317.

(4)- في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص: 3342.

(5)- روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي ، ج:26 ، ص : 72.

(6)- روح المعاني : الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 148.

ينظر كذلك أنوار التنزيل و أسرار التأويل: ناصر الدين البيضاوي، المطبعة البهية المصرية 1344هـ – 1925م ط2، ص: 492. و كذلك: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : السمين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1414 هـ – 1994 ، المجلد 06، ص : 169.

كما يحتمل أن يكون من فوائدهذا الاستدراك التحريض " على التسليم لما يأمر به الرسول صلى الله عليه و سلم و هو في معنى قوله تعالى << حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا >> [1] و لذا فكونه حبب إليهم الإيمان إدماج و إيجاز، و التقدير: و لكن الله شرع لكم الإسلام و حببه إليكم أي دعاكم إلى حبه و الرضي به فامتثلتم " [2] لذلك، و ثبت حبكم لهذا الدين، فأما الإدماج فلأن الآية فيها أمران :

1- الأمر الأول : الدعوة إلى حب الإيمان و الرضي به.

2- الأمر الثاني : الامتثال لهذه الدعوة و العمل بهذا الأمر، أي : بمقتضاه.

و أما الإيجاز فمعناه الإختصار و الإقتصار على لفظ واحد تضمن الأمرين السابقين معا.

أما الجملة المعطوفة بقوله تعالى : << ... وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ >>[3] ففيها " تعريض بأن الذين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه و سلم فيهم بقية من الكفر و الفسوق " [4] و رُبَّ تعريض لا يقاومه التصريح، لأن من مظاهر و بوادر الخروج عن دائرة الإيمان المبادرة بالقول و بالفعل أمام حضرة النبي صلى الله عليه و سلم دون إذن منه لما في ذلك من الاستهانة الخفية بمقام النبوة.

و بناء على هذا قد يمكن القول أنّ الخبر في قوله تعالى : << وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ ... >> إلى قوله : << ... وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ >> "مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة محبة الإيمان و كراهة الكفر و الفسوق و العصيان، أي: إن كنتم أحببتم الإيمان و كرهتم الكفر و العصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه و كان الفسوق و العصيان يدعو إليه ". [5]

---

(1)- النساء : 56.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 236.

(3)- الحجرات : 07..

(4)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 236.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 237.

أما جملة << أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >> فهي معترضة، الغرض منها أمران سوف نأتي إلى تناولهما في المبحث الثاني عند الحديث عن الإنشاء غير الطلبي.

و أما عبارة << فَضْلاً مِنَ اللهِ وَ نِعْمَةً >> فهي " تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان و تزيينه وتكريه الكفر و الفسوق و العصيان أي : إن ذلك منه تعالى مجرد عطية و نعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلا جزافيا فإنه تعالى عليم بمورد عطيته و نعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافا " [1] و لذلك جاءت جملة << وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ >> " كتذييل لجملة << وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ... >> إلى آخرها إشارة إلى أن ما ذكر فيها من آثار علم الله و حكمته " [2] فهو العليم بأحوال المؤمنين و ما بينهم من التفاضل و التمايز، و هو الحكيم الذي لا يفعل ما يفعل إلا بموجب الحكمة البالغة. [3]

هذا و إن في تبيان صاحب النّعم و صاحب الحِكمة و العلم أيضا " إيحاءً لهم ... بالاستسلام لتوجيه الله و تدبيره، و الإطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم و بركة، و ترك الإقتراح و الإستعجال و الإندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم قبل أن يختار لهم اللّه" [4] العليم الحكيم.

---

(1)-الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج :18، ص : 318.

ينظر كذلك : روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج: 26، ص: 72.

و كذلك روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 149.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 238.

(3)- ينظر : روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج: 26، ص: 72.

(4)- في ظلال القران : سيد قطب، ج :26، ص 3342.

**الثـــامـــن :** قوله تعالىٰ<< إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ >> [1] " تعليل للأمر بـــالإصلاح، لـــذا كرر الإشارة إلى الإخاء مرتبا عليه الأمر بالإصلاح" [2] حيث يقول بعدها مباشرة << فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ... >>أي : " لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينـــهم ، فالجملـــة موقعها [إذن] موقع العلة، و قد بُنِيَ هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعـــض كحال الإخوة.[كما أن] هذه الآية فيها دلالة قوّية على تقرر وجوب الأخوّة بيـــن المســـلمين لأن شأن (إنما ) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب و لا يدفع صحته أو لَمَّا ينزل منزلة ذلك " [3]

و عليه ففي الآية الكريمة تعليل و تأكيد، تعليل مبين لسبب الأمر بالإصلاح و تـــأكيد لحقيقـــة العلاقة القائمة بين المسلمين، و هي الأخوة، و لعله لأجل ذلك جيء بصيغة القصـــر المفيـــدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغةً في تقرير هذا الحكم بين المسلمين. [4]

هذا و يبدو جليا أن في الآية الكريمة إشارة إلى " وجـــوب الإصـــلاح بيـــن الطـــائفتين المتباغيتين...ببيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من النسب الموجِى ما لا ينقـــص عـــن نســـب الأُخوة الجسدية " [5]

و على العموم فالآية الكريمة " استئناف مقرر لمضمون ما قبله من الأمر بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين" [6] من المؤمنين، أما " قصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الأخوة [فهو] مقدمـــة ممهدة لتعليل ما في قوله : << فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ >> من حكم الصلح فيفيد أن الطـــائفتين المتقاتلتين لوجود الأخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح، و المصلحـــون لكونـــهم إخـــوة للمتقاتلين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما ". [7]

---

(1)- الحجرات : 10.

(2)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج 26 ، ص 235.

(3)- التحرير و التنوير : الطّاهر بن عاشور، ج 26، ص 243.

(4)- ينظر : صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، المجلد 03 ، ص 235.

(5)- التحرير و التنوير : الطّاهر بن عاشور، ج 26، ص 244.

(6)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج 26، ص 184.
ينظر كذلك روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 151.

(7)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج 26، ص 319.

**التاسع :** قوله تعالى : << إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ >> [1] فهو "استئناف بياني لأن قوله: <<اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ >> يستوقف السامع ليتطلب البيان فاعلموا أن بعض الظنّ جرم" [2] و ليس كل الظنون، إذ منها الحسن كالظنّ بالناس عموما ، و منها الواجب كحسن الظن بالله تعالى ، و منها القبيح المحرم، كسوء الظن بالله، أو بالعلماء أو بالأنبياء...

وعلى ضوء ما سبق يمكن القول أن الجملة " تعليل مستأنف للأمر بالإجتناب " [3] أي: " التعليل للأمر باجتناب الظن" [4] المنهي عنه شرعا و المنفور منه فطرة.

أما إذا نظرنا إلى آثار الظنون على أرض الواقع فإننا نضطر -ربما- إلى ترجيح رأي من قال عن هذه العبارة بأنها " تعليل الأمر بالاجتناب أو لموجبه " [5] و الجديد في هذا، أن الظن في حدّ ذاته لا يحاسب عليه، و إنما يؤاخذ الإنسان إذا تكلم بموجب ذلك الظن، و تحدث بما يجول في خاطره [6] و ما يوسوس له به الشيطان من أفكار خاطئة عن إخوانه أو عن الناس الآخرين فيصيب بذلك عرض الأبرياء.

أما قوله تعالي : << فَكَرِهْتُمُوهُ >> - في الآية ذاتها- فقد " قيل لفظه خبر و معناه الأمر، تقديره فأكرهوه، و لذلك عطف عليه و اتقوا الله ". [7]

و لعله رأي على قدر كبير من الإصابة إذا راعينا في ذلك خروج الخبر عن مقتضى الظاهر، و دلالته على لوازم الفوائد، أمّا عن عطف جملة << وَ اتَّقُوا اللَّهَ >> فربّما تكون استئنافا لكلام مستقل خصوصا و أنّ الأمر بالتقوى قد ورد في أغلب آيات القرآن الكريم على أساس أنّه تشريع مستقل بذاته.

و عليه يمكن القول -ربّما - أنّ معنى " فكرهتموه " فقد كرهتموه و استقرّ ذلك، و فيه معنى الشرط أي : إن صحّ هذا فكرهتموه... أي : فتحققت بوجوب الإقرار عليكم و بأنّكم لا تقدرون على دفعه و إنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له و تقذركم منه فليتحقق أيضا

---

(1)- الحجرات : 12.

(2)- التحرير و التنوير : الطّاهر بن عاشور، ج 26، ص 251.

(3)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج 26 ، ص 247.

(4)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26 ، ص 609.

ينظر كذلك التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السّيد طنطاوي، ج 26، ص 191.

(5)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 157.

(6)- ينظر : الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 18، ص: 327.

(7)- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج 08، ص 115.

أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة و الطّعن في أعراض المسلمين". [1]

و بذلك يتجلى أنّ في اللفظة "كَرِهْتُمُوهُ" إثباتا و تكليفا : إثباتا للحقيقة الفطرية التي لا مفرّ منها، و هي التقذر من نهش لحم الميت، و تكليفًا بوجوب الإمتناع عن الفعل الذي شُبِّه بهذا المشهد الكريه.

**العاشر:** قوله تعالى: << إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ >> [2] " تعليل للأمر السابق " [3] أي: الأمر بتقوى اللّه " لأنّه تعالى تواب رحيم لمن اتقى و اجتنب ما نهى عنه و تاب ممّا فرط منه، و تواب أي: مبالغ في قبول التوبة ". [4]

و الفاصلة – بما تضمنت من إخبار عن صفتين من صفات اللّه تعالى– لا يمكن فهم المراد بها إلاّ بالرجوع إلى فهم المراد من الأمر في قوله تعالى: <<وَ اتَّقُوا اللَّهَ >> قبلها مباشرة

فإنْ كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذّنوب التي كانوا يقترفونها بالتوبة إلى اللّه سبحانه فالمراد بقوله تعالى : << إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ >> أنّ اللّه كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين إليه اللاّئذين به، و إن كان هو التجنب عنها و التورع فيها و إن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله << إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ >> أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية و التوفيق و الحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم.

و ذلك أن التوبة من الله توبتان : توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى : << ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا >> [5]، و توبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة و قبول التوبة كما في قوله << فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ >> .[6] " [7]

و على أية حال فإن توبة الله على العباد هي دليل على رحمته بهم في هذه الحياة، سواء كان ذلك بالتوفيق إلى الرجوع إلى طريق الهداية، أو بالعفو و الصفح عن الذنوب بعد ارتكابها.

و علاوة على كل ذلك فالآية الكريمة فيها " حث على التوبة، و ترغيب بالمسارعة

---

(1)– الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج :06 ص : 21.

(2)– الحجرات : 12.

(3)– تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26 ، ص 610.

(4)– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 159.

(5)– التوبة : 118

(6)– المائدة : 39.

(7)– الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 18، ص : 329.

إلى الندم و الاعتراف بالخطإ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله " [1]. ذلك لأن الذي يدرك مدى ترحيب الله تعالى بعودة عبده إلى رحابه، و شدة فرحته تعالى بأوبة من أثقلت المعاصي كاهلهم و جاوزت ذنوبهم ضخامة الجبال، فلا شك أن يكون له ذلك بمثابة المحرك الدافع إلى المسارعة إلى رحاب الإيمان، و الإكتئاب على ما فرط من العصيان.

**الحادي عشر** : قوله تعالى : << .... إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ >> [2] و هو شعار يحمله المسلمون في كل زمان و مكان، و إليه يستندون لتمييز الخبيث من الطيب، و الغث من السنين، ذلك لأن فيه " تبيانا لما تقدم و تقريرا له، و ذلك لأن السخرية من الغير و العيب إن كان بسبب التفاوت في الدين و الإيمان، فهو جائز [لأن] قوله << لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا >> و قوله <<وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ >> منع من عيب المؤمن وغيبته، وإن لم يكن لذلك السبب فلا يجوز ...." [3]

أي : إذا كان التفاخر بسبب النسب أو الغنى أو الجمال و ما إلى ذلك فلا يجوز، لأن مثل هذه الأمور لا اعتبار لها أساسا أمام معيار السماء و ميزان الحق، فالمال يزول، و الجمال يفنى، و النسب كله واحد يجمع البشرية جمعاء تحت راية أب واحد خلقه الله من طين، من حمإٍ مسنون.

أما قوله تعالى <<لِتَعَارَفُوا >>فهو تعليل للخلق و الجعل [4]، و " بيان لما يترتب على خلقهم على تلك الصورة، و للحكمة من ذلك " [5] أي : إننا "جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا فتصلوا الأرحام" [6].

و أما جملة << إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ >> فهي " تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي كأن قيل : إن الأكرم عنده تعالى هو الأتقى و إن كان

---

(1)- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، المجلد : 03، ص : 236.

(2)- الحجرات : 13.

(3)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص : 136.

ينظر كذلك روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 161.

(4)- ينظر تفسير القرآن الكريم ، و إعرابه و بيانه : محمد علي الذرة، ج 26 ، ص 614.

و كذلك : ربع يس المفسر : سميح عاطف الزين و كامل سليمان و علي حسين عبد الله، دار الكتب الإسلامية – دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت – لبنان، 1408 هـ – 1988 م، جزء الأحقاف المفسر، ص : 124.

(5)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص : 197.

(6) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 162.

عبدا حبشيا أسود مثل بلال فإنْ فاخرتم ففاخروا بالتقوى و بفضل الله و رحمته بل بالله تعالى" [1] لأن الله فقط هو الحاكم، و بيده فقط ميزان العدل الذي يُعرف به الأكرم من الأخبث، و الأسمى من الأدنى.

و مما يعزز هذا هو أن جملة << إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ >> مستأنفة استئنافا ابتدائيا، و إنما أخرت في النظم عن جملة إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا، لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه و تتنزل منها منزلة المقدمة لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد و أم واحدة كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضا إلا بالكمال النفساني، و الكمال الذي يرضاه الله لهم و الذي جعل التقوى وسيلته و لذلك ناط التفاضل في الكرم ب << عِنْدَ اللَّهِ >> إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به " [2].

و لعل أمرا ما يدفعنا إلى ترجيح أن تكون جملة << إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ >> هي – علاوة على كونها نتيجة منطقية لمقدمة << إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ .....إلى أخر الآية >> – فهي أيضا تشريع مستقل و شعار رباني يستند إليه جميع المسلمين في جميع العصور و الأمصار خصوصا و أن من مبادئ دينهم الحنيف التساوي في الأصل، و من أهداف هذا الدين نبذ كل مظاهر الفخر و الإعتزاز إلا بمقدار الإنتساب إلى هذا الدين، و لذلك قال أحدهم :

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ ** إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْتَمِيم [3]

هذا و مما ذكر عن فاصلة << إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ >> أنها " تعليل لمضمون << إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ >> أي : إنما كان أكرمكم أتقاكم لأن الله عليم بالكرامة الحق و أنتم جعلتم المكارم فيما دون ذلك من البطش و إفناء الأموال في غير وجه [ و الله ] خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى فهي عنده حظوظ ". [4]

---

(1)- روح البيان : البرسوي، ج: 26، ص : 91.

ينظر كذلك : تفسير أبي السعود: أبو السعود محمد بن محمد العمادي، مؤسسة التاريخ العربي دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، 1411 هـ – 1990م، ط2، ج: 08 ص: 123.

(2)- التحرير و التنوير : الطّاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 262.

(3)- صاحب البيت هو : نهاربن توسعة، و البيت موجود في : المعجم المفصل فى شواهد اللغة العربية : د/ إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – 1417 هـ – 1996، المجلد : 07، ص : 448.

(4)- التحرير و التنوير : الطّاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 262.

**الثـــانـــي عشـــــر :** قوله تعالى : << قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .... وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَـــانُ فِـــي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ >> [1] فـــالكلام هنا مستأنف يتضمن التوبيخ لهؤلاء الناس بعد حثّ لعموم الناس على التقوى [2] ذلك لأنه ليـــس من التقوى أن يدّعي هؤلاء الأعراب الإيمان ، و لم يدخل الإيمان بعد قلوبهم ، و إنّمـــا دخلـــوا الإسلام استسلاما و خوفا و تحصينا لأنفسهم وحماية لها بخلاف تلك الصفوة التي دخلت الإسلام و التزمت بشعار التقوى في كل الأحوال فكانت بحق زمرة الإيمان الصادقة التي قـــال تعـــالى عنها : << أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ >> .[3]

و أمّا الجملة << وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ >> فليست استئنافا و لا فصلا عـــن مجـــرى الكلام الذي قبلها ، بل هي –على رأي البعض– حال من ضمير قولوا [4] أي : و لكـــن قولـــوا أسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم " [5] و ذلك حتّى يتبين أمران أساسيان :

1– عدم بلوغهم مرتبة الإيمان بعد.

2– احتمال دخول الإيمان قلوبهم بعد ذلك،وهذا ما أفادته (لمّا) النافية للحدث إلى زمن التكلم فقط.

و ممّا قيل عن فاصلة << إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ >> أنّها " تعليل لعدم نقصه تعـــالى أعمالـــهم إذا أطاعوه و رسوله " [6] – صلى اللّه عليه و سلّم– أي: أنّ الله تعالى تـــنزه أن يبخســـهم حقـــهم أو ينقص من أجور أعمالهم حال طاعتهم له لأنّه هو الغفور، الغفّـــارُ لكـــلّ ذنـــوب العبـــاد، الرحمان الرحيم الرؤوف بكل مطيع له محبٌ لدينه مقبلٍ على عبادته .

– كما يمكن أن تكون الفاصلة – أيضا – ترغيبا"في إخلاص الإيمان : لأن الغفور كثير المغفرة شديـــدها ". [7]

و كلما شعر العبد بواسع مغفرة اللّه و واسع رحمته كلما كان ذلك محفّزا له على التوبة و إخـــلاص الدّيـــن لله،إلاّ أنّ هنـــاك من يرى أن الجملـــة ليســـت تعليلا بل هي كـــلام

---

(1)– الحجـــرات : 14.

(2)– ينظـــر غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 95.

(3)–الحجـــرات : 15.

(4)– في قولـــه تعالى: << وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا >> من الآية 14 من سورة الحجرات.

(5)– روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج:26، ص: 93.

ينظر كذلك روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 167.

(6)– الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 18، ص : 333.

(7)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 266.

مستأنف[1] يحمل قاعدة من قواعد السلوك مع الخالق جلّ و علا في كلّ الأحوال.

**الثالث عشر** : قوله تعالى : << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ >> [2] فالآية الكريمة بما حوت توضيح صارخ لحقيقة الإيمان، و أنّه ليس بالتمني و لا بالتحلّي و لكنّه ما وقر في القلب و صدّقه العمل ، و هي تعليل لقوله: << لَمْ تُؤْمِنُوا >> إلى قوله << فِي قُلُوبِكُمْ >> وهو من " جملة ما أمر الرسول صلى الله وسلم بأن يقوله للأعراب، أي : ليس المؤمنون إلا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكيك " [3]

- ولأجل ذلك يمكن أن يكون مضمون الآية " إرشادا للأعراب الذين قالوا آمنا إلى حقيقة الإيمان،فقال إن كنتم تريدون الإيمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، يعني أيقنوا بأن الإيمان إيقان " [4] أي عزم و اعتقاد باطني لا يخالجه الشك ولا يعتريه الريب برغم الواقعات و نزول النوائب، ذلك لأن "الاحتراس المعترض في الآية << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...- ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ...>> ليس مجرد عبارة، إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية، وعلاج لحالة تقوم في النفس حتى بعد إيمانها " [5]. أي أن نفي الإرتياب ليس مطلوبا في المرحلة الأولى-فقط- من مراحل الإعتقاد، إنما هو ضرورة ملحة طوال حياة هذا العبد صاحب الإعتقاد.

كما يحتمل كذلك أن يكون من لوازم قوله تعالى: << وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ...>> تحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد [6] في سبيل الله بالأموال و الأنفس، و لعل ما يعزز ذلك هو جملة المدح << أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ >> [7] و كذا أسلوب القصر في أول الآية << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...>>.

أما بالنسبة للقصر فهو الدافع ... الذي يجعل العباد يتسابقون من أجل الإلتحاق بهذا الركب و الدخول تحت هذه الراية، و الحذر من كل ما من شأنه أن يُخرجهم عن نطاق هذه الدائرة الرّبانية.

---

(1)- ينظر : تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج: 26، ص: 618.

(2)- الحجرات : 15.

(3)-التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 267.

(4)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص: 143.

(5)- في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص: 3350.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 267.

(7)- الحجرات : 15.

و أما بالنسبة للمدح فهو الدافع الفطري و العاطفي الذي يلهب في الصدور شدة الرغبة في الحصول على هذا الشرف الذي لا يعدوه أي تشريف.

و على العموم فالآية كلها بما فيها من " قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله و رسوله إلخ.... تفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفا جامعا مانعا، فمن اتصف بها مؤمن حقا، كما أن من فقد شيئا منها ليس بمؤمن حقا "[1].و لكن لا نقول بكفره، إنما فقط قد يكون من عامة الناس إلا إذا فقد أوصاف المؤمنين الواحدة تلو الأخرى فهذا و أمثاله أمرهم لله.

**الرابع عشر**: قوله تعالى <<وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ>>[2]

من المُسلَّم به عند المسلمين أن من تمام سلامة العقيدة الإسلامية أن يجزم المؤمنون بهذا الأمر، لكن ما هي مناسبة هذا الكلام في معرض الإستفهام الإنكاري على الأعراب بقوله تعالى << قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ >>. [3]

**أولا :** من جهة الوصل و الفصل، فالآية الكريمة ليست استئنافا على رأي بعضهم لأنها " حال من مفعول (تُعَلِّمُونَ) " [4]وهو لفظ الجلالة، إِذْ كيف يمكن أن يخفى عليه سر بواطنكم يا من تزعمون إعلامه بما فيها و الحال أنه يعلم حقيقة ذلك، بل و يعلم كل غائبة في السماوات و الأرض، بل و يعلم كل شيء! ؟

**ثانيا :** من جهة القواعد اللازمة من هذا الخبر، فالآية تتضمن أمرين :

1- تأكيد إحاطة علمه الشامل بما في السماوات و الأرض.

2- " تجهيل [لهؤلاء الأعراب] إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطلع على كل شيء " [5]

أما فاصلة << وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ>> فهي للتقرير و زيادة التأكيد، كما تتضمن -أيضا- مزيدا من التوبيخ و التقريع [6]، لأن الذي يعلم كل شيء يعلم بالضرورة ما دون ذلك، ف " (كل شيء ) أعم مِنْ << مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ>> فإن الله يعلم ... [كلَّ] الموجودات التي هي أعلى من السماوات كالعرش ". [7]

---

(1)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 26 ، ص: 333.

(2)- الحجرات : 16.

(3)- الحجرات : 16.

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 169.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 269.

(6)- ينظر : تفسير أبي السعود: أبو السعود محمد بن محمد العمادي، ج: 26، ص: 124.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 269.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و عليه فقد تكون جملة << وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ >> معطوفة على ما قبلها عطف العام على الخاص، حيث أن العلم بكل شيء يتضمن العلم بغيب السماوات و الأرض، و لعل الغرض من هذا العطف هو – كما بينا سابقا – زيادة التوكيد و المبالغة في تقرير و إثبات صفة العلم المطلق لله تعالى، فضلا عن توبيخ هؤلاء الأعراب.

**الخامس عشر** : قوله تعالى : << يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا >> [1] و هو " استئناف ابتدائي أريد به إبطال ما أظهره بنو أسد للنّبي صلى الله عليه و سلم من مزيتهم إذْ أسلموا من دون إكراه بغزو " [2].

و قد يؤيد هذا الرأي النهي الوارد بعد هذا الكلام، و الذي يقول فيه الله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه و سلم : << قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ >> [3] إذ لا اعتداد بهذا الذي تقولون أنه إسلام، فهو مجرّد استسلام نابع عن شدة الخوف من شرّ الإنهزام أمام قوة هذا المجتمع القوي الصاعد.

و لذلك جاء قوله تعالى : << بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ >> [4] لزيادة التنبيه و الإشارة " إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان " [5]

أما بالنسبة للتساؤل الذي يمكن أن يطرح نفسه : لِمَ نُفي عنهم الإيمان و ظاهر قوله تعالى : << أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ >> يثبت غير ذلك ؟ فذلك ما سنأتي إليه في الفصل الثالث من هذه الدراسة، عند الحديث عن تفنن الأسلوب القرآني في استعمال الألفاظ و العبارات و الأدوات.

و يكفي هنا أن نشير فقط إلى أن قوله تعالى : << أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ...>> هو تعليل لمنّ الله تعالى على هؤلاء الأعراب [6]، أي : أنه إذا كان و لا بد من المن، فإن الله وحده الذي مِنْ حقه أن يمتن عليكم لأنه سهل لكم طريق الهداية، و أوضح لكم السبيل الذي يؤدي للإيمان إن أردتم أن تنقذوا أنفسكم من براثن الجاهلية و الشرك.

و لذلك ذيل قوله تعالى : << بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ >> بقوله : << إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ >> " حيث نفى أولا أن يكون ما يمنون به حقا، ثم أفاد ثانيا أن يكون الفضل فيما

---

(1)- الحجرات : 17.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 269.

(3)- الحجرات : 17.

(4)- الحجرات : 17.

(5)- تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي، ج: 26 ، ص: 148.

(6)- ينظر : البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 26، ص: 118.

ادعوه لهم لو كانوا صادقين بل هو فضل الله " [1]

و على العموم فالغرض الوارد في هذه الآية الكريمة متعدد الجوانب، فمن جهة، هو تقرير لعدم صدقهم في إيمانهم، و من جهة أخرى هو تبيان لأن إسلامهم لم يكن لله، بل كان لغيره، كما أنّ فيه – من جهة ثالثة – زيادة بيان لقبيح فعلهم [2] المتمثل في اللّجوء إلى الرسول صلى الله عليه و سلم و المنّ عليه بالإسلام، و لعدم مقاتلته كما فعل غيرهم من الأعراب.

**السادس عشر** : قوله تعالى << إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ >> [3] فهو – بالإضافة إلى كونه تعالى علاّم الغيوب بصير بكل الأعمال– ،" بيان لكونهم[4] غير صادقين في دعواهم ، يعني أنّه تعالى يعلم كل مستتر في العالم و يبصر كل عمل تعملونه في سرّكم و علانيتكم لا يخفى عليه منه شيء فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم و هو علاّم الغيوب " [5] .

و لعلّ ما يرجح كفة هذا الرأي هو التصريح الوارد في قوله تعالى: << قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ...>> ثم إن من أغراض هذا الخبر المتضمن الإشارة إلى واسع علم اللّه تبارك و تعالى هو أن " يترسخ ذلك في الأذهان، و يستقر في أعمال القلوب و يتمثل دائما في النفوس" [6] لأن العبرة في مضامين القرآن الكريم ليست بربط آياته الكريمة بمناسبات معينة فقط ، و إنّما العبرة بعموم لفظه الشريف و انطباقه على جميع الأحوال و مختلف المناسبات.

أمّا عن تأكيد الخبر ب(إنّ) فربما لأن هؤلاء الأعراب " بحال من ينكر أن الله يعلم الغيب فكذبوا على النبيّ صلى الله عليه و سلم مع علمهم أنه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله " [7].

---

(1)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 270.

(2)– ينظر : التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص: 143

(3)– الحجرات : 18.

(4)– أي الأعراب الذين سبق الحديث عنهم.

(5)– تفسير النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان، 1402 هـ – 1982م، ج: 03، ص: 175.

– ينظر كذلك: فتح البيان في مقاصد القرآن : أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1412هـ – 1992م، ج: 13، ص: 157.

(6)– التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج: 26، ص: 272.

(7)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 271.

و أما فاصلة << وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ >> فهي معطوفة "على جملة << إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ >> عطف الأخص على الأعم ، لأنه لمّا ذكر أنه يعلم الغيب و كان شأن الغائب أن لا يرى عطف عليه علمه بالمبصرات احتراسا من أن يتوهّموا أن الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر و لا يعلم المشاهَدَات " [1] ، و هذا ربما لزيادة التأكيد و المبالغة في تقرير صفة العلم الواسع لله تعالى.

و على العموم فالآية الكريمة و ما تضمنت من إخبار بواسع علم الله " تأكيد يعلل و يؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي و الأوامر و ما بين فيها من الحقائق ، و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين ، فالآية تعلّل بمضمونها جميع ذلك " [2]

أي ما دام الله تبارك و تعالى يعلم كل شيء و يبصر كل خفي فالواجب الحذر من مخالفةِ أوامره، و الإقدامِ على نواهيه، و الإدعاءِ في حضرته بما ليس بحق لأن ذلك لن يغير من الحقيقة الساطعة شيئا .

هذا مجمل ما جاء من كلام حول الأخبار الواردة في السورة الكريمة، و عن دلالتها و ما يلزم من إيرادها ، و ما يستفاد منها من قواعد تربوية و مبادئ عقدية، و نقاط تشريعية في الحياة.

أمعِن النظر فيها جيّدا فلعلك تدرك أنّه ما من خبر إلا و له غرض يقتضيه- إلى جانب ما يقيّده ظاهره – سواء تعلق هذا الغرض بالمدح أو الذّم أو التحذير أو التعليل أو التأكيد أو التبيان أو التقرير، و ما إلى ذلك ، فإن الهدف الأول و الأخير من كلّ هذه الأخبار ، بل ومن كل الأخبار الواردة في القرآن هو تقويم السلوك الإنساني ، و ترشيد العقل البشري، و دعوته إلى التمسك بأسباب السمو و الكمال.

---

(1)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 271.

(2)-الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 18، ص : 335.

# المبحث الثاني

## أبعـــاد الأسلـــوب الإنشائـــي

الإنشاء الطلبي : النداء – النهي – الأمر – الإستفهام.

الإنشاء غير الطلبي : الـــمدح – الـــذم – الرجـــاء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المعلوم – أيضا – في علم المعاني أن الإنشاء لا مجال للحديث فيه عن الصدق أو الكذب، لا من جهة القائل و لا من جهة مطابقة قوله أو عدم مطابقته للواقع.

فالإنشاء إنما يتناول من جانب آخر، جانب التنوع -في أساليبه- ما بين الطلب و غير الطلب [1]، و كذلك من زاوية التعدد الملموس في أغراض كل من هذين النوعين [2].

و على هذا الأساس ارتأينا أن نقوم بتقسيم هذا المبحث إلى مطلبين أساسين هما : الإنشاء الطلبي و الإنشاء غير الطلبي.

و لعل كثرة الشواهد الموجودة في السورة لأغراض الإنشاء غير الطلبي هي ما دفعت بي إلى البدء بتناول هذه الشواهد بالدراسة و التحليل و الكشف عما تضمنت من أبعاد أسلوبية.

---

(1)- ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 236.

(2)- ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 158، 159، 219، 236، 663، 668 و 669.

المطلـــب الأول.

الإنشاء الطلبي هو " ما استدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب " [1]، أي : إرادة وقوع أمر أو فعل أو قول بناءا على هذا الطلب إلاّ أن إرادة وقوع الفعل أو القول هذه قد تكون بالإنتهاء عن هذا الفعل أو القول، ذلك لأن الّذي ينهى غيره عن شرب الخمر مثلا فقد أراد وقوع فعـــل الإنتهاء عن شرب الخمر، كما أن الذي يسأل عن موعد العقد مثلا فهو يريد وقوع فعل أو قول الجواب، و كذلك بالنسبة للذي يأمر بفعل أو بقول فهو أيضا يريد وقوع هذا الفعل أو ذاك الأمر وهكذا، و الذي ينادي غيره لأمر ما، فهو يريد وقوع الإصغاء لقوله.

و لعلّ المتمعن لسورة الحجرات يدرك أنّها تعجّ بالأساليب الطلبية، خاصة منـــها النـــداء و النهي و الأمر و الاستفهام.

و أوّل ما نقترح البدء بتناوله – في هذه الدراسة – من تلك الأساليب : النداء.

أمّا عن سبب اختيارنا لهذا الغرض كبداية لذلك فلاعتباره أول الأساليب الإنشـــائية التـــي افتتحت بها السورة لا غير.

**أولا : <u>النـــــداء</u>:** و النداء هو " طلب الإقبال بالحرف يا و إخوته " [2].

وللنّداء أدوات مختلفة منها ما هو للبعيد، و منها ما هو للقريب، ومنها ما هو للمتوســـط، ومنها ما هو للبعيد و قد يستعمل للقريب، ومنها ما هو للقريب وقد يستعمل للبعيد، وغير ذلك[3].

و حتّى لا تتوغل كثيرا في قضايا لغوية، و متاهات نحوية تنأى بنا –ربّما – عن محتـوى الدراسة الأسلوبية للسورة، فإنّه ليحسن بنا أن نتناول النّماذج الواردة في هذه السّورة من الجانب الأسلوبي لها، و الجانب الفني في استعمال النّداءات.

**الأول :** قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُـولِهِ..." [4]! إنّ أوّل ما يستوقفنا في هذا النداء هو الأداة المستعملة فيه وهي الياء، والمعروف أنّها تستعمل للبعيد[5]، و لكـــن و بما أنه ليـــس هناك ما يبعد عن الله تعالى فهو أقرب لكلّ شيء من نفسه، فما ســـر

---

(1)– المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 236.

(2)– المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 663.

(3)– ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ابن هشام الأنصاري المصري، المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان، ج: 04، ص: 4،5،6 و 7.

(4)– الحجـــرات : 01.

(5)– هذا عند ابن مالك ، ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ابن هشام الأنصاري ، ج:04 ص: 06.

استعمالها في هذا المقام إذن ؟ ولِمَ لَمْ تستعمل (أي) أو الهمزة، وهما الموضوعتان لنداء القريب؟

للإجابة عن ذلك نقول : ربّما استعمال الياء هنا للإشارة إلى أن الذي ينادى إليه هؤلاء المؤمنين هو أمر من الخطورة و الأهمية بمكان، و عليهم أن يجمعوا قلوبهم و عقولهم لتلقيه و العمل به و أن لا يكون منهم سهو أو غفلة خصوصا لو تعلق الأمر بإبداء أحدهم الرأي قبل أن يبثّ الله و رسوله صلى الله عليه و سلّم في الأمر .... ذلك لأنّ الياء كما تستعمل للبعيد فقد تستعمل لمن ينزل منزلته كالغافل و السّاهي. [1]

و ربّما لأجل هذا الغرض افتتحت الآية " بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق، ووصفهم ب" الذين آمنوا " جار مجرى اللّقب لهم مع ما يؤذن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النّهي بالإمتثال [2] لما يؤمرون به ، و اجتناب ما ينهون عنه" [3].

**الثاني:** قوله تعالى : << يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ...>> [4] تكرار للنّداء " استدعاء منهم لتجديد الإستبصار عند كل خطاب وارد و تطرية الإنصات لكل حكم نازل " [5] و كذلك للإشعار " بأنّه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتّى لا ينغمر في الغرض الأوّل " [6]، كما أنّ في إعادة النّداء هنا " نوع تفصيل بعد إجمال، و [فيه] تخصيص بعد تعميم " [7] حيث " كان النداء الأوّل لتقرير جهة القيادة و مصدر التلّقي، و كان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة و توقير " [8]

و على ضوء هذا يمكن القول أن إعادة النداء ثانيا ليس من باب التكرار الذي لا طائل من ورائه – تنزه الله – و لكنه يتضمن فوائد منها : الإشارة إلى الفارق بين مضمون الآيتين، و منها:التنبيه إلى وجوب الانتباه عند كل خطاب .

---

(1)- ينظر : من أسرار التعبير القرآني –دراسة تحليلية لسورة الأحزاب،د/محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، ص: 4.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 215.

(3)- ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج 26 ، ص 168.

(4)- الحجرات : 02.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، ج: 06، ص: 12.

– ينظر كذلك : البحر المحيط أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 105 .

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 219.

(7)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان: النيسابوري، ج : 26، ص : 73.

(8)- في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص : 3340.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا و قد ذكر الرّازي بأن لهذا التكرّر في النداء فوائد جمّة " منها أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قول لقمان لابنه: ( يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ، يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ) لأنّ النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام و يجعل باله منه ، فإعادته تفيد ذلك، و منها لا يتوهّم متوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا ، فإن الجائز أن يقول القائل : يا زيد إفعل كذا و قل كذا يا عمر ، فإذا أعاده مرة أخرى، و قال يا زيد قل كذا، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانيا أيضا. و منها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، و ليس الثاني تأكيدا للأول كما تقول يا زيد لا تنطق و لا تتكلم إلا بالحق فإنه لا يحسن أن يقال يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبَيْن " [1].

و عليه يمكن القول أنه متّى اتحد المطلوبان لم يحسن تكرار نداء المكلّف،و متى اختلف المطلوبان حسن – إن لم نقل وجب – تجديدُ النداء لتجديد الإستبصار.

**الثالث :** و لعل هذا ما نلمس أثره– كذلك – في الآية السادسة [2] حيث تنتقل بنا إلى جوٍّ مغاير تماما و هو جو التعامل مع الفساق و ما يحملون من أخبار، فشتان شتان بين طريقة التعامل مع الله و مع الرسول صلى الله عليه و سلم، و بين كيفية التعامل مع كيد الفساق و مؤامراتهم.

**الرابع :** أما بالنسبة لقوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ...>>[3] فهنا أيضا نلمس أثر التغاير بين المواقف، فإذا كان النّداء الأول يحدد أسلوب التعامل مع الله عز وجل، وكان النداء الثاني يرسم طريق التعامل مع الرسول صلى الله عليه و سلم، و كان النداء الثالث بمثابة المنبه لكيفية التعامل مع هؤلاء الفساق فإن هذا النّداء الرابع فيه تحديد و رسم لمعالم التعامل بين المسلمين فيما بين بعضهم البعض في حضرتهم.

**الخامس:** وأمّا بالنسبة لقوله تعالى: <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ >>[4] فقد " أعيد النداء خامس مرة لاختلاف الغرض ، و الإهتمام به، و ذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عوامل بها فلا يدفعها

---

(1)- التفسير الكبير : ج: 26، ص: 112.

ينظر كذلك فتح البيان في مقاصد القران : أبو الطيب البخاري، ج: 13، ص: 131.

(2)- و هي قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ...>> الآية ..

(3)- الحجرات : 11.

(4)- الحجرات : 12.

فمـــا يزيلها من نفس من عاملـــه بهـــا " [1].

ذلك لأن سوء ظن المؤمن بأخيه و التجسس لكشف مثالبه، و غيبته و تمزيق عرضه،كلّها من الأمور التي يخفى على من عومل بها إدراكها ، فلا يتمكن من الدفاع عـــن نفســـه بإزالـــة آثارها.

و عليه يمكن القول أن هذا النّداء إنّما تكرر لتضمنه طريقة أخرى من طرق التعامل بيـــن المسلمين في غيبتهم.

**الســـادس** : قوله جل من قائل : << يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَـاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...." [2].

الملاحظ على هذا النّداء هو مخالفة المنادَى للمنادَى في الآيات السابقة، و مرد ذلك علـــى ما يبدو أن النداءات السالفة كانت لأهل الإيمان قصد تأديبهم و إرشادهم إلى مكارم الأخلاق، أما هنا فقد استعمل النّداء " بصفة الناس الذي هو اسم الجنس الإنساني ليناســـب بيـــان المطلـــوب، و يؤكد ما نهى عنه سابقا، و ليعمّم الخطاب للنّاس جميعا منعا من السخريّة و اللّمز و غير ذلك، على الإطلاق، فقال( يَا أَيُّهَا النَّاسُ) " [3]. بما تحمله الكلمة من نفي للتفاخر و التفاضل، و أنّـــه إذا كان و لا بدّ منه، فإنّما يكون ذلك بمقدار ما تحمله القلوب من التقوى و التّحلّي بالفضائل.[4]

ذلك لأنّ العلم بواحديّة المصدر كفيل باستئصال جذور النّزعة التفاضلية و أنّه كلمـــا أدرك النّاس أنّهم من طينة واحدة أجزعهم ذلك عن احتقار بعضهم لبعض، و عن اللّمـــز و التّنـــابز و السّخرية من بعضهم .

---

(1)-- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 250.

(2)- الحجرات : 13.

(3)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج: 26، ص: 259..

(4)-- ينظر : التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 258.

**ثـانيـا: النهـي:** و معناه طلب الكف عن فعل أو قول معين، و له في كـلام العـرب أداة واحدة هي (لا) مع المضارع المجزوم[1].

إلا أن النهي قد يستفاد بطريق الإستنباط أو اللزوم مـن بعـض الأسـاليب الخبريـة، أو الإنشائية الأخرى، كالإستفهام و الأمر على سبيل المثال.

فمن أمثلة الخبر قوله تعالى : << وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا >> [2] و قـول الرسـول صلى الله عليه و سلم : "عن عبد الله بن عمر : أنّ رسول الله صلى الله عليه و سلم أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و هو يسير في ركب و هو يحلف بأبيه ، فقال رسول الله عليـه و سلم : " إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ " [3].

و المعنى من : ( حَرَّمَ الرِّبَا) أي : لا تمارسوا الربا ، و من (يَنْـهَاكُمْ) أي : لا تحلفـوا بآبائكم. أما من أمثلة الإستفهام فكقوله تعالى : << أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ >> [4]، أي : لا تنسوا أنفسكم حال أمركم الناس بفعل الخير. و أما من أمثلة الأمر فكقوله تعالى: << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ >> [5] و المعنـى: لا تظنـوا ببعضكم السوء ، أو لا تعملوا بمقتضى ما يجول في خواطركم من ظنون.

و قد وقع إختياري على هذا الغرض كعينة لدراسة الإنشاء الطلبي لكـون أغلـب آيـات السورة الكريمة عبارة عن نواه و تحذيرات حيث قد بلغت النواهي الصريحة [6] فقـط عشـرة مواضع، سيأتي بيانها.

و قد جعلت هذا الغرض هو الثاني من هذا المطلب لا شيء إلا لكونه ثاني غرض مـن أغراض الإنشاء الطلبي التي افتتحت بها الآية الكريمة.

فإليك هذه النماذج من النواهي لنرى جميعا أبعادها الأسلوبية، و هل يمكن أن يكون لـها – بالإضافة إلى ظاهرها – أغراض أخرى ؟ و أسرار خفية ؟..

---

(1)- ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 668 و 669.

(2)- البقرة : 275.

(3)- موطأ الإمام مالك : رواية يحي بن يحي اللّيثي – إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت – لبنان 1404هـ – 1984م، ط: 08، ص : 320.

(4)- البقرة : 44.

(5)- الحجرات : 12.

(6)- لأن من النهي ما يستفاد من بعض الأوامر ، أو من بعض الأساليب الخبرية كما ذكرنا.

**الأول :** قوله تعالى: << لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ...>> [1] و فيه تحذير للمؤمنين من إبداء الرأي قبل النّظر في حكم اللّه و الرّسول صلّى الله عليه و سلّم ، ذلك لأنه –على الأرجح– لم يسبق صدور فعل من أحد إفتياتا على الشّرع " [2] ذلك لأنّه لو كان قد صدر من أحدهم مثل هذا لكانت لهجة الخطاب – ربّما – أعنف و أشدّ.و لعلّ ما يعزّز هذا هو الأمر بالتّقوى – بعد ذلك مباشرة – و التّقوى – كما هو معلوم – هي شدّة المراقبة للّه و الحذر من الوقوع فيما يجلب سخطه.

أمّا عن الغرض من النّهي فهو " الأمر بالإتّباع للرسول صلّى الله عليه و سلّم " [3] و الإقتداء به في كلّ الأحوال، و عدم المبادرة بإبداء الرأي قبل أن يبتّ هو فيه.

كما أنّه" توطئة للنّهي عن رفع الأصوات عند الرسول صلّى الله عليه و سلّم و الجهر له بالقول و ندائه من وراء الحجرات " [4].

فتأمّل كيف أن هذا النّهي تضمن كلّ هذه الأغراض ؛ تحذير، و أمر، و توطئة لجملة من النّواهي تأتي بعد هذا النّهي .

**الثاني :** قوله تعالى: <<.. لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ >> [5] وهو "شروع في النّهي عن التجاوز في كيفية القول عند النّبي عليه السّلام بعد النهي عن التجاوز في نفس القول و الفعل " [6]، أي : أنّ هذه المنهيات هي بمثابة التفصيل بعد الإجمال،حيث شرع في تبيان الطريقة اللاّئقة عند التكلّم مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم، و اختيار الأسلوب الأمثل عند محادثته، واجتناب الغلظة و الفضاضة و الجفاء عند مخاطبته، بخلاف ما تضمن النّهي في الآية الأولى، حيث اكتفى فيه بالحديث عن وخيم و هول التجاوز في القول و الفعل مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم، و مبادرته بذلك قبل أن يأذن هو به.

أمّا قوله تعالى : <<وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ...>> فقد " تحصّل من هذا النّهي الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله صلّى الله عليه و سلّم إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتا عنده" [7]

---

(1)- الحجرات : 01.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 216.

(3) – المرجع نفسه.

(4) – المرجع نفسه.

(5)- الحجرات : 02.

(6)- روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج: 26، ص: 63.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 220.

لأنّ ما فعله بعض الصّحابة رضي الله تعالى عنهم عند نزول هذه الآية الكريمة [1] ليس تشريعا مفروضا على المسلمين العملُ به، و إنّما الّذي يجب العمل به على سبيل الحتم هو ما يلزم من الفهم السّليم المنطقي لمدلول هذا النّهي، بل لمدلول كلّ آيات القرآن الكريم.

**الثالث** : قوله تعالى : << ... لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ...وَ لَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ...وَ لَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...>> [2] و قوله كذلك : << وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا ... >> [3] فكلّها تحذيرات و نواه عن كلّ ما من شأنه أن يحدث تصدّعا في صفّ المؤمنين تقريرا لمعنى الأخوة، و تأكيدا لهذه الأصرة.

فالسّخرية و التنابز و اللّمز كلها ممّا يفقد ثقة المسلمين ببعضهم البعض و يزيد من تنافرهم من بعضهم ، أمّا التجسس فهو الحامل على كيد المسلم لأخيه، و من ثمّ الإيقاع به بعد نهش لحمه و التّشهير بعيوبه، ممّا يحمل الثاني –إن علم بالأمر– على الإنتقام و الرّد على الصّاع بصاعين و هكذا إلى أن تنشب نيران الفتنة بين كلّ مسلم و مسلم فيصير المجتمع الإسلامي مسرحا للصراعات الدّاخلية و مهزلة أمام غيره من المجتمعات و الأمم.

**الرابع** : قوله تعالى : << لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ...>> [4] و هو خطاب موّجه إلى الأعراب الذين جاؤوا إلى الرّسول صلّى الله عليه و سلّم يمنون عليه إسلامهم و عدم مقاتلتهم له، و عليه فالغرض من هذا النّهي هو تخطيء هؤلاء الأعراب من جهتين :

1- أنّ حقيقة النّعمة التي يكون فيها المنّ هي الإيمان، لأنّه مفتاح السّعادتين: الدّنيوية و الأخروية ، أمّا الإسلام–و خاصة منه الّذي جاء به هؤلاء– فإنّما له فوائد آنية متمثلة في حقن الدّماء وجواز المناكح و المواريث و غير ذلك.

2- أنّ الرسول عليه الصّلاة و السّلام ما هو إلاّ مبلغ أمين لا مَنّ لأحد عليه من النّاس، وإن كان و لا بدّ فإنّ المنّ لله تعالى على هؤلاء الأعراب إذ بيّن لهم طريق الإيمان و النّجاة

---

(1)- ذكر كثير من المفسرين منهم سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن، ج:26، ص: 3339، و المراغي في تفسيره ج:26، ص 121–122 ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث أصبح لا يكلّم الرسول صلى الله عليه و سلم إلا كأخي السرار، و ما فعله كذلك ثابت بن قيس بن الشّماس حيث جلس في أهله حزينا ظنا منه أنه من أصحاب النار لأنه كان رفيع الصوت في حضرة الرسول صلى الله عليه و سلم.

(2)- الحجرات : 11.

(3)- الحجرات : 12.

(4)- الحجرات : 17.

و الخلاص الأبدي من نوازع الشّــــر.[1]

هذه هي جملة النّواهي الواردة في سورة الحجرات ، و ما ذكرناه لعلّه يكون بعضا مـــن الأبعاد التي تهدف إليها هذه النّواهي ، و إذا كان الملاحظ على آيات السّورة -عموما - هو كثرة المنهيات، فإنّ مرجع ذلك إلى أنّ" درء المفسدة مقدّم في النّظر العقلي على جلب المصلحة " [2].

و ذلك هو منهج الدّعوة الإسلامية في الإصلاح، حيث كان الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم يفرغ قلوب أتباعه و عقولهم من آثار الجاهلية ثمّ يملأها بأنوار التّنزيل.

**ثالثــــا : الأمـــــر** : و معناه " طلب الفعل على وجه الإستعلاء " [3] و له صيغ منـــها فعـــل الأمر و المضارع المقرون بلام الأمر [4] ، و اسم فعل الأمر، و المصدر النــــائب عـــن فعـــل الأمر، و من أمثلة ذلك -على الترتيب- قوله تعالى : << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْـجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ...>> [5] و قوله : << وَلْيُوفُوا نُذُورَهُـــمْ وَ لْيَطَّوَّفُــوا بِــالْبَيْتِ الْعَتِيقِ>>[6]، و قوله كذلك : <<عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ >> [7] و قولـــه أيضا : << ...وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا >>[8].

إلاّ أنّ الأمر قد يستفاد -أيضا- من بعض الأساليب الأخرى، و الصيّغ المختلفة، كـالخبر - مثلا- في قوله تعالى : << وَ قَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ >> [9]، و قوله :<< كُتِبَ عَلَيْكُـــمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ >> [10] و قوله : << إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَـــاتِ إِلَى أَهْلِهَا >> [11].

ففي الآية الأولى أمر بتوحيد العبادة للّه تعالى، وفي الآية الثانية أمر بالصيّام، و في الثالثة

---

(1)- ينظـــر : الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 18، ص: 334.

(2)- التحريـــر و التنويـــر : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 219

(3)- المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوّال عكاوي، ص: 219.

(4)- ينظر الإتقان في علوم القرآن : جلال الدّين السيوطي، ج: 032، ص: 242.

(5)- الحــــج : 88.

(6)- الحــــج : 29.

(7)- المائـــــدة : 105.

(8)- الإســـراء : 23.

(09)- الآيـــة نفسهـــا.

(10)- البقـــرة : 183.

(11)- النســـاء : 58.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمر بتأدية الأمانة إلى أصحابها، و كلّ هذه الأوامر مستفادة من لوازم الأخبار الواردة في الآيات الكريمة.

هذا و قد وردت جملة من الأوامر في سورة الحجرات، منها ما كان صريح الدّلالة ، و منها ما استفيد معناه من بعض الجمل الخبرية، فمن أمثلة هذا الأخير قوله تعالى: << إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى... >> [1] حيث أنّ في الآية الكريمة حثّا على غضّ الأصوات [2] . و قوله كذلك : << إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... >> [3] حيث أنّ في الآية الكريمة حثّا للمسلمين الّذين دخلوا الإسلام على الإستعداد للجهاد. [4]

أمّا ما ورد في الحجرات من أوامر صريحة الدّلالة فهي الّتي يتمحور حولها الغرض الثّالث من هذا المطلب.

و أمّا عن سبب جعل (الأمر) ثالث أغراض الإنشاء الطلبي ، فلا لشيء إلاّ لكونه وقع في المرتبة الثالثة من تلك الأغراض التي وردت عيّنات لها في مطلع السّورة مدار البحث.

فإلى أيّ حدّ يمكن أن يكون لهذه الأوامر أبعاد و دلالات ؟ و إلى أي مدى يمكن أن يكون لها رابط بما قبلها و بما بعدها ؟، و هل يمكن أن تفهم هذه الأوامر بظاهرها فقط ؟ و إذا كان الأمر كذلك فما القولُ في قوله تعالى : << و اعلموا أنّ فيكم رسول اللّه >> [5]؟هل يعني أنّ الصحابة كانوا يجهلون هذا الأمر ؟، أم أنّ هناك فوائد أخرى لهذا الأمر ؟ و ما عساها تكون تلك الفوائد ؟ ذلك ما نوّد معرفته استقاءً من المفسّرين و العلماء و المجتهدين فإليك هذه النّماذج :

**الأول :** قوله تعالى : << ...وَ اتَّقُوا اللَّهَ... >> [6] فقد أمرهم اللّه تبارك و تعالى بالتّقوى بعد النهي عن التّقديم بين يدي الله و رسوله " ليحملهم على ترك [هذه] التقدمة، فإن المتقي حذر عن كلّ ما فيه تبعة وريب"[7]، و عليه يمكن القول –ربّما– أنّ في هذا الأمر زيادة توكيد للنّهي

(1)– الحجرات : 03.
(2)– تراجع الصفحة : 14 من هذه الدراسة.
(3)– الحجرات : 15.
(4)– تراجع الصفحة: 27 من هذه الدراسة.
(5)– الحجرات : 07.
(6)– الحجرات : 01.
(7)– غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري: ج: 26.، ص: 73.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السّابق لأنّ الحمل على فعـل أو ترك شيء ما، هو التحفيز على ذلك، و التحفيز هو الترغيب، و الترغيب في فعل أو ترك أمر ما هو نوع من التأكيد عليه.

كما أنّ في هذا العطف – أي : عطف الأمر بالتقوى على النّهي عن التقدمة المذكـورة – دلالة على " أنّ ترك إبرام شيء دون إذن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم من تقوى اللّه وحـده، أي: ضدّه ليس من التقوى" [1]، و هو من باب عطف العام على الخاص، لأنّ حقيقـة التقـوى ومن مستلزماتها الامتثال و الإمتناع في آنٍ واحد: الإمتثال للأوامر، و الإمتناع عن النّواهي [2].

**الثـانـي** : قوله تعالى: << ...فَتَبَيَّنُوا.... >>[3] هو – من جانب اللّغة – جواب للشّـرط الوارد في قوله تعالى : << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ...>> [4]و هـو بمثابـة القاعدة التّشريعية للأمة الإسلامية فيما يتعلّق بكيفية استقبال الأخبار و وجوب تفحّصها و النّظر في هويّة النّاقلين لها لتستقيم لها علاقاتها بالأمم و المجتمعات الأخرى، ذلـك لأنّ التبيـن هـو التّثبت و تمييز الغثّ من السّمين، و الحقّ من الباطل، و ذلك باستعمال وسائل تختلف من عصر إلى آخر، و من مجتمع إلى آخر.

ولعلّ هذا ما يدفعنا إلى القول بأن في الآية –كذلك– حثّا علـى تطويـر وسـائل العلـم و الإدراك،ليتسنّى للأمّة المسلمة الوقوف على حقائق الأمور و عدم التّسليم بالإشاعات إلاّ بعـد التّيقن التّام من حقيقة الأمر، أمّا ما يتعلّق بالأشخاص، فلعلّ في الآية الكريمة – أيضا – إرشادا إلى وجوب أن تكون هناك دراسات علمية و أحكام مؤسسة على أدلّة و شواهد دامغـة حتّـى يتسنّى لمؤسسات هذه الدّولة أن تسير السّير الحسن، و تجتنب الزلات و العثرات الّتي قد تـؤدي –عن سوء تقدير– إلى وخيم العواقب، و عظيم النّوائب.

**الثالـث:** قوله تعالى : <<وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ...>> [5] ، فالمراد بهذا الأمر ليس ظاهره لأنّه معلوم مشاهد، و إنّما المراد هو ما يستلزم كونه فيهم[6] من وجوب الإصغاء إليه[7]. وعدم التجرؤ على التقديم بين يدي الله ورسوله[8]. وعلى هذا يُرجح –ربّما– أن يكونّ هذا

---

(1)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 219.
(2)– البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 105
(3)– الحجـرات : 06.
(4)– الآيـة نفسهـا.
(5)– الحجـرات : 07.
(6)– ينظر غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 80.
(7)– ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 234.
(8)– ينظر في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص: 3342.

الأمر تقريرا للنّهي الوارد في الآية الأولى لأنّهم " نزلوا منزلة الجاهلين لمكانه [صلى الله عليه و سلم] لتفريطهم فيما يجب من تعظيم شأنه " [1].

و لذلك نزل الخطاب للمؤمنين << وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ >> " فإنّه فيكم مبين مرشد، و هذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة : هذا الشيخ قاعد. لا يريد بيان قعوده، و إنّما يريد أمرهم بالمراجعة إليه، و ذلك أنّ المراد منه أنّه لا يطيعكم في كثير من الأمر، و ذلك لأنّ الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرّجوع إليه، أمّا إذا كان لا يذكر إلاّ من النقل الصّحيح ، و يقرّره بالدّليل القويّ يراجعه كلّ أحد ، فكذلك ههنا قال : استرشدوه فإنّه يعلم و لا يطيع أحدا فلا يوجد فيه حيف و لا يروّج عليه زيف ...." [2] لأنّه << مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى >> [3].و لعلّه تكملةً لما ذكرنا رأى بعضهم أن الآية فيها " توبيخ لمن يكذب للرّسول عليه الصّلاة و السّلام، و وعيد بالنّصيحة، و لا يصدر ذلك إلاّ ممّن هو شاك في الرّسالة لأنّ الله تعالى لا يترك نبيّه صلّى الله عليه و سلّم يعتمد على خبر الفاسق بل بيّن له ذلك" [4].

و على هذا الأساس فالآية الكريمة وصل لما قبلها، بل و توضيح له [5] إذ فيها بيان شنيع ما فعله بعضهم إذ زيّنوا للرسول صلّى الله عليه و سلّم الإيقاع ببني المصطلق لمجرد خبر لا أساس له من الحقيقة.

إلا أن هناك من ينظر إلى الآية الكريمة على أنّها استئناف قائم بذاته يبين للمؤمنين قاعدة أخرى من قواعد الإيمان، لأن " قوله : و اعلموا أن فيكم رسول الله كلام تام أمرهم بأن يعلموا أن الذي هو بين ظهرانيكم هو رسول الله صلى الله عليه و سلم فلا تخبروه بما لا يصح فإنه رسول الله يطلعه على ذلك " [6] أي : لا يكن منكم جرأة أبدا على إعلامه بأمر كاذب لأنّه رسول يوحى إليه بكل أحوال الغيب و الشهادة على السّواء.

و مهما كانت الآية الكريمة وصلا لما قبلها أو استئنافا لكلام مستقل فإن العبرة بما تحمل في معانيها من وجوب استشعار هذا الأمر الجلل، و هو وجود النبي صلى الله عليه و سلم

---

(1)- روح البيان : البرسوي....، ج: 18، ص: 70 - 71.

(2)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص: 122 - 123

(3)- النجم : 03، 04.

(4)- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 110.

(5)- ينظر : البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 110.

(6)- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 110.

بين المسلمين على مر العصور، فلا ينبغي لهم أن يفعلوا فعلا أو يقولوا قولا إلا بعد الرجوع إلى سنته الشريفة سواء تعلق ذلك بأمر الفاسق و قصة النبإ الكاذب الذي جاء به، أو كان ذلك شاملا لكل أمور الدين و قضايا التشريع.

**الرابع** : قوله تعالى : << ... فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا... >> [1]، و في هذا الأمر قضيتان أساسيتان لا بد من الإشارة إليهما :

1- إن الآية : << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ >> [2] ليست استئنافا بل هي وصلٌ لِمَا قبلها [3] و تكملة له، ذلك لأنه "لما حذر الله المؤمنين من النبإ الصادر من الفاسق، أشار إلى ما يلزم منه استدراكا ... فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم، و آل الأمر إلى إقتتال طائفتين من المؤمنين، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق و أصلحوا بينهما ". [4]

2- إن الأمر في قوله تعالى : << فَأَصْلِحُوا ... >> يتضمن " قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام و التفكك، تحت النزوات و الإندفاعات، تأتي تعقيبا على تبين خبر الفاسق، و عدم العجلة و الإندفاع وراء الحمية و الحماسة، قبل التثبت " [5]

وعلى ضوء هذا يتضح أن قوله تعالى <<...فَأَصْلِحُوا...>> لا بد أن يكون شعارا دينيا يعتمد عليه في كل الأحوال و عند كل طارئة، وليس مجرد جواب للشرط الوارد في الآية التي قبله.

**الخامس** : قوله تعالى : << ...فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي...>> [6] هو أمر من باب الإلزام، "لأن هذا حكم بين الخصمين، و القضاء بالحق واجب، لأنه لحفظ حق المحق، و لأن ترك قتال الباغية يجر إلى استرسالها في البغي و إضاعة حقوق المبغي عليها في الأنفس و الأحوال والأغراض...و لأن ذلك يجرئ غيرها على أن تأتي مثل صنيعها فمقاتلها زجر لغيرها. و هو وجوب كفاية " [7]، فإذا قامت به جماعة من المسلمين، تتوافر فيها شروط معينة، سقط ذلك عن الغير، لأنه- ربما – لو تُرك الأمر لعامّة المسلمين لتسبب ذلك في مزيد اشتعال نار الفتنة.

---

(1)، (2) : الحجرات : 09.

(3)- في قوله تعالى : << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ..... >> من الآية : 06 من الحجرات.

(4)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص: 126.

(5)- في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص: 3343.

(6)- الحجرات : 09.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 141.

أما المقصود بلفظ المقاتلة، فقد يكون ظاهره إذا دعت إليه الضرورة، و قد يكون بطرق ردعية أخرى تحدّد من طرف أهل الحل و العقد.

**السادس** : قوله تعالى : <<...فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ...>> [1] و هو " بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه مع الفئة الباغية إذا ما قبلت الصلح و رجعت إلى حكم الله تعالى" [2]، و هو الإصلاح القائم على أساس العدل بين الطائفتين، و ذلك فيما يتعلق بالمتلفات من الأغراض و الأموال بل حتى الأرواح. لأن مجرد الإكتفاء بتهدئة الرّوع، ووضع الحرب لأوزارها قد يبقي في نفوس المؤمنين بعض الغليل الذي لن يطفئه إلاّ الأخذ بالثأر و الإنتقام.

**السابع** : قوله تعالى : <<... فَأَقْسِطُوا ...>> [3] و في اللّفظة " أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البَين " [4]، حتى لا يكون الأمر بالعدل منحصرا فقط في حال الإصلاح بين المتقاتلين، و عليه، فجملة <<وَأَقْسِطُوا>> معطوفة على جملة : <<فَأَصْلِحُوا>> عطف العام على الخاص [5]، أو بتعبير آخر"عطف المطلق على المقيّد للتأكيد" [6] أي:لتأكيد الإلتزام بالعدل الدائم و في كلّ الأحوال.

**الثامن** : قوله تعالى : <<فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ...>> [7].

إن أول ما يلفت النظر هو اتصال الأمر الأول بالفاء، و ذلك – على رأي البعض – " للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح " [8]،لأن هذه الفاء هي الفصيحة حيث " أنها تفصح عن شرط مقدر، و التقدير : و إذا كان ذلك حاصلا و واقعا فأصلحوا " [9] ، أي : إذا كانت تلك العلاقة موجودة بالفعل و لها أثر ملموس في الواقع، فعليكم بالمسارعة إلى الإصلاح بين المتقاتلين عملا بموجب هذه الرابطة المقدسة.

---

(1)- الحجرات : 09.

(2)- التفسير الوسيط للقرآن : محمد السيد طنطاوي، ج:26، ص: 184.

(3)- الحجرات : 09.

(4)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج:26، ص: 18.

(5)- ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 242.

(6)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج: 18، ص: 319.

(7)- الحجرات : 10.

(8)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 151.

(9)- تفسير القرآن و إعرابه و بيانه : محمد على طه الدرة، ج:26، ص: 599.

أما الأمر الثاني و هو قوله : << وَ اتَّقُوا>> فهو عطف على الأمر الأول كما أنه" تذييل للكلام كأنه قيل هذا الإصلاح من جملة التّقوى فإذا فعلتم التّقوى دخل فيه هذا التواصل" [1] أي : " التآخي" ، لأن المتقي حذر من الوقوع فيما يغضب الله تعالى، و كل مخالفة لما جاء في القرآن الكريم مجلبة لسخط الله، و ممّا جاء في القرآن الكريم و بالتحديد في السّورة مدار البحث قوله جلّ جلاله : << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ >>، و عليه فالأمر بالتقوى يدخل فيه الأمر بالتآخي، و لذلك فعطفُ الأمر بها على الأمر بالإصلاح عطفَ العام على الخاص هُوَ من بابِ التأكيدِ و تقريرِ الأمرِ بهذا الإصلاح، بل بالأخوةِ عمومًا.

**التاسع:** قوله تعالى : <<...اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ...>>[2] أي: كونوا على جانب منه، والمقصود بهذا الأمر ليس ظاهره –على الأرجح– لأن الظّن في حد ذاته ليس بمقدور العبد اجتنابه، إنما الذي بمقدوره أن يفعله هو أن يتجنّب العمل بمقتضى هذا الظن[3]، و أن يبتعد كلّ الإبتعاد عن مجرد التفكير في إيذاء الناس لمجرد خواطر جالت بباله في لحظة من لحظات الفتور.

هذا و يمكن –أيضا– أن يكون الأمر باجتناب الظن ممهّدا للنّهي عن التجسس و محاولة الكشف عن عيوب الناس، لأن هذا الأخير عادة ما يؤدي بدوره إلى اغتياب النّاس و تمزيق أعراضهم مما يؤدي إلى تصدع الصّفّ المؤمن، و تمزيق شمل المسلمين.

ويكفي – دليلاً على ذلك – التمثيلُ الوارد في الآية الكريمة في قوله تعالى : << أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ >> [4] فإذا كانت الغيبة منهيا عنها إلى هذا الحد، فإن الأمر باجتناب طريقها لم يكن أقل اهتماما به منها.

**العاشر :** قوله تعالى : <<...وَاتَّقُوا اللَّهَ ...>> [5] و هو "عطف على جمل الطلب السابقة ابتداء من قوله <<اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ>>، و هذا كالتذييل لها إذ أمر بالتقوى و هو جماع الإجتناب و الإمتثال فمن كان سالما من التلبس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنّبه التلبس بشيء منها في المستقبل، و من كان متلبسا بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها " [6].

---

(1)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 152.
(2)- الحجرات : 12.
(3)- في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص: 3345.
(4)- الحجرات : 12.
(5)- الحجرات : 12.
(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 257.

إن ما يمكن أن يستفاد من هذا الكلام هو عموم الخطاب القرآني إذ يتضمن الأمر الواحد مُخَاطَبِيْنِ مختلفين في الموقف، و ربما أكثر. و عليه يمكن القول أن العمل بالتقوى واجب و ضروري في كل الأحوال، لأنه عصمة و كفارة : عصمة من الوقوع في المزالق، و كفارة للزلات، كما أنه رادع قوي عن الاستمرار في طريق الشر.

**الحادي عشر** : قوله تعالى : <<قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا>>[1] بعد قوله: <<قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا>> و قوله كذلك << قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ >> [2] بعد قوله << يَمُنُّونَ عَلَيْكَ... >>، و في هذين الأمرين رد و تعقيب على مزاعم هؤلاء الأعراب، و هدم [3] لادّعاءاتهم، فلا إيمانٌ خالطت بشاشته شغافَ قلوبهم ليقولوا آمنا، و لاحق لهم في المنّ على رسول الله صلى الله عليه و سلم بهذا الإسلام الذي جاؤوا به.

هذه هي جملة الأوامر الموجودة في السّورة ذكرناها مع الإشارة إلى أغراضها الأسلوبية وأبعادها الموضوعية، و علاقتها بما قبلها أو بما بعدها لغاية الوصول إلى الترغيب في أمر ما، أو الترهيب من آخر، أو لغاية الوصول إلى ما يلزم من العمل بهذا الأمر، كالذي ذكرنا من كلام حول قوله تعالى : << وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ >> [4] و علاقته بجلال قدر الرّسول صلى الله عليه وسلم أو لغاية الوصول إلى بيان ما يجب فعله أو تركه بناء على أمر سابق أو نهي، أو حتى على خبر سبقت الإشارة إليه.

كما رأينا أيضا أن بعض الأوامر تُتناول على أساس أنها تشريع مستقل بذاته بصرف النظر عن علاقته بما قبله أو بما بعده و هكذا.

**رابعا : الإستفهام** و معناه " طلب الفهم و هو بمعنى الإستخبار " [5]

و قد لا يُراد بالإستفهام مقتضى ظاهره من طلب للعلم بالشّيء، فيخرج إلى أغراض أخرى كالنّفي-مثلا- أو التوبيخ و الإستنكار، أو التقرير و الإيجاب، و ما إلى ذلك [6].

---

(1)- الحجرات : 14.

(2)- الحجرات : 17.

(3)- ينظر :الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان: ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان- ص: 157.

(4)- ترجع الصفحة:43 من هذه الدراسة.

(5)- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ج:26، ص: 234.

(6)- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان: ابن قيم الجوزية، ص: 158 و 159.

فمن أمثلة النفي قوله تعالى : << أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ >> [1]

و قوله أيضا : << هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ >> [2].

و من أمثلة التوبيخ قوله تعالى : << أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ >> [3] و قوله : << أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ >> [4] .

و من أمثلة الإيجاب قوله : << أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ >> [5] ، و قوله : << أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ >> [6].

و من أمثلة التقرير قوله تبارك و تعالى : << أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ >>[7] [8].

و إذا كانت هذه هي بعض الأغراض التي ترمي إليها بعض استفهامات القرآن الكريم فهل يمكن أن تنطبق مثل هذه الأغراض على ما في الحجرات من استفهام ؟ أم أن لاستفهامات السورة أغراضا أخرى و أبعادا مختلفة ؟ ذلك ما سنتناوله في هذا الغرض الرابع من هذا المطلب، فإليك هذه النماذج...

**الأول :** قوله تعالى : << أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً >> [9] ليس المقصود بهذا الإستفهام التطلع إلى حقيقة معينة، إنما الغرض منه هو التعليل لكلٍّ من قوله تعالى: << وَ لَا تَجَسَّسُوا >> و قوله << وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ >> ، فهو تعليل "جار في التجسس أيضا كالغيبة، و إنما الفرق أن الغيبة ...إظهار عيب الغير للغير، و التوصل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير، و التجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبع آثاره" [10].

و ذلك – ربما – كأن يقول المسلم لأخيه المسلم ناصحا : لا تضيّع الصلاة، و لا تستهن بالواجبات أ ترضى أن تعود إلى الكفر بعد الإيمان ؟ فليس المقصود بهذا السؤال هو انتظار جواب ما، لأن الجواب لا يحتاج إلى ناقل، و إنما الغرض منه هو التعليل، أي : إن تضييع

---

(1)- يونس : 99.
(2)- الزمر : 09.
(3)- يونس: 68.
(4)- البقرة : 44.
(5)- الزمر : 36.
(6)- الزمر : 37.
(7)- الأنبياء : 62.
(8)- ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان: ابن قيم الجوزية، ص: 36.
(9)- الحجرات : 12.
(10)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج:18، ص: 328 – 329.

الصـــلاة، و الاستهانة بالواجبات الدينيـــة عادة ما يودّي إلى الكفـــر.

و كذلك الأمر بالنسبة لقوله تعالى : << أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأكُلَ...>> فليـــس المقصـــود هو انتظار الجواب، و إنما المقصود هو أنكم بفعلكم هذا كأنما تنهشون لحـــم أخيكـــم أمـــامكم و هو ميت عاجز عن الدفاع عن النفس.

و قد استعملت الهمزة هنا و هي "حرف استفهام توبيخـــي تقريعـــي " [1] لأجل التقريـــر. و " محبة المكروه...و إسناد الفعل إلى (أحدكم) ...فيه إشعار بأنه لا أحد يحب ذلك " [2] لتحقـــق أن كل أحد يقر بأنه لا يحب ذلك، و لذلك أجيب الاستفهام بقـــولـــه: << فَكَرِهْتُمُوهُ >> ". [3].

و مما يعزّز أنّ هذا الإستفهام تقريري هو " أنه لا يقع إلا في كلام هو مسلّم عند كل سامع حقيقة أوإدعاء " [4] لأنه من الأمور المسلّمة أن كل إنسان يكره أكل لحم أخيه حيًا فضلا عـــن أكله ميتا ". [5]

أما عن إيراد الفعل مباشرة بعد همزة الإستفهام بدل إيراد الإسم الذي هو الفـــاعل، ففيـــه فائدة، و هي نفي هذه المحبة من أساسها. [6]

**الثـــانـــي** : قوله تعالى : << ...أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ...>> [7].

الذي لا جدال فيه أن الله غني عن سؤال النّاس و انتظار الجواب منهم لكنّ الذي يحملـــه هذا الاستفهام –على رأي البعض– هو التوبيخ للأعراب حيث قالوا : آمنـــا و لازمـــه دعـــوى الصدق في قولهم و الإصرار على ذلك، و [قد] قيل : لما نزلت الآية السابقة [8] حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم: آمنا، فنزل: << قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ>> الآية " [9] تكذيبا لهم و توبيخا لحالهم، ذلك لأن الله لا يخفى عليه شيء من أحوالهم جميعا، فهو عالم بأنهم لم يؤمنوا

---

(1)– تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج:26، ص: 619.

(2)– غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 91.

(3)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 255.

(4)– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج:26، ص: 158.

(5)– التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج:26، ص: 193.

(6)– ينظر : دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص: 121–122.

(7)– الحجرات : 16.

(8)– أي قوله تعالى: << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا.. >> الآية 15.

(9)– الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج:18، ص: 334.

بعد و هو عالم بكل ما في السماوات و الأرض بل بكل شيء [1].

و عليه نخلص إلى القول، بأن هذا الإستفهام هو مستعمل في التوبيخ و التجهيل و الإنكار [2] على الأعراب ادعاءهم، لأن الله يعلم منهم خلاف ذلك [3] كما أنه تأكيد صارم لعدم بلوغهم درجة الإيمان الصادق. [4]

من خلال هذا العرض الوجيز للإستفهامين الواردين في السورة، و ما قيل فيهما من كلام حول أغراضهما يتبين لنا مدى البعد الأسلوبي للإستفهام في القرآن عموما، و يتجلّى الجانب الفنّي في اختيار الأداة و انسجام الصّياغة مع المعنى المطلوب لخدمة الفكرة المقصودة إن لم نقل الأفكار المقصودة في استعمالٍ واحد و جملةٍ واحدة، و إذا شئت فعليك بإمعان النظر في الإستفهامين الواردين في السورة مرارا، بل في كل استفهامات القرآن.

---

(1)- ينظر : غرائب القران و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 96.

(2)- ينظر : التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج: وهبة الزحيلي، ج:26، ص: 247.

(3)- ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1413 هـ – 1993م، ج: 05، ص: 154

(4)- تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي، ج:26، ص: 147.

## المطلـــب الثانــــي:

الإنشاء غير الطلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوبا، و له صيغ كثيرة، [1] نقتصر فـــي هـــذه الدراسة على ما هو موجود له نموذج في السورة الكريمة، و هي ثلاث صيغ إليك بيانها :

**أولا : المــــدح** : و هو الثناء و ذكر المحاسن، و له في السورة من الشواهد ما يلي :

**الأول** : قوله تعالى : <<...أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ...>> [2] فهي جملة معترضة بين قولـــه تعالى : <<...وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُـمُ الْكُفْـرَ وَ الْفُسُـوقَ وَ الْعِصْيَانَ >>[3] و قوله : << فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَ نِعْمَةً وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ>> [4]، و الغرض مـــن هذه الجملة أمران :( المدح من جهة، و الذم من جهة أخرى ) فأما المدح "فللذين أحبوا الإيمـــان و تزينت به قلوبهم، و كرهوا الكفر و الفسوق و العصيان[ فهؤلاء فقط ] هـــم الراشـــدون، أي المستقيمون على طريق الحق" [5] و أما الذم فسيأتي بيانه عند الحديث عن هذا الغرض.

**الثانـــي** : قوله تعالى : << إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ >> [6] ذلك لأن المحبة دليـــل علـــى الإستحسان، و الإستحسان هو ذاته المدح، فحب الله تعالى لهؤلاء هو تعبير عن ثنائه عز و جل عليهم، كما أن الجملة " تعليل للأمر بالإصلاح العادل، و الإقساط في كل الأحوال " [7] ذلك لأنه لن ينال حبَّ الله و رضاه و ثناءه إلا العاملون بأوامره في كل الأحوال، حيث أن هذه الجملة هي " تعليل يفيد تأكيد ا على تأكيد كأنه قيل : أصلحوا بينهما بالعدل و اعدلوا دائما و فـــي جميـــع الأمور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم" [8].

و أي رضى أكبر من حب الله ؟، و أي استحسان أفضل من استحسان الله ؟ و أي مـــدح أطرى من هذا الثناء ؟.

---

(1)- ينظر المعجم المفصل في علوم البلاغة، د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 236.

(2)- الحجرات : 07.

(3) - الآية نفسها.

(4)- الحجرات : 08.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 237.

(6)- الحجرات : 09.

(7)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج: 26، ص: 597.

(8)- الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي، ج:18، ص: 319.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**الثالث :** قوله تعالى : << أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ >> [1] و فيه قصر إفراد حيث أن المقصود أن هؤلاء هم فقط الصادقون في دعوى الإيمان لا غيرهم" [2] أي : أن المؤمنين الصادقين الذين أقر الله لهم بذلك هم الذين آمنوا بالله ربّا و بمحمد صلى الله عليه و سلم رسولا، ثم لم يخالج إيمانَهم شك و لا ارتياب، و كانوا في كل الأحوال على أهبة الإستعداد للمجاهدة في سبيل الله بالنفس و النفيس، فهؤلاء فقط الذين يستحقون أن يوصفوا بالصدق، و هؤلاء فقط هم الأهل لهذا الثناء العظيم و الإطراء الكبير، و أي ثناء أشرف من ثناء الله ؟.

و كما أن في الجملة تعبيرا صريح الدلالة عن مدح هؤلاء، ففيها – كذلك – ذم خفي سيأتي بيانه عند الحديث عن هذا الغرض.

---

(1)- الحجرات : 15.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص: 268.

**ثـــانيـــا : الـــذم** : وهو الإستقباح وذكر المساوئ، وله في الحجرات -كذلك- من الشواهد ما يلي:

**الأول:** قوله تعالى: <<...أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ>>[1] بعد قوله : << إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ>> [2]، حيث قد " حكم عليهم بعدم العقل لأنهم لم يعقلوا أن هذا النحو من النداء خارج عن قانون الأدب ومنبئ عن عدم الوقار والأناة لا سيما في حق النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن يحتجب عن الناس إلا عند الخلوة أو الإشتغال بمهام أهل البيت"[3].

ولعل في هذا الحكم من معنى الذم ما لا يخفي، بل و أي استهجان أقسى من الحكم بعدم العقل ؟ و أي استنكار و ذم آلم من التشبيه بالذي لا يعقل ؟

**الثانـي :** في قوله تعالى << أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >> [4] حيث سبق و أن ذكرنـا أن في الجملة - علاوة على المدح الصريح - ذمًّا و هجاء : إذ في الجملة " تعريض بالفريق الآخـر حيث ابتعدوا عما يوصلهم إلى الرشد " [5] و هم الذين زينوا للرسول صلى الله عليـه و سـلم الإيقاع ببني المصطلق بناء على خبر كاذب تبين ضدُه بعد ذلك.

و لعله لأجل هذا الغرض -- أي : الذم - جيء بضمير الفصل (هم) لإفادة " القصر، و هو قصر إفراد إشارة إلى أن بينهم فريقا ليسوا براشدين و هم الذين تلبسوا بالفسق حين تلبسهم بـه فإن أقلعوا عنه إلتحقوا بالراشدين" [6]، و هؤلاء المتلبسون بالفسق هم المعنيون بهذا الذم.

**الثالـث :** قوله تعالى : << أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ >> [7] و فيه - بالإضافة إلـى المـدح الصّارخ - هجاءٌ و ذم كذلك، حيث في الجملة تعريض "بأن المذكورين أولا [8] كاذبون و لهذا قال : قل لم تؤمنوا إشارة إلى كذبهم في دعواهم، وَرُبَّ تعريض لا يقاومه التصريح." [9]

---

(1)- الحجـــرات : 04.

(2) - من الآيـــة نفسها.

(3) - غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 77.

(4) - الحجـــرات : 07.

(5)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج: 26، ص: 233.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج، 26، ص: 237.

ينظر كذلك صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، المجلد 03، ص : 234.

(7)- الحجـــرات : 15.

(8)- في قوله تعالى << قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا >> من الآية 14 من سورة الحجرات.

(9)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 96.

ينظر كذلك التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج: 26، ص: 274.

و لذلك فإننا نرجح أن يكون في الآية ذاتها هجاء و ذم، لأن من ينعت بالكذب، أو يشار إلى أن فيه هذا الوصف، فحسبه ذلك ذما، و الأحرى به الإقلاع عنه و اجتناب سبيله.

**الرابع :** قوله تعالى : << بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ >> [1] و " فيه تهجين نسبة الكفر و الفسوق إلى المؤمنين " [2] حيث أن في الجملة تعليلا " للنهي عن هذه الرذائل، و المراد بالإسم : ما سبق ذكره من السخرية و اللمز و التنابز بالألقاب، و المخصوص بالذم محذوف... – أي : بئس الفعل فعلكم أن تذكروا إخوانكم في العقيدة بما يكرهونه و بما يخرجهم عن صفات المؤمنين الصادقين، بعد أن هداهم الله – تعالى– و هداكم للإيمان.

و على هذا فالمراد من الآية نهي المؤمنين أن ينسبوا إخوانهم في الدين إلى الفسوق بعد اتصافهم بالإيمان " [3].

و عليه فالجملة الكريمة " تمام للزجر كأنه تعالى قال : << يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم و لا تلمزوا أنفسكم و لا تنابزوا... >> فإنه إن فعل يفسق بعدما آمن، و المؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق فيكون قوله تعالى : << الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ >> [4]، و يصير التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان، و بئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعدما سميتموهم مؤمنين " [5].

و قريب إلى الرأي قول أحدهم أن " الآية تذييل للمنهيات المتقدمة، و ... تعريض قوي بأن ما نهوا عنه فسوق و ظلم، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة و بين الجمل التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق و ذلك مذموم و معاقب عليه... " [6].

و لعل هذا هو السر في حصر الظلم في هؤلاء إن لم يتوبوا حيث أنه " إذ كان كل من

---

(1)– الحجرات :11.

(2)– التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبةالزحيلي، ج: 26، ص: 247.

(3)– التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 188.

(4)– الأنعام : 82.

(5)– التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص: 133.

(6)– التحرير و التنوير :الطاهر بن عاشور ، ج، 26، ص: 249.

السخرية و اللمز و التنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها و من لم يتب فهو ظالم لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، و ظالم نفسه بأنه رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك فكان ظلمه شديد جدا، فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم كأنه لا ظالم غيرهم لعدم الإعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا " [1]

هذا و قد زاد القصر تأكيدا " توسيط اسم الإشارة لزيادة تمييزهم تفظيعا لحالهم و للتنبيه، بل إنهم استحقوا قصر الظلم عليهم لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة " [2]

و خلاصة هذا القول هو أن مثل هذا الصنيع لا يحتاج في استهجانه إلى التلميح أو التلويح، بل إن مثل هذا يستحق من أدوات الذّم صريحَها، و من أساليب الهجاء أفصحَها، و لعل في استعمال ( بئس ) في هذا المقام جوابا لهذا الإشكال، و شفاء للغليل.

**ثالثا : <u>الرجاء</u> :** " و هو طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع، و الحرف الموضوع له << لعل >> " [3].

إلا أن السؤال الوارد هو هل يمكن أن يحصل رجاء من الله تعالى، و هو القادر على كل شيء ؟! و إذا كان الأمر خلاف ما ذكرنا ، فما عساه يكون المقصود من لفظ (الرجاء) ؟ و كيف يمكن أن يفهم معنى الرجاء في كلام الله ؟

ذلك ما سنحاول الكشف عنه من خلال النموذج الوارد في السورة، و هو : قوله تعالى << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> [4]، و الشاهد هو قوله تعالى : << لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> و لعل معناه هو : أصلحوا بين إخوانكم " راجين أن تُرحموا على تقواكم كما تَرحمون " [5] أي : كما تَرحمون إخوانكم، لأن سعيكم للإصلاح بينهم هو من تقوى الله.

و على هذا يمكن القول أن لفظ الرجاء (لعل) هو لله، أما المعنى فهو عائد على العبد أي أن العبد هو الذي يرجو و ليس يُرجى من الله، ذلك لأن " التّرجي في هذه الآية وأمثالها إنما ...

---

(1)- التحرير و التنوير :الطاهر بن عاشور، ج، 26، ص: 250.

(2)- المرجع نفسه.

(3)- المعجم المفصل في علوم البلاغة : د/ إنعام فوال عكاوي، ص: 236.

(4)- الحجرات : 10.

(5)- روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج: 26، ص: 77.

هو بحسب عقول البشر، لأن الله تعالى منه ترج و رجاء لعباده، تعالى الله عـــن ذلـــك علـــوا كبيرا "[1].

و بالإضافة إلى هذا فإن في عبارة << لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> تعليلا للأمر بـــالتقوى [2]، لأن التقوى عادة ما تكون مفتاح القبول و الغفران و الرّحمات.

و خلاصة القول أن رجاء الرحمة من الله لأجل حصول التقوى، و التقوى تحصل بالأخوة الشرعية، و بالسعي من أجل استمرار هذا المبدإ الإسلامي الثمين.

و عليه يكون المراد من الرجاء هنا هو التّسبب و ليس حقيقته [3]، فتعالى الله عـــن ذلـــك علوا كبيرا.

---

(1)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج: 26، ص: 598.

(2)- ينظر: تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج: 26، ص: 599.

(3)- ينظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص : 42.

# المبحث الثالث

## براعة الإلتفات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من جميل اللطائف الأسلوبية في هذه السورة، تلك الإلتفاتات الملموسة في بعض آياتـــها، فما معنى الإلتفات يا ترى ؟ و هل الإلتفات، أبعاد أسلوبية و جوانب فنية ؟ و إذا كانت كذلـــك، فإلى أي حد يمكن أن نلمس آثار هذا الجمال في الحجرات ؟ ذلك ما سنتطرق إليه من خلال هذا العرض للنماذج الواردة في السورة عن هذا الفن، و قبله يحسن بنا أن نعرج على تعريف بسيط لهذه الظاهرة.

**فالإلتفـات** : " هو نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى "[1]، أي : نقله من الغيبة -مثـلا- إلى الحضور، أو من الحضور إلى الغيبة، ومن الماضي إلى المضارع، أو من المضارع إلـــى الماضي، وكذلك من الإفراد إلى التثنية، أو العكس، و من التثنية إلى الجمع، أو العكس، و مـــن الإفراد إلى الجمع، أو العكس، و غير ذلك. [2]

فمن أمثلة الإلتفات من الغيبة إلى الحضور قوله تعالى : << ... مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ >> [3]،و من أمثلة الإلتفـــات مـــن الحضـــور إلـــى الغيبـــة قولـــه تعـــالى : << ... الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ >>. [4]

و من أمثلة الإلتفاف من الماضي إلى المضارع قوله تعالى : << فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّـــمَاءِ فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ >> [5]، و من المضارع إلى الماضي قولـــه تعالى : << وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا >>. [6]

و من أمثلة الإنتقال من عدد إلى أخر قوله تعالى : << وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيـــهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ >>. [7] [8]

أما عن الحكمة من الإلتفات، فلكل شاهد حكمته الخاصّة به، التي علمنا منها و التـــي لـــم نعلم، إلا أننا سنكتفي بذكر الشواهد الواردة في السورة محور البحث، محاولين الكشف عن أبعاد هذه الإلتفاتات و الحكمة منها.

---

(1)- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص: 98.
(2)- المرجع نفسه.
(3)- الفاتحة : 4 و 5.
(4)- الفاتحة : 07.
(5)- الحج : 31.
(6)- الكهف : 47.
(7)- يونس : 87.
(8)- ينظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص: 98-99-100-101.

**الأول :** قوله تعالى : << وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >> [1]، ففي الآية الكريمة انتقال من الخطاب إلى الغيبة [2] من قوله << ... إِلَيْكُمْ... قُلُوبِكُمْ... إِلَيْكُمْ>> إلى << أُوْلَئِكَ هُمْ >>، و لعل المتمعن في هذا النظم يدرك الحكمة من هذا الإلتفات و هي أن كلّ من اتصف بهذه الصفات فقد استحق أن يُصنف في زمرة العباد الراشدين [3]، و ليس الحكم بالرشاد مقصورا على أشخاص معينين ، بل الحكم في ذلك شامل لكل من توافرت فيهم تلك الشروط و المميزات.

و هذا ما يدفعنا – ربما – إلى الإيقان بأن أسلوب القرآن قد ارتقى إلى حد عزيز المنال، حيث يعبر بالجملة الواحدة عن أمرين اثنين :

1– عن حدث وقع و انتهى و نال حكمه الشرعي.

2– عن تشريع خالد و صالح لكل مناسبة قريبة من ذلك الحدث.

و إذا شئت فتأمل روعة هذا الإنتقال من حالة إلى أخرى دون أن يُخل ذلك بالمعنى و لا بالنظم.

**الثاني :** قوله تعالى << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا >> [4] ففي الآية الكريمة التفات أيضا، لكنه في هذه الحالة انتقال من التثنية (طائفتان) إلى الجمع (اقتتلوا)، و من الجمع (اقتتلوا) إلى التثنية (بينهما)، و هو من أعجب نماذج الإلتفات في السورة.

فأما الإنتقال من التثنية إلى الجمع في قوله تعالى : << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ ... اقْتَتَلُوا... >> " فلأن الطائفتين في معنى القوم أو النّاس " [5]، و عليه فإن جمع الفعل (اقتتلوا) لاعتبار المعنى [6]، و ليس لاعتبار اللّفظ، لأن كلمة (طائفة) مفردة هي اسم جمع، لدلالتها على الجماعة من الناس، كما هو الحال بالنسبة لكلمتي : (قوم) و (شعب)، و غيرهما.

---

(1)– الحجـــرات : 07.

(2)– ينظر تفسير الجلالين : جلال الدين السيوطي، و جلال الدين المحلي، ص: 02، أعني الصفحة الثانية من تفسير سورة الحجـــرات، و ذلك لعدم وجود ترقيم الصفحات..

ينظر كذلك تفسير أبي السعود، ج: 08، ص: 120.

(3)– ينظر: جواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت –لبنان– ج:04، ص:185

(4)– الحجـــرات : 09.

(5)– التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : وهبة الزحيلي، ج: 26، ص: 235.

ينظر كذلك : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري: ج:26، ص: 17.

(6)– روح البيان : إسماعيل حقي البرسوي، ج: 26، ص: 73.

ينظر كذلك : تفسير الجلالين : جلال الدين السيوطي، و جلال الدين المحلي: ص: 02، من تفسير السورة

و أما العودة من الجمع إلى التثنية في قوله تعالى : << اقْتَتَلُوا ..بَيْنَهُمَا >> فقد روعي فيها ظاهر اللفظ، و ليس باطن المعنى [1]، أي : لفظة << طائفتان >> فهي مثنى و لذلك أُكِّد معنى التثنية بما يدل عليه << بَيْنَهُمَا >>.

أما عن الحكمة من هذين الإلتفاتين، فقد قيل " إنهم أولا في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضميرهم [أي : في الفعل << اقتتلوا >>] و في حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثني الضمير " [2] في قوله << بينهما >>، و معنى ذلك أنه " عند الإقتتال تكون الفتنة قائمة، و كل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا، فقال << اقتتلوا >> و عند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة و إلا لم يكن يتحقق الصلح فقال << بينهما >> لكون الطائفتين حينئذ كنفسين ". [3]

و ملخص هذا أنه عند الإقتتال جميع الأفراد يشاركون في عملية الهجوم أو الدفاع، أما عند الإستكانة للسلم فإن كل طائفة تفوّض نائبا ينوب عنها في عملية الصلح.

**الثالث :** قوله تعالى << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ... >> [4] و فيه التفات من الجمع (المؤمنون) إلى التثنية (أخويكم)، و ذلك على رأي من الأهمية بمكان – "مراعاة لكون أن الكلام جار على طائفتين من المؤمنين فجُعلت كل طائفة كالأخ للأخرى ". [5]

أي : جُعلت كل طائفة كالمفرد باعتبار أن الإصلاح يُفوّض له ممثل عن كل طائفة، لذا شبه المُفوّضان بل نزلا منزلة الأخوين.

هذا و قد يكون اللفظ ورد بالتثنية، لكن المراد منه هو الجمع " لأنه عام في كل مسلمين تخاصما أو تقاتلا فصاعدا " [6] لأن أقل عدد يقع فيه الإقتتال أو يُجتهد للإصلاح فيه هو الإثنان، و على اعتبار اللفظ القرآني، فإنّ كل اثنين و اثنين يكوّنان مجتمع الإسلام، و لعل هذا هو المقصود من الإلتفات اعتمادا على هذا الرأي.

---

(1)- ينظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 183.
و كذلك صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، المجلد : 03، ص: 234.

(2)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 150.

(3)- التفسير الكبير : الرازي، ج: 26، ص: 127 128.

(4)- الحجرات : 10.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 245.

(6)- الفريد في إعراب القرآن المجيد: الهمذاني المنتجب حسين بن أبي العز، دار الثقافة، الدوحة، المجلد 4، ص:339-340.
ينظر كذلك الجامع لأحكام القرآن: القرطبي – المجلد 8، ج: 16، ص: 323.

كما يمكن أن يكون المراد من تخصيص الإثنين بالذكر هو " إثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بالطريق الأولوية لتضاعف الفتنة و الفساد فيه " [1] علاوة على أن فيه " رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال و التشاجر " [2] وكذلك " تنبيها للإرشاد،... ذلك لأنه لما قال (وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) كان لظانّ أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الإقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يُؤمر بالإصلاح، و كذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الإقتتال، و أما إذا كان دون الإقتتال كالتشاتم و التسافه فلا يجب الإصلاح فقال : (بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) و إن لم تكن الفتنة عامة و إن لم يكن الأمر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح ". [3]

و على هذا يمكن القول أن في هذا الإلتفات من الفوائد ما يلي :

1- تشبيه الطائفة بالأخ و فيه ما يلي :

- الإشارة إلى العلاقة التي يجب أن تكون بين كل المسلمِينَ، بل بين كل مسلمَينِ.
- الإشارة إلى أن التفويض – عند الإصلاح – لا يكون لكل المسلمين، بل لجماعة فقط، أو ربما لفرد فقط يمثل هذه الطائفة.

2- التنبيه إلى وجوب الإصلاح بين كل مسلمين تخاصما، و ليس ذلك مقتصرا فقط على التخاصم الذي يجري بين الطوائف و الجماعات.

3- التنبيه إلى وجوب الإصلاح بين كل طائفتين متقاتلتين بناء على القياس العقلي على أساس أن الإصلاح بين كل مسلمَينِ واجب.

**الرابـــع :** قوله تعالى : << وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ >> [4] و الشاهد هنا هو الإلتفات من الإفراد (يتب) إلى الجمع (هم الظالمون) " فالإفراد أولا و الجمع ثانيا مراعاة للفظ و مراعاة للمعنى ". [5]

---

(1)- تفسير أبي السعود : ج: 08، ص: 121.
ينظر كذلك الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 18.
(2)- جواهر الحسان في تفسير القرآن : الثعالبي، ج: 04، ص: 188.
ينظر كذلك المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ج:05، ص: 148.
(3)- التفسير الكبير : فخر الدين الرازي، ج: 26، ص: 129.
(4)- الحجـــرات : 11.
(5)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 156.

فأما اللفظ (يتب) فقد روعي ظاهره باعتبار فاعله غير بارز مقدر بالضمير البارز (هو)، و هو للمفرد الغائب.

و أما من جانب المعنى فقد روعي لازم ذلك اللفظ باعتباره نكرة في سياق الشرط، و النكرة في هذا السياق تفيد العموم [1]، لأن (من)، و إن كانت معرفة لأنها اسم موصول، فإنها تبقى مجهولة التعيين، فمن ذا الذي لم يتب ؟ و من يكون ؟ بطبيعة الحال، الجواب عن ذلك مفتوح المجال لأن (مَنْ لَمْ يَتُبْ) و إن كانت للمفرد (لفظا) فهي للجمع (معنى).

و عليه يقع التطابق بين (يتب)المفردة (لفظا)، و (هم الظالمون) المجموعة (لفظا و معنى) لأن الظلم له ممثلون كثيرون في كل العصور و في كل البقاع، و لو قيل : ( و من لم يتب فذلك هو الظالم) لأفاد ذلك أن الظلم مقصور على شخص بعينه، و هذا ما لا يتناسب مع شمول التعبير القرآني لأفاق الأمم و آباد الزمن.

إذن هذه لفتة موجزة عن الإلتفاتات الواردة في الحجرات، و من خلال هذا العرض لما قيل حولها من كلام، و ما أبرز فيها من أحكام يتبين و لو بشكل جزئي مدى براعة القرآن الكريم في الإنتقال من فنّ إلى آخر، و نقل الكلام من حالة إلى أخرى دون أن يكون لذلك تأثير سلبي على نسق النظم الشريف، بل إن ذلك ليزيد المعنى شمولا أكثر و وضوحا أبين، و يفتح آفاقا أخرى للإجتهاد، و يرمز إلى قضايا فقهية و تشريعية لم تكن لتوضح أو يشار إليها بتعبير آخر خلاف هذا التعبير، و لعل ما تقدم من النماذج كفيل بتوضيح هذا، و بالإشارة إلى أهمية الإلتفات في كلام الله على وجه العموم.

---

(1)-- ينظر : بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، المجلد الثاني، الجزء: 04، ص: 02.

هكذا نأتي إلى نهاية الفصل الأول من هذه الدراسة، و الذي دار فيه الحديث عن جانب له أهميته في الدراسات الأسلوبية، وهو جانب المعاني، بما تضمن من الإشارة إلى الأخبار وفوائدها، والإنشاء وأبعاده، والإلتفات وروعة استعماله، وهذه جملة من النتائج التي خرجنا بها:

1- أنه ما من خبر -عموما- إلا و له غرض لازم، سواء تعلق بالمدح و الاستحسان أو بالذم و الاستهجان، سواء كان ذلك للتأكيد و التقرير، أو للبيان و التوضيح، أو للتعليل، أو للتنبيه و التحذير، أو للتحريض، أو للتعريض، أو للترغيب، أو للترهيب، و غير ذلك .. و قد يلزم من الخبر الواحد فائدتان أو أكثر.

2- أنه ما من مرة يتكرر فيها النّداء إلا لفائدة أسلوبية، أو حكمة عملية مردها لاختلاف طبيعة الموضوع الذي استُعمِل النداء من أجله، و أنه ما أوثرت الأداة المستعملة إلا لغاية و هدف منشود.

3- أنه كثيرا ما يخرج النهي عن مقتضى ظاهره إلى غرض أخر كالأمر -مثلا- بفعل ما أو كالتحذير، أو التخطيء، أو التوبيخ و الاستهجان...

4- أن كثيرا من الأوامر أتت لتأكيد ما قبلها، أو للتوطئة لِمَا بعدها مبالغةً في التحفيز.

- و أنه كثيرا ما يخرج الأمر -أيضا- عن مقتضى ظاهره للتنبيه إلى ما يلزم من هذا الأمر.

- و أنه كثيرا ما يكون الغرض من الأمر متعدد الجوانب، كأن يرد جوابا لمناسبة معينة، و يكون في الوقت ذاته تشريعا مستقلا قائما بذاته.

5- أن الاستفهام غالبا ما يخرج عن مقتضى ظاهره ليدل إما على النفي، أو الإثبات، أو التوبيخ، أو التعليل، و غير ذلك.

6- قد يستعمل المدح، و يراد – إلى جانب ذلك- الذم، و العكس أيضا.

7- أن الرجاء – في القرآن الكريم – لا يراد منه حقيقته، لأن الله تنزه أن يكون منه رجاء نحو عبده، و إنما المراد به مجازه، و هو التسبب.

8- ضرورة الإهتمام بالجانبين : اللفظي و المعنوي -معا- عند الدراسة الأسلوبية للنص القرآني، خاصة عند الحديث عن الإلتفات.

# الفصل الثاني

## بين الذكر والحذف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المتأمل في سورة الحجرات يدرك أن فيها من مواطن الذكر و مواطن الحذف الكثير من الشواهد.

و هذا الذي دفع بي إلى تخصيص الفصل الثاني من هذه الدراسة للبحث عن هذه المواضع و دراسة هذه الشواهد و أبعادها.

كما أن استغناء بعض المفسرين عن ذكر هذه الأمور في تفاسيرهم، و اقتصار بعضهم على الإشارة إلى نماذج معينة دون الإسهاب و التعمق في تحليلها هو من أهم الأسباب التي دفعت بي و شجعتني على الوقوف على هذه الشواهد، و السعي من أجل الكشف، و لو عن بعض ما فيها من الفوائد و الأبعاد.

أما عن المعنى الذي نقصده بهذين المصطلحين فليس بحديث، و قد أشير إليه في أغلب المؤلفات القديمة، و على رأسها التفاسير [1]، و كذلك عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه : دلائل الإعجاز، [2] و ابن قيم الجوزية [3]، و غيرهم.

فبالنسبة للذكر فهو أن ترد أدوات أو حروف أو ألفاظ أو عبارات في مواضع معينة يتبادر للذهن الساذج أنها زائدة و بالإمكان الاستغناء عنها.

و بالنسبة للحذف فهو أن تحذف – أيضا – أدوات أو حروف أو ألفاظ أو عبارات في مواضع ما، يتهيأ لصاحب النظرة السطحية أن ذكرها لا يخل بالمعنى.

و على هذا الأساس ارتأينا أن نقسم هذا الفصل إلى مبحثين أساسين :

الأول : فوائد الذكر – و الثاني : بلاغة الحذف.

---

(1)– منها : التفسير المنيرللزحيلي، و البحر المحيط لأبي حيان، و الكشاف للزمخشري، و التفسير الكبير للرازي، و روح البيان للبرسوي، و التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور، و غيرهم، سيأتي ذكرهم عند دراسة الشواهد في متن هذا الفصل.

(2)– في الصفحة 149

(3)– ينظر بدائع الفوائد : المجلد 01، الجزء 01، ص : 190.

# المبحث الأول

## فوائـــد الذكـــر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن قراءة تأملية لآيات السورة تجعلك نقف على ما يقرب من الثلاثين موضعا من مواضع الذكر، و هذا ما دفعني إلى الإهتمام بهذا الجانب من الدراسات الأسلوبية،و أن أخصص له هـذا المبحث من هذا الفصل.

فما الفوائد التي تنطوي تحت ذكـر هذه الألفـاظ ؟ و ما الأبعـاد الفنيـة و الأسلوبيـة و الموضوعية التي يهدف إليها إيراد تلك العبارات ؟

ذلك ما سنحاول الكشف عنه من خلال هذا العرض لأهم الشـواهد الواردة في السـورة الكريم

**الأول** : قوله تعالى : << يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ٱتَّقُـوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ >> (1) و فيه ما يلي :

**ذكـر لفظ الجلالـة الأول** : فالمتأمل للآية الكريمة ربما يتساءل عن السر في ذكر لفـظ الجلالة في قوله << بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ... >> مع أن المقصود هو النهي عن إبرام أمر دون الرجـوع إلى رأي الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

و الجواب عن ذلك هو إرادة التنبيه على أن مراد الله تعالى لا يعـرف و لا يـدرك إلا بوساطة الرسول صلى الله عليه و سلم [2]، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى فقـد أفـاد هـذا الأسلوب " الدلالة على قوة الإختصاص، و لما كان رسول الله صلى الله عليه و سـلم مـن الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك، و في هذا تمهيد و توطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته ". [3]

" لأن من فضّله الله بهذه الأثرة و اختصه هذا الإختصاص كان أدنى ما يجـب لـه مـن التهيب و الإجلال أن يخفض بين يديه الصوت " [4]

**ذكـر لفظ الجلالـة الثاني و الثالث** و تكراره بدل العدول إلـى الضمـير فـي قولـه << وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ... >> و فيه لفتة رائعة، و حكمة بالغة لأن في إظهاره ترويض النفـس و تربيتها على المهابة و الخوف لله تعالى. [5]

---

(1)- الحجـرات : 01.

(2)- ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 216.

(3)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 11.

- ينظر كذلك تفسير النسفي : ج: 03، ص: 165.

(4)- تفسير النسفي : ج: 03، ص: 165.

(5)- ينظر صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، المجلد 03، ص: 232.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**الثانـــي :** قوله تعالى : << يَاأَيُّهَا الَّذِينَءآمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِـــيِّ وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ >> [1]، و فيه ما يلي :

- ذكر عبارة << وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ... >> بعد عبارة << لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُـمْ... >>، فالنظرة الأولية للعبارة توحي بأنها تكرار أو مجرد توكيد الكلام السابق.

لكن النظرة الفاحصة تبين أن هناك فرقا بين الذي يفيده كل من النهيين، ذلك لأن المقصود من قوله تعالى : << وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ >> هو التحذير من " العدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم و أن تتعمدوا فـي مخاطبته القول البين المقرب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظـم، [أما قوله تعالى : << لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ >> فمعناه : ] إذا نطق و نطقتـم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته و أن تغضوا منها بحيث يكون كلامـه عاليا لكلامكم و جهره باهرا لجهركم ". [2]

إذن ففائدة قوله تعالى : << وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ... >> هي " النهي عن الجهر فـي مخاطبته، و إن لم يتضمن رفع أصواتهم على صوته " [3] صلى الله عليه و سلم.

إذن من خلال هذا يتضح الفرق بين النهيين، و يتجلى أن العبارة الثانية لا هي بـالتكرار ، و لا هي توكيدا لمضمون ما جاء في العبارة السابقة.

**الثالـــث :** قوله تعالى: << إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ>>[4] وفيـه ما يلـي :

**ذكـر حـرف (مـن) :** فهل هو حرف زائد ؟ أم أن لذكره فائدة قد تغيب بغيابه ؟

قيل : إن ورود هذا الحرف للدلالة على أن النداء قد نشأ من خلف الحجرات و أن المنادَى كان داخل الحجرات [5]، لأن (من) في حقيقتها لابتداء الغاية، أي : غاية الأمكنة [6] " فإن قيل :

---

(1)- الحجـــرات : 02.

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 12.

(3)- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : أبو يحي زكريا الأنصاري، مكتبة رحاب – الجزائر 1408 هـ – 1988م، ط 2، ص: 528.

(4)- الحجـــرات : 04.

(5)- ينظـر : التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، الزحيلي، ج: 26، ص: 215.
و كذلك : أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 492.

(6)- ينظـر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان، ابن قيم الجوزية، ص: 40.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أفرق بين الكلامين : بين ما تثبت فيه و ما تسقط عنه [قلت] الفرق بينهما أن المنادِي و المنادَى في أحدهما [1] يجوز أن يجمعهما الوراء و في الثاني لا يجوز لأن الوراء تصغير بدخول من مبتدإ الغاية و لا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ و منتهى لفعل واحد، و الذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار و لا دبرها و لكن أي قطر من أقطارها الظاهرة... و الإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها و إنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البر و الخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة ". [2]

و على أساس هذا البيان يتضح أن هذا الحرف ليس زائدا، و إنما كان له دوره في إصابة المعنى المراد، و لولاه لاختل ذلك المعنى، و لأخذ منحى آخر غير الذي أريد.

---

(1)- أي : في الموضع الذي لا تثبت فيه (من).

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 14.

- ينظر كذلك : روح البيان : البرسوي ج : 26، ص: 67.

**ذكـــر لفظـــة (أكثرهـــم)** : مع أن المنتظر من السياق أن يأتي خبر (إن) الذي هو جملـــة (لا يعقلون) بعد اسمها الذي هو الموصول مع صلته (الذين ينادونك)، فما وظيفة تلـــك اللفظـــة يا تـــرى ؟

قيـــل إن في ذكرها احتمال "أنْ يكون فيهم من قُصد إستثناؤه، و يحتمل [كذلك] أن يكـــون المراد النفي العام إذ القلة تقع موقع النفي"[1] "فيكون المعنى كلهم لا يعقلون إذ لو كان لهم عقـــل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب، بل تأدبوا معه بأن يجلسوا على بابه حتى يخرج إليهـــم"[2].

هذان احتمالان واردان حول ذكر لفظة (أكثرهم) إلا أن الأرجح و الأقرب إلـــى الواقـــع -ربما- هو الإحتمال الأول، إذ أنّ " انتفاء العقل عن أكثرهم دليل علـــى أن فيـــهم عقـــلا"[3]، و أن "منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما"[4] ربما يهمه في حياته الخاصة، أو حتى في علاقاته العامة، و أن "منهم من رجع عن تلك الأهواء، و منهم من استمر على تلك العـــادة الرديئة فقال [تعالى] أكثرهم إخراجا لمن ندم منهم عنهم"[5]، أو "أن منهم من لم ينادِ النبي صلـــى الله عليه و سلم مثل ندائهم"[6].

و كل هذه الإحتمالات – و إن اختلفت في بعض تفاصيلها – تُرجِّح كفة الرأي القائل بعدم تورط الجميع في هذا الذي استحقوا من أجله التوبيخ، و عليه فذكر لفظة (أكثرهم) لا تؤخذ على أن المراد منها هو النفي العام، بل أن من ورائها فائدة و معنى إضافيا و هو ذلـــك الإســـتثناء الصريح الذي ينم عن تبرئة البعض مما فعله الأكثرون.

**الرابـــع:** قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[7] وفيه مـــا يلـــي:

---

(1)- تفسير النسفي : ج 03، ص 167.

(2)- روح البيان : البرسوي، ج 26، ص 68.

(3)- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي : ج 08، ص 108.

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي : ج 26، ص 140.

(5)- التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 117.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 225.

ينظر كذلك التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السّيد طنطاوي، ج 26، ص 175.

(7)- الحجـــرات : 05.

**ذكـــر (إليهـــم)** : فالذي يخطر بالبال لأول نظرة إلى الآية الكريمة هو أنها لفظة لا يضر معنى الجملة حذفها، و لا يؤثر على استقامة المعنى زوالها، فما السر في ذكرها إذن ؟ و لِمَ لَمْ تحذف من السياق ؟..

إن تأملا بسيطا للكلمـــة و للسياق يزيل ذاك الغموض، فلو أنه خرج "و لم يكن خروجـــه إليهم و لأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهـــم"[1] و لأجلهم، و ليس لمجرد خروجه صلى الله عليه و سلم من حجرته.

و هذا من تمام الأدب و التوقير لمن هو بهذا المقام، لا بل إن من كمال احترامه صلى الله عليه و سلم هو أن ينتظروا " حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم، [و عليه] فليس [إليهم] زائـــدا بل [هو] قيد لا بد منه"[2].

**الخـــامـــس** : قوله تعالى : << وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >>[3] و فيه أربعة من الشواهد :

**ذكر لفظة الجلالة** : " في صدر جملة الإستدراك دون ضمير المتكلم، لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة و الروعـــة"[4]، فما كان ليوجد هذا الشـــعور -ربمـــا- بقـــدر مـــا وُجِـــد بذكر لفظ الجلالة، و ما كـــانت لتكـــون هنـــاك روعـــة و مهابـــة بمقـــدار وجودهـــا حالـــة ذكـــر اللفـــظ الشريـــف.

**ذكر عبارة "وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ"** : بعد عبارة << حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَـــانَ...>> فالظـــاهر كالعادة هو أن ما تحمله العبارة الثانية من معنـــى مـــا هـــو إلا تكـــرار و توكيـــد لمضمـــون العبارة السابقة، إلا أن الحقيقـــة ربمـــا لا تكـــون كذلـــك البتـــة، ذلـــك لأن معنـــى قولـــه : <<حَبَّـــبَ إِلَيْكُـــمُ الإِيـــمَـــانَ>> أي : " نَوَّرَ بصائركم فحُبب إلى نفوسكم الإيمان [و أمـــا]

---

(1) - الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج 06، ص 15.

(2)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي : ج 26، ص 143.

(3)- الحجـــرات : 07.

(4)- التحريـــر و التنويـــر : الطاهـــر بن عاشـــور، ج 26، ص 237.

(وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) أي : و حسّنه في قلوبكم، حتى أصبح أغلى عندكم من كلّ شيء"[1] فلا " تفارقونه و لا يخرج من قلوبكم، و هذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئا منها إذا حصل عنده و طال لبثه، و الإيمان كل يوم يزداد حُسنا، و لكن من كانت عبادته أكثر و تحمله لمشاق التكليف أتمّ تكون العبادة و التكاليف عنده ألذّ و أكمل، و لهذا قال في الأول (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ) و قال ثانيا (وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) كأنه قرّبه إليهم ثم أقامه في قلوبهم "[2].

هذا و قد يكون المراد من ذكر العبارة الثانية هو الإشارة إلى ما يترتب على ذلك من النّصر في الدنيا و الثواب في الآخرة، و كذلك إلى الدّلالات القائمة عبر مختلف العصور و الأمصار على صحة هذا الدين، و المُثبتة لكماله[3].

و على أية حال فمهما كان الإحتمال الأول أو الإحتمال الثاني هو الجاري، فالأهم هو التأكيد على أن هناك فرقا بين العبارتين، و لا يصح القول بأن الثانية تكرار للأولى بتاتا، كما لا يصح القول بأنها توكيد لها فقط.

**ذكر الفسوق**، و الفسوق هو الكذب، و الكذب هو من جملة المعاصي المذكورة في الآية فَلِمَ يُعطف العصيان على الفسوق إذن ؟ و ما هي اللّفتة الخفية من وراء هذا العطف : عطفِ العامّ على الخاصّ ؟

ربما يكون ذلك إشارة إلى أن هذا الفسوق المفرد بالذكر هو سبب نزول هذه الآية[4] لتبقى قصة النبأ الكاذب عبرة لمن يريد الإتعاظ.

و ربما يكون المراد من لفظ الفسوق هو الذنوب و المعاصي الكبيرة، أما العصيان فالمراد به الذّنوب الصغيرة[5]، و عليه فليس هناك عطف للعام على الخاص، و لا تأكيد الجزء بالكلّ، بل لكل لفظ معناه المستقل عن الآخر.

---

(1)- صفوة التفاسير : الصّابوني، المجلد 03، ص 234.

ينظر كذلك : الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي، ج 18، ص 317.

(2)- التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 124.

(3)- ينظر : النكت و العيون – تفسير الماوردي : أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، مطابع مقهوي، الكويت، 1402هـ – 1982 م، ج : 04، ص 71.

(4)- ذكرنا في التمهيد لهذه الدراسة قصة الوليد بن عقبة و سبب نزول الآية الكريمة.

(5)- ينظر فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : أبو يحي زكريا الأنصاري ، ص 529.

و هناك احتمال آخر، و هو أن يكون المراد بلفظ (الفسوق) هو الكبائر، و المراد بالعصيان جميع المعاصي، و عليه يكون ذكر العصيان بعد ذكر الفسوق إذن تدريجا لكمال النعمة التي تفضل الله بها على عباده المخلصين[1].

و معنى هذا أن الله تعالى قد كره إلى نفوس هؤلاء المؤمنين الكفر الذي هو رأس كل المعاصي، ثم انتزع من قلوبهم حب ارتكاب المعاصي و الكبائر، ثم أراد لهم الإرتقاء و السمو في مدارج أطهر، فبغّض إلى نفوسهم كلّ أنواع الذنوب و المعاصي و الآثام كبيرها و صغيرها، و لعله لأجل ذلك قال بعدها مباشرة : << فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ >>[2].

إلا أنّ العلم بأن هذه الجملة و هذا التعبير جاء في سياق الحديث عن النبأ الذي جاء به ذلك الفاسق، يجعلنا نُرجّح أنّ ذكر العصيان بعد الفسوق هو من باب عطف العام على الخاص، وذلك لعلمنا بأن لفظة العصيان تتضمّن كلّ الذنوب وكل أنواع المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة

أما عن الغاية من هذا العطف، فقد تكون لأجل التأكيد أو لأجل التخصيص، أو لأجلهما معا.

- أما التأكيد فهو مستمد من عطف الكل على الجزء.
- و أما التخصيص فهو مستفاد من مناسبة ورود لفظة الفاسق في هذا المقام، و لعل الهدف من ذلك هو -كما ذكرنا- التنبيه إلى أهمية هذه الحادثة، و التحذير من العمل بمثلها.

**ذكر (هم) بين عنصري الجملة الاسمية** : المبتدأ (أُوْلَئِكَ) و الخبر (الرَّاشِدُونَ) و ذلك من أجل فائدتين اثنتين :

1- لتأكيد نسبة الرشد إلى هؤلاء الناس، من جهة.

2- لغرض عدم إشراك غيرهم في الحصول على هذه الدرجة، و هذا الشرف.

ذلك لأنك لو قلت مثلا : أولئك راشدون أما حظي المعنى بمقدار ما في قوله تعالى : <<أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ>> من تأكيد، و كذلك لجاز أن يكون هناك شريك لهم في هذه الصفة، و لكن التعبير جاء بما يدل على غير ذلك[3].

---

(1)- ينظر : تفسير ابن كثير، ج : 06، ص 375.

(2)- الحجرات : 08.

(3)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص 177 -178.

**السـادس** : قوله تعالى << فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ >>[1] و فيه هذه اللّطيفة:

**ذكر لفظة (ونعمة) بعد (فضلا)** : على الرغم من الإتفاق الظّاهري بين معنى كل من هاتين اللّفظتين إلا أنّ هناك فرقا بينهما لأن في ذكر "فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير و هو مستغن عنه، و النعمة [ذكرت] للإشارة إلى ما يصل إلى العبد و هو محتاج إليه، لأن الفضل في الأصل ينبئ عن الزيادة، و عنده خزائن من الرحمة لا لحاجة إليها، و يرسل منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطة الحاجة بوجه من الوجوه، و النعمة تنبئ عن الرأفة و الرحمة و هو من جانب العبد، و فيه معنى لطيف و هو تأكيد الإعطاء"[2].

و عليه يمكن القول أنّ في ذكر هذا اللّفظ أمرين :

- مراعاة جانب العبد و شدة احتياجه إلى ما هو ضروري لعيشه.
- تأكيد معنى الإعطاء و التفضل الذي يكون من جانب الله تعالى.

**السـابـع** : قوله عز و جل : << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ >>[3].

و فيه من الشواهد ما يلي :

**ذكر عبارة "حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ"** : و فائدتها الإشارة "إلى أن القتال ليس جزاء للباغي كحد الشرب الذي يقام و إن ترك الشرب، بل القتال إلى حد الفيئة، فإن فاءت الباغية حرم قتالهم"[4]، أي إن رجعت عن غيّها و أذعنت لأمر الإصلاح و خضعت لصوت الحق بطل حكم المقاتلة، و هذا بخلاف حكم شرب الخمر مثلا، أو حكم السّرقة، أو حكم الزّنى، و غير ذلك فهو يبقى نافذا، و لو توقف صاحبه عن ممارسة ذلك المنكر.

---

(1)- الحجرات : 08.

(2)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 126.

(3)- الحجرات : 09.

(4)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 128.

**ذكر عبارة "بالعدل"** : و ذلك عند الأمر بالإصلاح الثاني دون الأول، " لأنه مظنة الحيف أو قوعه بعد المقاتلة " [1] أي : لأن هذا الإصلاح الثاني قد يحمل بعض العاملين لأجله على التحامل على فئة دون أخرى، و التعاطف مع واحدة على حساب أخرى، و مرد ذلك هو كون هذا الإصلاح يأتي مباشرة بعد المقاتلة فلعله يذر في بعض النفوس ألما كبيرا و رغبة في الإنتقام تجعلهم يحيفون و ينعطفون عن جادة الصواب في أحكامهم.

و عليه فقد يُستوحى من هذا الرأي أن المقاتلة لم تحدث في الأول، و حينئذ يُحمل قوله تعالى : << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا... >> على أنّه مجاز بذكر ما سيؤول الحال إليه، و يكون التقدير : و إن طائفتان من المؤمنين أرادتا الإقتتال.

و قد لا يكون في العبارة مجاز، بل تُحمل على أنّها تعبير حقيقي، و يكون المراد – حينئذ – من عبارة << بِالْعَدْلِ >> متعلقا بالمراد من الإصلاح في الموضعين، فإذا " كان الإصلاح هناك [2] بإزالة الإقتتال نفسه، و ذلك يكون بالنصيحة أو التهديد و الزجر...، [فإن] الإصلاح ههنا [3] [يكون] بإزالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات و هو حكم ... لئلا يؤدي ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى ".[4]

و ذلك يكون " بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته ". [5]

و مما يمكن استفادته من هذا هو الحث على عدم الإكتفاء بمجرد الفصل بين المتقاتلين[6]، بل لا بد من القيام بعملية عدل شاملة، للفصل التام بين كل متقاتلين.

---

(1)- تفسير أبي السعود ، ج: 08، ص: 120.

ينظر كذلك أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 493

(2)- أي الإصلاح الأول.

(3)- أي الإصلاح الثاني.

(4)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 128 – 129.

(5)- الميزان في تفسير القران : الطباطبائي، ج: 18، ص: 319.

ينظر كذلك الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، ج: 06، ص:18.

(6)- ينظر روح البيان : البرسوي، ج: 26، ص: 75.

و كذلك تفسير أبي السعود : ج:08، ص: 120.

**ذكـــر** << وَ أَقْسِطُوا >> **بعد** << بِالْعَدْلِ >> : مع أن الإقساط – في الظاهر – هو العدل، إذن : فلِمَ جيء بالمفردتين معا و في سياق واحد ؟

من خلال ما قيل من كلام حول فوائد ذكر اللفظة الثانية يمكن القول أنها :

1- إما تأكيد لمعنى الأمر بالقيام بالعدل، و ذلك حتى " يلتزم الذين يقومون بـــالصلح بينهما العدالة التي لا يشوبها أي حيف أو جور على إحدى الطائفتين " [1].

2- أو أن الغرض من ذلك هو التعميم بعد التخصيص، لأن " قوله فأصلحوا بينـــهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر بقوله (وَ أَقْسِطُوا) أي: في كـــل أمر مفض إلى أشرف درجة و أرفع منزلة و هي محبة الله " [2] و لذلك – ربمـــا – علل الأمر بالإقساط بحب الله، قال تعالى : << إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ >>.

و على أية حال فمهما كانت اللفظتان تحملان – في عمومهما – معنى واحدا، فلا بـد أن يكون هناك فرقٌ طفيفٌ بينهما، ذلك أن الأمر بالعدل يعني الأمر بالإنصاف، أمـــا الأمـــر بالإقساط فيعني الأمر بإزالة أسباب الظلم و أشكال الإعتداء أساسا [3].

**الثامـــن** : قوله تعالى : << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُـــمْ وَ اتَّقُـــوا اللَّهَ لَعَلَّكُـــمْ تُرْحَمُونَ >> [4] و الشاهد في هذه الآية هو :

**ذكـــر** << وَ اتَّقُوا اللَّهَ >> عند تخاصم رجلين [5]، و عدم ذكر ذلك عند الأمر بـــالإصلاح بين الطائفتين، مع أن الموقف الأول هو الأكثر هولا و المفسدة فيه أكبر.

لعل من جميل ما قيل في ذلك هو " أنه في حالة تخاصم الرجلين يُخشـــى اتســـاع الخصومـــة [و لذلك أمر الله عز و جل بالتقوى و الحذر الشديدين] و أما في حال تخاصم الطائفتين فإن أثر

---

(1)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 184.

(2)- التفسير الكبير : الـــرازي، ج 26، ص 129.

(3)- ينظر تفسير النسفي : ج:03، ص: 169.

(4)- الحجـــرات : 10.

(5)- على أساس أن المقصود بـ (أخويكم) هو (رجلان منكم) كما ذكر أبو السعود في تفسيره، ص: 121، و الثعالبي في : جواهر الحسان في تفسير القرآن، ص: 188، و الرازي في : التفسير الكبير، ص: 129.

الفتنة أو المفسدة عام شامل الكل"[1]، ولذلك استُغني عن الأمر بالتقوى واكتُفي بالأمر بالإصلاح.

و بالإضافة إلى هذا يمكن القول كذلك أن في الأمر بالتقوى هنا الإشارة " إلى ما يصونهم عن التشاجر، لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الإشتغال بغيره " [2] أي : أن الإلتزام بشعار التقوى في كل الأحوال يحفظ المؤمنين من الزيغ و الضلال و الإعتداء و التخاصم، و كأن الأمر بالتقوى – من خلال هذا الرأي – هو حكم مستقل غير مرتبط بمناسبة معينة، و إنما الغاية منه هي سد باب خطير من أبواب الشر و الفتنة.

أما الأمر بالتقوى – من خلال الرأي السابق – فكأنه إيصاد لباب تزداد به الفتنة، و تتمزق به الصفوف.

**التاسع** : قوله تعالى : << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ >>[3].

و في هذه الآية الكريمة من الشواهد ما يلي :

**ذكر (النساء) بعد (القوم)** : " مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام، كما يشمل لفظ "المؤمنين" المؤمنات في اصطلاح القرآن بقرينة مقام التشريع فإن أصله التساوي في الأحكام إلا ما اقتضى الدليل تخصيص أحد الصنفين به دفعا لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال إذ كان الإستسخار متأصلا في النساء، فلأجل دفع التوهم الناشئ عن هذين السَّبَبَيْن على نحو ما تقدم في قوله في آية القصاص << وَ الْأُنْثَى بِالْأُنْثَى >>[4] " [5].

---

(1)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي: ج : 26، ص: 239.

(2)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 130.

(3)- الحجرات : 11.

(4)- البقرة : 178.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص : 247.

ينظر كذلك التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 251.

و من دلائل شمول كلمة (قوم) للنساء أيضا ما ورد في القرآن الكريم في كثير من المواضع التي ذكر فيها إرسال الرسل لأقوامهم كأقوام عاد و ثمود و نوح عليه السلام[1]، قال تعالى : << كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ >>[2]، و ليس التكذيب قصرا على الرجال دون النساء، فقد ذكر في القرآن الكريم أن أول المكذبين بدعوة نوح و لوط عليهما السلام هما امرأتاهما، قال تعالى << ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَ امْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا >>[3].

كما أن النجاة التي كتبت لقوم نوح عليه السلام بعد الطوفان، أو لقوم موسى عليه السلام من بطش فرعون لم تكن حكرا للرجال فقط دون النساء.

و على ضوء هذا يمكن القول أن في ذكر (النساء) بعد (القوم) عطفا للخاص على العام، و ذلك للإشارة إلى أن انتشار هذه الظاهرة في أوساط النساء أكثر منها في أوساط الرجال " لأن السخرية منهن أكثر "[4].

إلا أن هناك من يرى أن لفظة (قوم) لا تشمل النساء، و إنما مختصة بالرجال فقط،[5] و عليه فلا يصح القول بعطف الخاص على العام، و إنما الذي يُرجّح هو أن إفراد النساء بالذكر للتأكيد على نهيهن عن السخرية[6] فقط، أما شمول لفظة (قوم) " للفريقين في مثل قوم عاد و قوم فرعون فإما للتغليب أو لأنهن توابع "[7] للرجال على أساس أن القوامة بيد الرجل، و عليه سُمّي الرجال – وحدهم – بالقوم لقيامهم على شؤون النساء، و من هذا ما ذكره زهير...

---

(1) – ينظر : تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26، ص: 603.

(2) – الشعراء : 105.

(3) – التحريم : 10.

(4) – الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، المجلد 8 ، ج 16، ص 325 – 326.

و كذلك ينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن : البخاري ، ج 13 ، ص 145.

(5) – ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 152.

(6) – ينظر تفسير أبي السعود : ج : 08، ص 121.

(7) – تفسير أبي السعود : ج : 08، ص 121.

وَ مَـا أَدْرِي وَ سَـوْفَ إِخَـالُ أَدْرِي *** أَقَـوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَـاءُ[1].

و قال الله تعالى : << ... يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ... >>[2].

و على أية حال، فمهما كانت لفظة (قوم) للرجال فقط، أو تشمل-إلى جانبهم-النساء، فإنّ في تخصيص النساء بالذكر في هذه الآية الكريمة فائدة، و هي التنبيه إلى شمول هذا الحكم التشريعي لكل من الرجال و النساء على السواء، مهما كانت في النظم الشريف إشارة موحية بتفشي السخرية عند النساء أكثر من الرجال.

**ذكر (اللمز) بعد (السخرية)** : مع أن السخرية تشمل النهي عن اللمز، فاللمز هو الطعن باللسان و الإشارة بالعين و نحو ذلك، أما السخرية فهي شاملة لكل الأفعال و الأقوال التي تستعمل للإستهزاء و الإستصغار من شأن الغير.

و عليه، فذكر اللمز إذن هو من قبيل عطف الخاص على العام، و ذلك لجعل هذا الخاص كأنه جنس آخر من المنهيات، و ذلك للمبالغة في النهي و التحذير[3] من جميع أشكال السخرية.

غير أن غياب تفسير كلمة (السخرية) عند من يرى بهذا الوجه، و ورود ذلك عند آخرين يرجح كفة أن يكون النهي عن السخرية ثم اللمز ليس من باب عطف الخاص على العام، و إنما من باب عطف العام على الخاص[4].

و بيان ذلك : " أن السخرية [هي] احتقار الشخص مطلقا، على وجه مضحك بحضرته، و اللمز [هو] التنبيه على معايبه، سواء أكان على شيء مضحك أم غيره، و سواء أكان بحضرته أم لا، و على هذا يكون اللمز أعم من السخرية[5]" و يكون عطفه عليها إذن لإفادة الشمول و لإرادة التأكيد.

---

(1)- أشعار الشعراء الستة الجاهليين : يوسف بن سليمان بن عيسى، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401هـ - 1981م، ط : 02، ج 01، ص 330.

(2)- النحل : 59.

(3)- ينظر روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 81.

(4)- ينظر التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 253.

(5)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 253.

**ذكـر الضمير (هـم) بين عنصري الجملة الاسميـة** : (أُوْلَئِـكَ) و (الظَّالِمُـونَ)، و فيـه فوائد مثل رأينا في قوله تعالى : << أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ>>[1] [2] على اختـلاف فـي الموقفين، و من تلك الفوائد التي :

1- نسبة الظلم إلى من لم يتب عن تلك المساوئ، و هي السخرية و اللمز و التنابز.

2- التأكيد على شدة اتصافهم بهذه الصفة (الظلـم).

3- عدم مشاركة غيرهم لهم فيها، و كأنه لا ظالم في الوجود غيرهم.

و كل هذه المعاني أفادها ضمير الفصل (هـم)[3].

**العـاشـر** : قوله تعالى :<< يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتًـا فَكَرِهْتُمُـوهُ وَ اتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَـوَّابٌ رَّحِيـمٌ>>[4].

و قـد تضمنـت هذه الآية الكريمة من نماذج الذكـر ما يلـي :

**إعادة ذكر النداء للمؤمنين** : و ذلك للمرة الخامسة لأجل اختلاف الغرض، وللإهتمـام بمضمونه " لأن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السّـيئة الخفيـة التـي لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من عامله بها"[5] كسـيئ الظنـون، و التجسس على مثالب الغير، و الخوض في تمزيق أعراض الناس ... و هذا بخلاف المنـهيات السابقة فهي من نوع المعاملات الدنيئة المشاهدة و المسموعة كالسخرية و اللمز و التنابز ...

**ذكـر عبارة "بعضكـم بعضـا "** : في جملة << وَ لَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا >> " فلو قال قائلٌ : هَذَا المعنى [6] كان حاصلا بقوله تعالى : لا تغتابوا مع الإقتصار عليه نقول لا، و ذلك

---

(1)- الحجـرات : 07.

(2)- تراجـع الصفحـة 74 من هذه الدراسـة.

(3)- ينظـر دلائـل الإعجـاز : عبد القاهر الجرجاني، ص 177 – 178.

(4)- الحجـرات : 12.

(5)- التحريـر و التنويـر : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 250.

(6)- أي : معنـى النهـي عن الغيبـة.

لأن الممنوع اغتياب المؤمن فقال (بَعْضُكُمْ بَعْضًا) و أما الكافر فيعلن و يذكر بما فيه، و كيف لا و الفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة"[1]، ففي الحديث الذي رواه ابن أبي الدنيا و ابن عدي و الطبراني و الخطيب عن معاوية بن حيدة يقول الرّسول صلى الله عليه و سلم : " أُذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ يَحْذَرُهُ النَّاسُ "[2] أي:ليجتنبوا مكائده و شره.

**إعادة ذكر لفظ الجلالة** : في قوله : << وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ >> لِمَا في ذلك من الإشعار بالإجلال و المهابة و الخشية[3]، خصوصا في مثل هذا السياق الذي يتضمن النهي عن الغيبة و هي من الكبائر التي لا يباشرها إلا من غابت عن ذهنه و قلبه تلك المشاعر، أما من استدام على تذكرها و استشعارها فإنك تجده أكثر اتقاء و أشد حذرا من الوقوع في مثل تلك المآثم.

**الحادي عشر** : قوله تعالى : << يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَ أُنثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ >>[4]، و فيه ما يلي :

**ذكر الفاعل** : في قوله "خلقناكم" و "جعلناكم"، و ذلك " للإشارة إلى عدم جواز الإفتخار، لأن ذلك ليس لسعيكم و لا قدرة لكم على شيء من ذلك، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه؟ "[5]، أي:إنّ العلم بأن خالقكم،بل و خالق الكل هو واحدٌ،كفيلٌ باستئصال ما في قلوبكم من كبر، و استعلاء على بعضكم، ذلك لأن الخالق الذي أبدع في تصويركم و تفضيل بعضكم على بعض في الخلق، و الذي جعل منكم الفقير و الغني و الوسيم و الذميم و القويّ و الضّعيف قادر على أن يغير الأحوال و يقلب الموازين متى شاء و دون أي قيد.

و لعل هذا هو السر، أو على الأقل وجه من أوجه الحكمة في ذكر الفاعل في هذا المقام.

---

(1)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 134.

(2)- كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما إشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس : العجلوني الجراحي إسماعيل بن محمد، مؤسسة الرسالة – بيروت شارع سوريا لبنان 1405هـ-1985م ط4، ج 1 ، ص 114.

(3)- ينظر صفوة التفاسير : الصابوني، المجلد 03، ص 232.

(4)- الحجرات : 13.

(5)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 138.

**ذكر عبارة (من ذكر و أنثى)** : و ذلك -ربما- لاحتمال أن يكون المراد : أنّنا خلقناكم أيها الناس من آدم و حواء فيكون ذلك دليلا على أنه لا تفاخر لبعضكم على بعض لكون الجميع من رجل واحد و امرأة واحدة، كما يحتمل أن يكون المراد من ذلك هو أننا خلقنا كل واحد منكم -وقت هذا النداء- من أب و أم [1].

و على الوجهين فلا مجال للمفاخرة و لا داعي للإستعلاء و التكبر فالجميع مخلوقون من ماء مهين، و الكل قد خرج إلى الحياة من مخرج الخبث مرتين.

**الثاني عشر** : قوله تعالى : << قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ >>[2] و قد حوت الآية الكريمة من الشواهد ما يلي :

**ذكر تاء التأنيث في الفعل "قالت"** : مع العلم أنهم جماعة الرجال، و مما قيل أنّ في ذكر هذه التاء فائدتين :

1- مراعاة معنى الجماعة : " فإذا أردت ذلك المعنى أثبت التاء "[3]، أي أن التاء قد تذكر في الجمع " لشيوع اعتبار التأنيث في الجموع "[4]، كقولنا – مثلا- : قالت المعتزلة، أو أجمعت الخوارج على كذا، و غير ذلك.

2- الإشارة إلى قلة العقل : أي " الإشارة إلى قلة عقولهم على عكس ما روعي في قوله تعالى <<وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ>>[5] "[6] حيث لُمْنَ امرأة العزيز في مراودتها فتاها "[7] في بيت زوجها، و أيّ زوج ؟ فهو العزيز، عزيز مصر. و إقدام المرأة على مثل هذا الفعل يدل -بحق- على قلة الإحتشام و الحياء، و لوم النساء لها يدل -بحق- على كمال العقل، و لذلك -ربما- حُذفت التاء من قوله تعالى : <<وَقَالَ نِسْوَةٌ>>، و ذُكرت في قوله <<قَالَتِ الأَعْرَابُ>>.

---

(1)- ينظر غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 93.

(2)- الحجرات : 14.

(3)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : المجلد 1، الجزء 1، ص 125.

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 167.

(5)- يوسف : 30.

(6)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 167.

(7)- روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 92.

**ذكر عبارة (وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)** : بعد قوله <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا>> فالظاهر يُبدِي شيئا من الإشكال، خاصة عند العوام، عن موقع العبارة الثانية من الأولى، لأن الإيمان و الإسلام شيء واحد.

إلا أن الحقيقية خلاف ذلك فهناك لفتة لطيفة من وراء ذكر هذه العبارة أي : الثانية و هي الإشارة إلى الفرق الجليّ بين الإيمان الذي هو من عمل القلب، و الإسلام الذي قد يكون من عمل اللّسان فقط[1].

و الذي جئتم به أيها الأعراب هو "إسلام" إن لم نقل : استسلام لتأمين النفوس و الولدان و النّساء، أمّا الإيمان فلما تبلغوا مرتبته، لأن حقيقَتَهُ و نوره لم يخالج بعدُ شغافَ قلوبكم، و لذلك قال تعالى <<وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ>>.

**ذكر عبارة " وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ "** : بعد قوله <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا>>، أهو تكرار للمعنى الحاصل في العبارة الأولى ؟ أم أنه توكيد له ؟ أم ماذا ؟

قيل : إن فائدة قوله تعالى <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا>> هي " تكذيب دعواهم، و قوله <<وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ>> توقيت لِمَا أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم و لكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير قولوا"[2].

كما يحتمل أن يكون المراد من قوله <<وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ>> التنبيه إلى أن هناك فرقا بين ما جاء به هؤلاء الأعراب و هو الإسلام، و بين ما إدّعوه و هو الإيمان، و ذلك " أنهم قالوا : آمنا و قيل لهم (لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) قالوا إذا أسلمنا فقد آمنا، قيل لا فإن الإيمان من عمل القلب لا غير و الإسلام قد يكون عمل اللسان، و إذا كان ذلك عمل القلب و لم يدخل في قلوبكم الإيمان لم تؤمنوا"[3].

**الثالث عشر** : قوله تعالى <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا

---

(1)- ينظر التفسير الكبير : الرازي ، ج 26، ص 142.

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج 06 ص 22.

ينظر كذلك تفسير النسفي : ج 03، ص 174.

و كذلك تفسير أبي السعود : ج 08، ص 123.

(3)- التفسير الكبير : الرازي ، ج 26، ص 142.

وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ>>[1]، و فيه ما يلي :

**ذكر عبارة (لَمْ يَرْتَابُوا)** : بعد قوله <<آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ>> مع أن الإيمان قد وقع و لو كان هناك ريب ما كان ليكون هناك إيمان أصلا، إذن فما فائدة العبارة ؟

قيل أنه " لما كان الإيقان و زوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيها على مكانه"[2] "وعلى مزيته، و إشعار بأنهم مستقرون على ذلك في الأزمنة المتطاولة غضا جديدا "[3].

إذن من خلال هذا يمكن القول أن لذكر العبارة فائدتين أساسيتين :

1- الإشارة إلى أن مرتبة اليقين التام درجة قد لا يبلغها العوام من الناس باعتبارها كمال الإيمان.

2- الإشعار بوجوب استقرار الإيمان في القلوب جديدا قويا على مرّ العصور و اختلاف الظروف.

**ذكر ضمير الفصل (هم)** بين عنصري الجملة الإسمية (أُوْلَئِكَ) و (الصَّادِقُونَ)، و ذلك لفائدتين جوهريتين :

1- التأكيد على اتّصافهم بالصدق و إثبات ذلك لهم.

2- عدم اشتراك غيرهم معهم في هذه الصّفة، و لعل هذا ما أفاده ضمير الفصل (هم)[4] و قد أفاد هذا أسلوب القصر في استعمال (إنما)، و ضمير الفصل (هم).

**الرابع عشر** : قوله تعالى <<قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ>>[5] و فيه ما يلي :

**ذكر (قل) في صدر الآية الكريمة** : مع أن المأمورَ بالقول، و المعنيَّ بالمقول قد سبق تناولهما في قوله تعالى : <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا ..... قُولُوا أَسْلَمْنَا ...>> فما فائدة الأمر هما إذن ؟

---

(1)- الحجرات : 15.

(2)- تفسير النسفي : ج 03، ص 174.

(3)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 96.

(4)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 177 – 178.

(5)- الحجرات : 16.

ربما يكون المقصود من تكرار الفعل هنا للدلالة "على أن المقول لهم هذا هم الأعـــراب الذين أمر[1] أن يقول لهم "لم تُؤمِنُوا" إلى آخره، فأعيد[2] لما طال الفصل بين القولين بـالجمل المتتابعة فهذا متصل بقوله <وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ> اتصال البيان بالمبين، و لذلـك لم تعطف جملة الإستفهام"[3].

و التقدير -ربما- هو : إن الإيمان لم يدخل بعد إلى قلوبكم أيها الأعراب، فهل ستعلمون الله بحقيقة الأمر، و هو علاّم الغيوب ؟...

**ذكـر الباء في "بدينكـم"** : مع أن التّعليم يُعدّى بدون حرف، نقـول : علّمنـي الأدب، أو علمه الكتابة، فَلِمَ عُدّيَ بالخافض هنا ؟ أم أن سر ذلك يرجع إلى المعنى الذي يفيـده الفعـل ذاتـه ؟ فما المقصود منه إذن ؟

قيل أن فائدة هذا الحرف "لِتأكيد لصوق الفعل بمفعوله كقولـه تعـالى : <وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ>[4] [5] أي : أن المسح فقط للرأس يعني للشعر، و كذلك بالنسبة للآية، فـالمقصود أن التعليم أو الإعلام الذي قصدوه و أرادوه هو لهذا الدّين الذي جاؤوا به أي الإسلام الذي منّوا به على الرسول صلى الله عليه و سلم.

و عليه يكون المقصود من هذا التعليم، هو " الإعلام و الإخبار أي : أتخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه بقولكم آمنا "[6].

و لعل هذا ما يعزّز وجهة نظر أن استعمال صيغة التفعيل هنا للمبالغة في التشنيع، ذلـك لأن التعليم هنا بمعنى الإعلام.

**ذكر لفظ الجلالة ثلاث مرات** : دون العدول إلى الضمير، لِمَا لهذا الإسم من وقـع فـي النفوس رهيب، و تأثير على الوجدان ما بعده تأثير[7].

---

(1)- أي الرسول صلى الله عليه و سلـم.

(2)- أي الأمر بالقول.

(3)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص 268.

(4)- المائـــدة : 06.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص 268.

(6)- روح البيان : البرسوي: ج : 26، ص 96.

(7)- ينظـــر صفوة التفاسير : الصابوني، المجلد : 03، ص 232.

**ذكر (ما) الموصولة ثانية** : مع ما تفيده من معنى التوغل في الإبهام، و ذلك للمبالغة في تأكيد إحاطة علمه الشامل بكل ما يجول و يصول في السماوات سماء سماء، أو في الأرض جزءا جزءا، و شبرا شبرا[1].

**ذكر عبارة " وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "** : بعد قوله <<وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ>> " لأن "كلّ شيء" أعم من "ما في السماوات و ما في الأرض" فإن الله يعلم صفاته و يعلم الموجودات التي هي من السماوات كالعرش"[2] و غير ذلك كثير مما أستأثر الله به في علم الغيب.

**الخامس عشر** : قوله تعالى : <<يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ>>[3] و فيه من الفوائد ما يلي :

**ذكر المضاف إليه (كم) في "إِسْلَامَكُمْ"** : و فائدته الإشارة إلى أن هذا الإسلام الذي جاء به هؤلاء الأعراب غير معتد به، و أنه شيء يليق بأمثالهم، ففي التعبير ازدراء بإسلامهم، و لذلك لما أُريد التنبيه إلى أن المراد بالإيمانِ الإيمانُ المعتد به لم تَرِدِ اللّفظة مضافة، بل وردت مطلقة للإشارة إلى أن هذا هو الإيمان المعهود الذي يجب أن يكون عليه المكلّف[4].

**ذكر عبارة "أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ"** بعد قوله <<قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا>>[5] فظاهر النص يُبدي تناقضا بين المعنيين، و لكن هل يمكن أن يكون هناك تناقض في كلام الله ؟ و إذا كانت الحقيقة خلاف ذلك فإلى أي حد يمكن أن نوفق بين المعنيين يا تُرَى ؟

الجواب عن هذه التساؤلات يقدمه لنا الوقوف على معنى فعل الهداية ذاته، و كذا الأدوات التي يُعَدَّى بها هذا الفعل[6].

---

(1)- ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 1، ج1، ص 131.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص 269.

(3)- الحجرات : 17.

(4)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 169 – 170.
و كذلك غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 96.

(5)- في الآية 14 من السورة.

(6)- ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 1، ج2، ص 20، 21، 22.

فقد يُعَدَّى بنفسه و قد يعدى باللام، و قد يعدى بـ (إلى)، فمتى عدى بنفسه أفاد كل معاني التعريف و البيان و الإلهام كقوله تعالى : <<وَ يَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا>>[1]، و متى عدى باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، كقوله تعالى <<إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ>>[2]، و متى عدي بـ (إلى) أفاد الإيصال إلى الغاية المطلوبة كقوله تعالى : <<وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ>>[3] [4].

و على أساس أن الفعل قد عدي باللام في قوله تعالى : <<أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ>> فقد أفاد إذن معنى التخصيص بالشيء المطلوب، أي : الإرشاد إلى الطريق، أي : أن الله قد أرشد هؤلاء الأعراب إلى طريق الحق و الهداية سواء وصلوا أم لم يصلوا إلى الغاية[5]. ذلك لأن الهداية لا تستلزم بالضرورة الإهتداء[6]، قال تعالى : <<وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى>>[7].

و على ضوء هذه الآية الكريمة خصوصا، و الكلام السّابق عموما، يتجلّى للقارئ الكريم أنْ ليس هناك تناقض بين المعنيين السابقين، بل إنّ لكلّ لفظ معناه، و لكل عبارة مؤداها و موقعها و فائدتها.

**السادس عشر** : قوله تعالى <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ>>[8]، و فيه هذه اللّفتة :

ذكر عبارة «وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» بعد قوله <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ>> مع أن مؤداهما -في الظاهر- واحد، فما الفائدة إذن من ذكر هذه الفاصلة ؟

قيل: إن في ذكرها تأكيدا يفيد شمول علمه المطلق بالمرئيات و المسموعات، و الجزئيات و الكلّيات على السواء.

---

(1)- الفتح : 02.

(2)- الإسراء : 09.

(3)- الشورى : 52.

(4)- ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : المجلد 01، ج 02، ص : 20، 21، 22.

(5)- ينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن : البخاري : ج 13، ص 156.

(6)- ينظر التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 268 و 272.

(7)- فصلت : 17.

(8)- الحجرات : 18.

ذلك "لأنه لما ذكر أنه يعلم الغيب و كان شأن الغائب أنه لا يرى عطف عليه عنه بالمبصرات احتراسا من أن يتوهموا أن الله يعلم خفايا النفوس و ما يجول في الخواطر و لا يعلم المشاهَدات"[1].

هذه جملة من الشواهد الواردة في الحجرات عن ظاهرة الذكر في أسلوب القرآن و فوائده تعزز لدينا فكرة أنْ ليس في القرآن الكريم لفظ و لا عبارة و لا أداة و لا حرف جيء به لمجرد الحشو الأسلوبي كما هو الحال في كلام بعض من ينشغلون بالكتابة و التأليف.

هذه جملة من الشواهد تزيد الفكر قناعة أنه ما من لفظ يُذكر إلاّ و من وراء ذلك فائدة بيانية لا بد من الكشف عنها و تجليتها و الوقوف على القيمة الفنية و الموضوعية و التشريعية منها بدل الحكم عليها لأول قراءة بأنها زائدة و بالإمكان الإستغناء عنها دون أن يُخلّ ذلك بالمعنى المراد.

فهذا حيف و زور، و الأحرى بمن كانت تربطه بعلوم القرآن رابطة أن يتجنب الخوض في مثل هذه الضلالات.

---

(1)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج: 26، ص 271.

# المبحث الثاني

## بلاغـــــة الحـــــذف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحذف هو الإزالة، و الذي نعنيه هنا هو الإعراض عن ذكر ألفاظ أو أدوات أو عبارات لغاية أسلوبية ما.

و الحذف كما أشاد بقيمته عبد القاهر الجرجاني هو " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، و الصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، و تجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، و أتم ما تكون بيانا إذا لم تبن ..."[1].

و قد أشار إلى الحذف –أيضا– جلال الدين السيوطي في كتابه : الإتقان في علوم القرآن، و بين أقسامه : و ذكر أسبابه و شروطه و فوائده[2]، ليس الآن معرض الحديث عن ذلك ...

هذه جملة من المميزات الأسلوبية لظاهرة الحذف في الكلام عموما، فهل يمكن أن نلمس روعة هذا الحذف في كلام الله ؟ وهل تنطبق هاته المميزات على آيات السورة الكريمة يا ترى؟

و هل يجوز بالفعل أن يكون للحذف في القرآن الكريم فوائد أخرى قد تغيب إذا ما حل الذكر محل الحذف ؟

كل هذه التساؤلات نحاول الإجابة عنها أو عن جزء و لو بسيط منها من خلال دراسة هذه النماذج.

**الأول** : قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3] و فيه من النماذج ما يأتي بيانه.

**حذف موصوف الإسم الموصول** : خصوصا و قد ورد في أسلوب النداء، لأن " حذف الموصوف ... أكثره في النداء و المصدر "[4]، و عليه يكون التقدير : يا أيها الناس أو يا أيها القوم الذين آمنوا، لأنه من غير الجائز أن يحل غير العاقل محل هذا الموصوف، و ذلك بدليل الخطاب و ما يتضمنه من نهي و أمر[5].

**حذف متعلق** "آمَنُوا" و لعل الهدف من ذلك هو الإختصار، و لسابق المعرفة به،

---

(1)– دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 149.

(2)– ج : 03، ص 170 – 184.

(3)– الحجرات : 01.

(4)– الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص 76.

(5)– ما يقال عن هذه الآية يقال أيضا عن النداءات التي صُدِّرت بها الآيات 2 و 6 و 11 و 12.

ذلك لأن العدول إلى الجملة الموصولة بدل الإسم المفرد فيه إشارة إلى أن للسامع سابق معرفة به، لكون الإسم الموصول قد وُضع وصلة إلى وصف المعارف بالجمل[1]، و لأنه يوصل إلى تبيان الموصوف من غيره[2]، كما ينبئ عن سابق معرفتك به[3].

**حذف مفعول التقديم** : و ذلك إما اقتصارا و إما اختصارا[4]، و معناه أن لحذف هذا المفعول وجهين :

1- " (أحدهما) ترك مفعوله برأسه كما في قوله تعالى <<يُحْيِي وَ يُمِيتُ>>[5] و قول القائل فلان يعطي و يمنع و لا يريد بهما إعطاء شيء معين و لا منع شيء معين، و إنما يريد بهما أن له منعا و إعطاء، كذلك هاهنا، كأنه تعالى يقول لا ينبغي منكم تقديم أصلا"[6].

و يؤكد ابن القيم هذا المعنى بقوله : " حذف المفعول ... ثلاثة أقسام [منها][7] حذفه من كل فعل ليس له مفعول معين بل يكون المقصود من الكلام بيان حال الفاعل فقط. و منه قوله تعالى <<هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ>>[8] أي هل يستوي ذو العلم و من لا علم له. و في مثل هذا يتعين أن لا يُعدى الفعل لفظا و لا تقديرا و يكون حاله كحال غير المتعدي فإن عديته تخصه بما تعديه إليه فينقص الغرض"[9].

2- أما الوجه الثاني فهو أن يكون المحذوف مقدرا بـ (الفعل) أو (القول)، كأنه تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا لا تتجرءوا على تقديم فعل أو أمر أو قول بين يدي

---

(1)- ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : المجلد : 01، ج 01، ص 129.
ينظر كذلك دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 194.

(2)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 194.

(3)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 195.

(4)- ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : السمين الحلبي، المجلد : 06، ص 168.

(5)- آل عمران : 156.

(6)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 110.

(7)- اقتصرت على هذا القسم فقط لعلاقته المباشرة بالكلام.

(8)- الزمر : 09.

(9)- الفوائد المشوق . إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص 74.
ينظر كذلك دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 155.

الله و رسولـــــه[1].

إلا أن هناك من اكتفى بالوجه الثاني فقط معللا ذلك بأن الغرض من هذا الحـــذف هـــو التعميم " ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل، كما إذا عرضت مســـألة في مجلسه صلى الله عليه و سلم لا يسبقونه بالجواب، و إذا حضر الطعام لا يبتدئون بـــالأكل، و إذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه و نحو ذلك "[2].

هذا، و يمكن أن يُقَدَّر المحذوف أيضا بـــ : ما لا يصلح من القول أو الفعل و غيرهما[3].

إلا أن هناك ممن يشاطر هذا الرأي من ينفرد بترجيح أن يكون المحذوف هـــو (القـــول) دون (الفعل)، بدليل تذييل الآية الكريمة بفاصلة <<إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ>> حيث أن هذا التذييـــل "يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ..... و إلا لقيل : إن الله سميع بصير ليحـــاذي بالســـميع القول و بالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله <<وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ>>[4]، فمحصل المعنى : أن لا تحكموا فيما لله و لرسوله فيه حكـــم إلا بعـــد حكـــم الله و رسوله أي : لا تحكموا إلا بحكم الله و رسوله، و لْتكن عليكم سمة الاتباع و الإقتفاء"[5].

**حذف حرف العطف بين (سميع) و (عليم)** : و كذلك جاءت أسماء الله تبارك و تعالى في القرآن الكريم بغير عطف إلا في موضعين فقط.

---

(1)- ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج 06، ص 11.
ينظر كذلك أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي : دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – 1417 هـــ – 1996م، ج : 07، ص 406.

(2)- صفوة التفاسير : الصابوني، المجلد : 03، ص 232.
ينظر أيضا : إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، مكتبة النهضة العربية –بيروت– لبنان– 1409هـــ – 1988م، ط 03، ج : 04، ص 208.

(3)- ينظر التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، دار الجيل بيروت– لبنان، 1407 هـــ – 1987م، ط : 2، المجلد : 2 ص 1170.

(4)- آل عمـــــران : 156.

(5)- الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي، ج : 18، ص 310.

1- " أحدهما في أربعة أسماء و هي الأول و الآخر و الظاهر و الباطن [1] " [2]

2- و " الثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول، مثل قوله <<الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى>>[3]، و نظيره <<الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا>> [4] " [5]

- و النكتة في ذلك هي أنه متى " ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء و قرب بعضها من بعض و شعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول، ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، و كذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر "[6].

و كذلك القول عن السمع و العلم في قوله <<إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ>> فكلاهما يخرج من مشكاة واحدة، و كل منهما ينبئ و يشعر بالآخر، إذ كلاهما وسيلة للإدراك و المعرفة.

أما عن الأسماء الأربعة التي وردت معطوفا بعضها على بعض فبيانها أنه " لما كانت ... دالة على معاني متباينة، و أن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات إيذانا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها "[7].

**الثاني** : قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ>>[8]، و فيه من الشواهد ما يلي :

---

(1)- و ذلك في قوله تعالى : " هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ .... " من الآية 03 من سورة الحديد.

(2)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج : 01، ص 190.

(3)- الأعلى : 02 و 03 و 04.

(4)- الزخرف : 10 و 11 و 12.

(5)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج : 01، ص 190.

(6)- المرجع نفسه.

(7)- المرجع نفسه.

(8)- الحجرات : 02.

**حذف موصوف الاسم الموصول و متعلق** "آمنوا"، و قد سبق الحديث عن مثل هذا [1].

**حذف النداء** : قبل قوله : <<وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ...>> و فيه لطيفة، و هي أنه لما كان " قوله تعالى (وَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ)... من جنس (وَلَا تَجْهَرُوا) لم يستأنف النداء، و لما كان هو يخالف التقدم[2] لكون أحدهما فعلا و الآخر قولا استأنف، كما في قول لقمان (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ)[3] و قوله (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)[4] لكون الأول من عمل القلب و الثاني من عمل الجوارح، و قوله (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[5] من غير استئناف النداء لأن الكل من عمل الجوارح"[6].

**حذف المفعول المطلق (جهرا)** : في قوله تعالى : <<وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ>> "أي جهرا مثل جهر بعضكم لبعض"[7]، لأن حرف التشبيه أو اسم التشبيه "الكاف في موضع نصب لأنها [أي : الكاف] صفة مصدر محذوف"[8].

و عليه فالمحذوف هو -أيضا- أحد طرفي التشبيه في هذه الصورة البيانية. فهو المشبه المنهي عنه.

و لعل الحكمة من الحذف هنا هي الإيجاز، و ذلك لدلالة المذكور على المحذوف، أي : دلالة الصفة على الموصوف الذي لا يحتمل إلا أن يكون في -الغالب- ما ذكرنا وهو (الجهر).

**حذف المضاف** : و هو ذاته المفعول له في قوله تعالى : <<وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ...>> و التقدير : و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم

---

(1)- تراجع الصفحتان : 91-92 من هذه الدراسة.

(2)- أي : التقديم بين يدي الله و رسوله، المنهي عنه في الآية الأولى.

(3)- لقمان : 13.

(4)- لقمان : 17.

(5)- الآية نفسها.

(6)- التفسير الكبير : الرازي : ج : 26، ص 113.

(7)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 74.

(8)- البيان في غريب إعراب القرآن : أبو البركات بن الأنباري النحوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1400هـ - 1980 م، ج : 02، ص : 382.

لبعض " خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون و لا تدرون"[1].

و بمثل هذا قال الزمخشري، إلا أنه زاد إلى المضاف المحذوف لام التعليل حيث قال -في تقدير المحذوف- "إنتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم أي لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف كقوله تعالى : <<يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا>>[2] " [3].

و قد ذهب بعضهم إلى أن المحذوف إما أن يكون المضاف و لام التعليل كأنه قيل : إنتهوا عما نهيتم عنه لخشية حبوط أعمالكم.

و إما أن يكون ذلك من باب ذكر علة الفعل المنهي عنه كأنه قيل : " إنتهوا عن الفعل الذي تفعلونه لأجل حبوط أعمالكم، فاللام فيه لام العاقبة" [4] أي : ما سيؤول إليه الأمر بمعنى أن المصير سيكون حبوط الأعمال إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه.

و عليه فالمحذوف -إذن- هو اللام، و ليس المضاف، و ذلك ما يعززه قول البيضاوي أن المحذوف مقدر بقولنا: " لأن تحبط، على أن الفعل المعلل باعتبار التأدية لأن في الجهر و الرفع استخفافا قد يؤدي إلى الكفر المحبط، و ذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة و عدم المبالاة " [5].

كما ذُكر أيضا أن المحذوف قد يقدر بمفعول له وهو: كراهة، أي: كراهة أن تحبط أعمالكم[6]

أما بعضهم فقد جعل المحذوف إما مفعولا لأجله، و يكون التقدير حينذاك : و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم، أو حذف لام التعليل مع لام النفي، و يكون التقدير حينذاك: و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لئلا تحبط

---

(1)- صفوة التفاسير : الصابوني المجلد : 03، ص: 232.

ينظر كذلك : التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي ج: 26، ص: 215.

و كذلك : جامع البيان : الطبري، المجلد : 11، ج:26، ص: 76.

(2)- النساء : 176.

(3)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمشخري : ج: 06، ص: 13.

ينظر كذلك تفسير النسفي : ج: 03، ص: 166.

(4)- روح البيان : البرسوي ج: 26، ص: 64.

(5)- أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 492.

(6)- ينظر : أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 492.

أعمالكم[1]، و عليه، فاللام هنا ليست للعاقبة و لا للتأدية، و ذلك لوجود النفي، هذا هو المقدر عند الكوفيين، بخلاف البصريين فهم يرون بالوجه الأول، أي أن المحذوف هو المفعول له[2]، هذا ما ذكره محمد علي طه الدرة في تفسيره، أما القرطبي فقد رجح أن يكون المحذوف، إما لام التعليل، أي لئلا تحبط أعمالكم، و إما أن يكون لام الصيرورة و التقدير : لأن تحبط، أي : فتحبط أعمالكم[3].

و بهذا فهو يشاطر الرّازي و أمثاله في الوجه الثاني من الرأي الذي ذهبوا إليه، كما يشاطر النسفي أيضا و من يرى برأيه في وجهه الثاني.

و لعل الحكمة من كل ذلك، هي الإيجاز الذي هو من أبرز صفات القرآن الكريم.

**حذف المضاف إليه** : و ذلك من كلمة (بعض) الثانية، فإن أصل الكلام أن يقال ... كجهر بعضكم لبعضكم، لأن حق البعض (وهي جزء) أن تضاف إلى الكل، فحذف الضمير من (بعض) الثانية استغناء بذكره في الأولى[4]، و ذلك ربما للإختصار و الإيجاز.

**حذف مفعول أو متعلق (تشعرون)** [5]: و ذلك بقرينة ما قبله، و هو حبط الأعمال، و التقدير أن تحبط أعمالكم و الحال أنكم لا تشعرون أنها محبطة[6]، أو بأنها محبطة، و السر في ذلك لعله يكون اجتناب الحشو و التكرار.

**الثالث** : قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[7] و قد تضمنت الآية الكريمة ما يلي من النماذج :

---

(1)- ينظر التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 114.

(2)- ينظر تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة : ج : 26، ص 584.

(3)- ينظر الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، المجلد 8 ، ج 16، ص : 306 و 308.

(4)- ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج 01، ص 127.

(5)- أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 492.

(6)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 135.

(7)- الحجـــــرات : 03.

**حذف موصوف الإسم الموصول (الذين)** : و ذلك في الموضعين.

1- في قوله تعالى : <<إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ...>> فقد حذف موصوف (الذين) الذي هو اسم إن، و التقدير : إن الناس الذين يغضون...

2- في قوله تعالى <<أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ...>> فقد حذف موصوف (الذين) الذي هو خبر (أولئك) و التقدير : أولئك الناس الذين امتحن...

و قد لا يكون هناك حذف لموصوف (الذين) في الموضع الثاني، فتكون هي ذاتها خبرا لاسم الإشارة، و ذلك لأن كل ما في القرآن الكريم من "الذي" و "الذين" يجوز فيه الوصل بما قبله نعتا، و القطع على أنه خبر لما قبله[1]، إلا في سبعة مواضع، فيجب الإبتداء بها، و هي قوله تعالى : <<الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ>>[2]، و قوله <<الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ>>[3] و قوله : <<الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا>>[4] و قوله : <<الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا>>[5] و قوله :<<الَّذِينَ يُحْشَرُونَ>>[6] و قوله : <<الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ>>[7] و قوله : <<الَّذِي يُوَسْوِسُ>>[8][9].

**حذف متعلق اللام** : في قوله "لِلتَّقْوَى"[10] فكأنه تعالى قال : عرف الله قلوبهم كائنة للتقوى و صالحة لها، و ذلك لأن الإمتحان هنا موضوع موضع المعرفة، و هذا لأن تحقق الشيء يكون باختباره[11].

و مثال ذلك قول القائل : أنت لكذا، أي أنت صالح لفعل هذا الأمر، أو قوله له : أنت للنوائب و النوازل، أي أنت أهل و كفء لها.

---

(1)- ينظر الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ج : 01، ص : 244 و 245.

(2)- البقرة : 121.

(3)- البقرة : 146. و الأنعام : 20.

(4)- البقرة : 275.

(5)- التوبة : 20.

(6)- الفرقان : 34.

(7)- غافر : 07.

(8)- الناس : 05.

(9)- ينظر الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ج : 01، ص : 244 و 245.

(10)- الحجرات : 03

(11)- ينظر غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص : 75.

و كذلك : التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 115.

**الرابـــــع** : قوله تعالى <<إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ>>[1]، و فيه من النمـــاذج ما يلـــي :

- **حذف موصوف الذين :** في قوله : << إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ ...>> و قد سبق الحديث عن مثل هذه الظاهرة، في قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ ... >> [2]، و التقديـــر : إن القـــوم الذين ينادونك ... أو : إن الأعراب الذين ينادونك.

و لعل الهدف من هذا الحذف هو – كسابقه – الإختصار و الإستغناء عن ذكر ما لا يخل بمعنى الكلام حذفه.

- **حذف المضاف إليه :** و ذلك في قوله تعالى : << ...مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ... >> " فَلَمَ يقل حجرات نسائك أو حجراتك توقيرا له صلى الله عليه و سلم و تحاشيا عما يوحشـــه عليـــه الصّلاة و السلام " [3]، فالذي يقول – مثلا– زرت المدينة فهو يشير بهذا القول إلى مدينة للسامع سابق عهد بها و لها في النفوس و في التاريخ مقام و قدر لا يستهان به، و ذلك بخلاف ما لـــو قيل: زرت مدينة كذا... فمن مثل هذا القول لا يمكن أن يُستوحى التلميح إلى مكانة هذه المدينـــة في التاريخ أو في النفوس حتى و لو كانت لها في الواقع تلك المكانة.

- **حذف مفعول يعقلون :** و قد يكون الهدف من ذلك :

1- إما الشمول أي : أنهم لا يعقلون شيئا، و لا يعقلون أدبا و لا فنا من فنون التعامل بتاتا.

2- و إما إرادة الفعل ذاته، و كأنه أُجري مجرى الفعل اللازم، و ذلك لهدف نفي صفة العقل عنهم من أساسها. [4]

**الخامس :** قوله تعالى : << وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّـــهُمْ وَ اللَّهُ غَفُـــورٌ رَّحِيمٌ >> [5] و قد تضمنت هذه الآية الكريمة ما يلي من الشواهد :

- **حذف الفعل بعد (لو) :** ذلك لأن " (أَنَّهُمْ صَبَرُوا) في موضع الرفـــع علـــى الفاعليـــة،

---

(1)- الحجـــرات : 04.

(2)- الحجـــرات : 03.

(3)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 139.

(4)- و مثال ذلك ما ذكرنا في قوله تعالى : << ...لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ >>، تراجع الصفحة 92 و ما بعدها من هذه الدراسة.

(5)- الحجـــرات : 05.

لأن المعنى و لو ثبت صبرهم"[1]، ذلك أن (لـو) لا يأتي بعدها إلا فعل، و التقدير: و لو ثبـت صبرهم[2]، أو : و لو ثبت أنهم صبروا، " و القرينة عليه معنى الكلام، فإنّ أنّ تدل على الثبوت و هو إنما يكون في الماضي حقيقة و إذا يُقدَّم الفعل ماضيا ..."[3].

و قد يكون الفعل المحذوف مقدرا بـ : و لو تحقق صبرهم، لِمَا يدل عليه هذا الفعل من معنى الثبوت كذلك[4].

و كل هذا تحقيقا لقاعدة : أن لو الشرطية لا يليها إلا فعل ظاهر أو مضمر، لأن هذا الفعل المحذوف هو فعل الشرط[5]، و عليه فما بعدها مرفوع على الفاعلية لا على الإبتداء[6]، و المعنى أن (أنهم صبروا) فاعل لفعل الشرط المحذوف و ليست مبتدأ.

**حذف مفعول الصبر** : في قوله <<وَ لَوَ أَنَّهُمْ صَبَرُوا>> و لعل التقدير يكون : و لو أنهم صبروا النفس، و هذا كما ورد في قوله تعالى : <<وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ...>>[7] [8]، ذلك لأن "الصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها"[9].

و لعله بناء على هذا التعريف للفظة الصبر، و أن ليس الصبر إلا حبسا للنفس و منعا لها من التطلع إلى الرغبات يكون الهدف من حذف المفعول في الآية إذن هو اجتناب الحشو، و العدول عن ذكر ما يفهم من سياق اللّفظ معناه.

---

(1)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري : ج : 06، ص : 15.
ينظر كذلك : تفسير النسفي : ج 03، ص 167.

(2)- ينظر الفريد في إعراب القرآن المجيد : الهمذاني، المجلد 04، ص 338.
و كذلك التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 215.

(3)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 143.

(4)- ينظر تفسير أبي السعود : ج: 08، ص 118.

(5)- ينظر تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدّرة، ج 26، ص 588.

(6)- ينظر روح البيان : البرسوي، ج 26، ص 68.

(7)- الكهف : 28.

(8)- ينظر : تفسير النسفي : ج 03، ص 167.

(9)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري : ج : 06، ص : 15.

**حذف مرفوع كان** : و التقدير : و لو أنهم صبروا لكان صبرهم خيرا لهم[1]، أو لكان "الصبر خيرا لهم من الإستعجال لما فيه من حفظ الأدب و تعظيم النبي صلى الله عليه و سلم الموجِبَيْنِ للثناء و الثواب"[2].

و قد أضاف الرازي أن المحذوف قد يقدر بـ : الخروج من غير نداء، أي : " و لو صبروا حتى تخرج إليهم لكان خروجك من غير نداء خيرا لهم "[3].

و كلها آراء محتملة و متقاربة و مهما كان تقدير المحذوف فالعبرة تكمن في الحذف ذاته و ماله من قيمة فنية زادت من روعة الأسلوب.

**حذف المفضل عليه** : في قوله : <<لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ>> وذلك على أساس أن خيرا هو اسم تفضيل، و عليه يكون التقدير : و لو أنهم صبروا لكان الصبر خيرا لهم من الإستعجال و النداء من وراء الحجرات لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم[4].

و لعل ما يعزز هذا هو مفهوم السياق لأن الإتيان باسم التفضيل (خيرا) بعد عبارة <<وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ>> يفيد أن المفضل عليه هو خلاف ما يقتضيه معنى هذه العبارة، و هو المقدر بعبارة " لكان الصبر خيرا لهم من الإستعجال و النداء ..." و قد سبق الحديث عنها.

**حذف حرف العطف بين (غفور)و(رحيم)** : و ذلك -ربما- لتقارب معنى كل من هاتين الصفتين، و لأن الحديث عن المغفرة ينقل الذهن مباشرة و في غالب الأحيان إلى التفكير و الحديث عن الرحمة لأن المغفرة توطئة للرحمة، و الرحمة ثمرة للمغفرة [5]، و قد تحدثنا عن مثل هذا في الآية الأولى.

---

(1)- ينظر البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج 08، ص 109.

ينظر كذلك : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج 26، ص 78.

(2)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 143.

ينظر كذلك الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري : ج : 06، ص : 15.

(3)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 117.

(4)- ينظر روح البيان : البرسوي، ج 26، ص 68.

(5)- تراجع الصفحة 34 من هذه الدراسة، أو ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية ، المجلد 01، ج 01، ص 190.

**السادس** : قوله تعالى : <<يَآ أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ>>[1] و فيه هاتان اللّفتتان :

**حذف موصوف (الذين) و متعلق (آمنوا)** : و قد سبق الحديث عن مثل هذا عند تناولنا للآية الأولى و الآية الثانية من السورة الكريمة في هذا المبحث [2].

**حذف المفعول لأجله** : أو حذف لام التعليل مع لام النفي، و ذلك في قوله تعالى : <<...فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا...>> و التقدير : فتبينوا كراهة أن تصيبوا قوما بجهالة، و هو مذهب البصريين، و إلى مثل هذا ذهب البيضاوي حيث قدر أن يكون المحذوف : "كراهة إصابتكم"[3].

أما الكوفيون فيرون أن المحذوف هو لام التعليل مع لام النفي، و عليه يكون تقدير الكلام: فتبينوا لئلا تصيبوا قوما بجهالة[4]، و إلى مثل هذا ذهب القرطبي[5]، و الصابوني[6].

أما غيرهم فقد جمعوا بين الوجهين، فورد عن أحدهم قوله أن "موقع <<أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا>> الخ... نصبا على نزع الخافض و هو لام التعليل محذوفة و يجوز كونه منصوبا على المفعول لأجله"[7].

و على أية حال فإن الذي عليه كل من المدرستين، و أغلب المفسرين أن هناك حذفا، و مهما اختلفت وجهات النظر في تقدير المحذوف فإن جُلّها يصب في مصب واحد، و كل منها دليل صارخ على بلاغة القرآن في اصطفاء المواضع التي لا يضير فيها الحذف بالمعنى المراد و الهدف المنشود.

---

(1)- الحجرات : 06.

(2)- تراجع الصفحة **91** من هذه الدراسة.

(3)- ينظر أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص 492.

(4)- ينظر التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 120.

و كذلك تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26، ص 590.

(5)- ينظر الجامع لأحكام القرآن : القرطبي : المجلد 08، ج 16، ص 312.

(6)- ينظر صفوة التفاسير : الصّابوني : المجلد 03 ص 233.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 233.

**السابـــع** : قوله تعالى : <<وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْـــرِ لَعَنِتُّمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَـانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ>>[1] و فيه من النماذج ما يلي :

**حـــذف خبـــر (أن)** : "المقدم في الجملة الظرفية [فيكم، و إبقاء متعلقـــه]، و التقديـــر : و اعلموا أن رسول الله موجود فيكم"[2]، و ذلـــك لدلالـــة حـــرف الجـــر عليـــه، فلـــو قيـــل مثلا : و اعلموا أن رسول الله إليكم، لكان التقدير –ربما– (مرسل)، أي و أعلموا أن رســـول الله مرســـل إليكـــم...

**حذف الموصوف** : في قوله تعالى : <<لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ ...>> فقد حذف الموصوف، و أقيمت الصفة مقامه، و التقدير : لو يطيعكم في أمر كثير من الأمـــر[3] و ذلـــك لأن (مـــن) للتبعيض، و(الكثيـــر) ليس هو (الكل)، و عليه تكون (الكثير) وصفا لمحذوف و هـــو المقـــدر بـــ (أمـــر) أو غيره.

كما يجوز –ربما– أن يكون المحذوف هو (المضاف)، و يكون التقدير حينها : لو يطيعكم في فعل أمر كثير من الأمر، أو لو يطيعكم في فعل كثير من الأمر.

**حـــذف شريطة (لكـــن)** : فإن قيل "كيف موقع لكن و شريطتها مفقودة من مخالفـــة مـــا بعدها لِمَا قبلها نفيا و إثباتا [قلت] هي مفقودة من حيث اللّفظ حاصلة من حيث المعنى لأن الذين حُبِّبَ إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم"[4].

و معنى هذا أن الذين بلغوا درجة تحبيب الإيمان إلى قلوبهم لم يكونوا من الذين تجاسروا على إبداء رأيهم في حضرة الرسول صلى الله عليه و سلم، فهؤلاء الذين تجرؤوا على مثل هذا الصنيع هم الذين غويرت صفتهم عن صفة المُحَبّب إليهم الإيمان.

---

(1)– الحجـــــرات : 07.

(2)– ربع يـــس المفسر: سميح عاطف الزين و كامل سليمان و علي حسين عبد الله، جزء الأحقاف المفسر، ص 118.

(3)– ينظر تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26، ص 593.

(4)– الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري : ج : 06، ص : 16.

هذا و قد يكون المحذوف مقدرا بـ (بعضكم)، و عليه يكون التقدير : أن الله حبب الإيمان "إلى بعضكم و لكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم، و هذا من إيجازات القرآن و لمحاته اللّطيفة التي لا يفطن إليها إلا الخواص"[1].

و على الوجهين فسر الحذف هنا و مرده لعله يكون نابعا من تلك المفارقة الجليّة بين المنزلتين : منزلة هؤلاء الذين غفلت قلوبهم عن مقام النبوة فوسوس لهم الشيطان أن يفتاتوا على الرسول صلى الله عليه و سلم دون الرجوع إليه و إلى الوحي الجليل، و منزلة الصفوة التي ما برحت تقتفي أثره عليه الصلاة و السلام في كل صغيرة و في كل كبيرة، فأنزل الله تعالى في حقهم <<وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ...>> إخراجا لهم من أن يشملهم عموم التوبيخ في قوله <<وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ...>>.

**الثامن** : قوله تعالى : <<فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ>>[2].

إتفق كثير من المفسرين على أن في الآية الكريمة حذفا، إلا أن اختلافا وقع حول ضبط المحذوف فمنهم من يرى أن المحذوف هو :

**الفعل و الفاعل** : و ذلك على أساس أن (فضلا) إما :

**حال** : و التقدير : جرى ذلك فضلا من الله و نعمة. أو:

**مفعول به** : و التقدير : يبتغون فضلا من الله و نعمة[3].

و منهم من يرى أن المحذوف هو :

**الفعل المشتق من معموله** : أي من المفعول المطلق (فضلا)، و التقدير : أفضل الله فضلا[4].

إلا أننا نقول أن مصدر (أفضل) هو (إفضال) فإلى أي حد يمكن القول بصحة هذا الرأي؟

و منهم من يرى بجواز الوجهين معا، أي أن المحذوف هو إما الفعل (جرى)، أو الفعل العامل في المفعول المطلق كأنه تعالى قال : أفضل فضلا و أنعم نعمة، أو الفعل العامل في

---

(1)- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي ، ج 08، ص 110.

(2)- الحجرات : 08.

(3)- ينظر تفسير أبي السعود : ج 08، ص 120.

(4)- ينظر تفسير الجلالين : جلال الدين السيوطي و جلال الدين المحلى : ص 02 من تفسير السورة.

المفعول به، و التقدير : يبتغون فضلا من الله و نعمة[1].

و بالإضافة إلى كل هذا فقد ذكر الثعالبي أن المحذوف في هذه الآية الكريمة هو الناسخ و تقدير الكلام : كان هذا فضلا من الله و نعمة[2].

**حذف متعلق (نعمة)** : و هذا لدلالة ما قبله عليه[3]، و التقدير : فضلا من الله و نعمة من الله، و عليه فالحذف هنا لاجتناب التكرار، و ذلك لِمَا يفيده حرف العطف (الواو) من مطلق الجمع و الإشتراك في الحكم.

**حذف حرف العطف بين (عليم) و (حكيم)** : و لعل مرجع ذلك إلى ما بين هاتين الصفتين من تقارب في المعنى كبير[4]، ذلك لأن الحكمة هي الخبرة و الفهم المعمّق و الدقيق للأمور، و هي تاج المعارف و أمّ العلوم.

**التاسع** : قوله تعالى <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ>>[5] و فيه هاته اللّطيفة :

**حذف فعل الشرط بعد (إن)** : لأن "طائفتان فاعل فعل محذوف وجوبا لا مبتدأ لأن حرف الشرط لا يدخل إلا على الفعل لفظا أو تقديرا، و التقدير : و إن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فحذف الأول لئلا يلزم اجتماع المفسر و المفسر "[6] علما أنه " لا يجوز أن يحذف الفعل مع شيء من كلمات الشرط العاملة إلا مع (إن)، لأنها الأصل في كلمات الشرط،

---

(1)- ينظر التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 125.

(2)- ينظر جواهر الحِسان في تفسير القرآن : الثعالبي، ج 04، ص 188.

(3)- ينظر تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26، ص 594.

(4)- تراجع الصفحة 93 من هذه الدراسة، أو ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية ، المجلد 01، ج 01، ص 190.

(5)- الحجـــــرات : 09.

(6)- روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 73.

ينظر كذلك : التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، المجلد 02، ص 1170.

وكذلك المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ج 5، (المجلد 5) ص 148.

و قد لا يكون هناك حذف في قوله : "و إن طائفتان..." و إنما تتناول الآية الكريمة من باب تقديم الفاعل على الفعل، و هذا ما سنعرض له عند الحديث عن ظاهرتي التقديم و التأخير في المبحث الخامس من الفصل الثالث.

و يثبت للأصل ما لا يثبت الفرع "[1].

هذا و يجوز أن يكون المضمر المحذوف هو (كان)[2]، تضمينا لاحتمال أن يكون المحذوف فعلا، و عليه فيكون التقدير : و إن يكن طائفتان اقتتلوا، أي و إن يحدث طائفتان اقتتلوا، فيكون الفعل (كان) هنا تاما لا ناقصا، وعليه نرجع إلى كلامنا الأول أن : (طائفتان) فاعل لفعل محذوف.

إلا أن هناك من يرى مذهبا مغايرا تماما مضمونه أن "يكون فعل "اقتتلوا" مستعملا في إرادة الوقوع مثل <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ>>[3] [أي : إذا أردتم القيام لتأدية الصلاة]، و مثل <<وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا>>[4] أي يريدون العود. لأن الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الإقتتال و ذلك عند ظهور بوادره و هو أولى من انتظار وقوع الإقتتال ليمكن تدارك الخطب قبل وقوعه على معنى قوله تعالى <<وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا>>[5].

و بذلك يظهر وجه تفريع قوله <<فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى>> على جملة "اقتتلوا" أي فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى و لم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية""[6].

**العاشر** : قوله تعالى: <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ>>[7] و فيه ما يلي من النماذج :

**حذف موصوف الذين و متعلق (آمنوا)** : سبق الحديث عن مثل هذا[8].

**حذف إسم (عسى)** : وذلك على أساس أنها ناقصة، تطلب إسما و خبرا، والتقدير: عسى المسخور منهم أن يكونوا خيرا من الساخرين وأفضل منهم و ذلك بميزان العدالة الإلهية[9].

---

(1)- البيان في غريب إعراب القرآن : أبو البركات بن الأنباري، ج 02، ص 383.

(2)- ينظر إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، ج 04، ص 212.

(3)- المائدة : 06.

(4)- المجادلة : 03

(5)- النساء : 128.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج : 26، ص 239.

(7)- الحجرات : 11.

(8)- تراجع الصفحة :91 من هذه الدراسة.

(9)- ينظر البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي : ج 08، ص 113.

و لعل مرد هذا التقدير إلى ضمير (واو الجماعة) العائد إلى أقرب اسم قبله و هو (قوم) الثانية و التي تدل على المفعول بهم فعل السخرية، و ذلك في الآية: <<لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ>> و المفعول بهم فعل السخرية هم المسخور منهم، و هو اللفظ المقدر المحذوف.

إلا أن هناك من ينظر إلى (عسى) على أنها ليست ناقصة بل تامة و تطلب فاعلا هو جملة : (أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) أو جملة (أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ)، و لا تطلب خبرا، لأن هناك في القرآن الكريم. (عسى) التي تطلب إسما و خبرا كما في قوله تعالى : <<فَهَلْ عَسِيتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ>>(1) (2).

غير أننا نقول : إن ورود (عسى) في قوله تعالى : <<فَهَلْ عَسِيتُمْ...>> أو في آيات أخرى ناقصة ليس بالدليل الدامغ الذي ينفي أن تكون ناقصة و اسمها محذوف في قوله تعالى : <<عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ>> و قوله <<عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ>>.

فليس من الخطإ أن يحذف إسم النواسخ، و ليس من الصواب أن يحكم على الناسخ بأنه تام لمجرد حذف اسمه، فكم من ناسخ حذف إسمه و لم يكن ذلك سببا في الحكم عليه بأنه تام، و هذا كقول القائل : كانت ظهيرةً شديدة الحر، أي كانت الظهيرةُ شديدةَ الحر، و قولنا:كانت ظهيرةٌ معركةً ضارية، أي كانت تلك المعركةُ معركةً ضارية.

و هذا في حالة ما إذا لم يحذف الخبر، فإذا ما حذف الخبر ففي هذه الحالة قد يتسنى لنا الحكم على الناسخ بأنه تام، و ذلك كقولنا لقد كان ذلك الأمر، بمعنى لقد وجد، أو لقد ثبت؛ لقد حدث، أي:كان له وجود و كينونة.

و قولنا أيضا : لم يكن يتوقف عن الصلاة و الذكر حتى يُصبِح، أي حتى يحلَّ الصباح أو حتى يدخل في الصباح، و غير ذلك.

و على ضوء ما سبق يمكن القول أن (عسى) قد تكون بالفعل :

أ- تامة : و تكون جملة (أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) فاعلا لها، أو جملة (أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ)، و بالتالي فليس هناك حذف في الآية الكريمة.

كما يمكن أن تكون (عسى) :

---

(1)- محمد : 22.

(2)- ينظر تفسير أبي السعود : ج 08، ص 121.

ب- ناقصة : و في هذه الحالة يكون اسمها محذوفا مقدرا -كما ذكرنا-، و خبرها هو جملة (أَنْ يَكُونُوا) أو جملة (أَنْ يَكُنَّ).

و لعل هذا الأخير هو الأرجح و الأقرب إلى الصواب على الأقل في نظر الباحث، و ذلك بدليل القرينة اللّفظية التي هي ضمير الجمع (الواو) في قوله (يكونوا)، أو الضمير المضمر في قوله (يكن)، و كل منهما عائد -لا محالة- على المقدر المحذوف:(المسخور منهم) أو (المسخور منهن).

**حذف الفعل (تسخر)** : في عبارة <<وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ>>، و هو مقدر لدلالة ما قبله عليه، أي : و لا تسخر نساء من نساء[1]، و هذا للإيجاز و اجتناب التكرار و الطول الممل.

**حذف حرف التاء** : من الفعل : (وَلَا تَنَابَزُوا)، "لأن تاء الخطاب و تاء التفاعل حرفان من جنس واحد في كلمة[2]" واحدة، فالحذف هنا أولى للتخفيف و اجتناب الثقل.

**حذف البدل** : الذي أبدل من لفظ (الإسم)، و المقدر بـ (اسم)، و الذي هو نفسه اللّفظ المضاف إلى (الفسوق)، و التقدير : بئس الإسم إسم الفسوق[3].

و لعل ما يمكن استنتاجه هو -ربما- أنه لا يمكن القول بهذا الرأي إلا في حالة ما إذا وقع الإتفاق على قراءة لفظ (الفسوق) بالجر على أساس أنها المضاف إليه.

أما إذا قرئت بالضم فهذا يعني أنها ليست مضافا إليه (إلى البدل المحذوف) بل نعت للفظ (الإسم)، و في هذه الحالة تتناول من باب التجوز بلفظ المصدر عن إسم الفاعل.

و معنى هذا أن يكون المقصود من لفظ (الفسوق) هو الإفساق و الإخراج عن زمرة الإيمان، فيقدر الكلام بقولنا : بئس الإسم المُفْسِق عن دين الله و زمرة المؤمنين، و على هذا الأساس -إن كان بحق- في الآية تجوز بالمصدر عن اسم الفاعل- لا يمكن القول بوجود الحذف هنا، و عليه، نتناول هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن المجاز، وليس في معرض الكلام عن الحذف.

---

(1)- ينظر تفسير القران الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة : ج 26، ص 603.

(2)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 133.

(3)- ينظر روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 82.

**حـــذف المضاف إلى ظرف الزمان (بعـــد)** : و ذلك في قوله تعالى : <<بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ>> و المحذوف مقدر بقولنا : بعد الاتصاف بالإيمان، لأن الفسوق و الإيمان لا يلتقيان، فالفسوق من شأن أهل الشرك[1].

**الحـــادي عشـــر** : قوله تعالى :<<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ>>[2]. و فيه ما يلي من النماذج :

**حذف موصوف (الذين) و متعلق (آمنوا)** : و قد سبق الحديث عن مثل هذا عند تناولنـــا للآية الأولى من سورة الحجـــرات[3].

**حـــذف الموصـــوف** : و ذلك في قوله تعالى : <<اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ>>، أي إجتنبوا ظنا كثيرا من الظن، و هذا لأن المنهي عنه هو ظن (بالتنكير)، و هذا الظن موصوف بـــالكثرة و ليست كل الظنون محظورة[4]، لأن منها الواجب، و منها المحرم، و غير ذلك، و هـــذا كلـــه و أكثر منه أفادته (كثيرا) المنكرة، و سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن التعريف و التنكير[5].

**حـــذف متعلق الظـــن** : في الآية ذاتها، و ذلك لتذهب نفس السامع إلى كل ظن ممكـــن هو إثم "[6] سواء تعلق بالله، أو بالعباد، و هذا للمبالغة في الإحتياط و التزام الحذر الشديد مـــن التلفظ بكلّ ما يجول في الخواطر، و ما توسوس به النفوس الخبيثة من ظنون، و التصريح بها.

**حـــذف التـــاء** : و ذلك من الفعل : (تجسسوا)، لأن اجتماع تاء التفاعل و تاء الخطـــاب فيه شيء من الثقل فحُذفت إحداهما للتخفيف، و مثل هذا ما قيل في قوله <<و لا تنابـــزوا>>[7].

---

(1)- ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 250.

(2)- الحجـــــرات : 12.

(3)- تراجع الصفحة :91من هذه الدراسة.

(4)- ينظر تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج 26، ص 609.
و كذلك التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 253.

(5)- تراجع الصفحة:149من هذه الدراسة.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 251.

(7)- تراجع الصفحة:108من هذه الدراسة.

**حـذف المضاف إليـه** : من كلمة (بعضا) الثانية، استغناء بذكرها في (بعضكم) التي هي الفاعل، و التقدير : "و لا يغتب بعضكم بعضكم"، و لعله لأجل هذا الإحساس بالثقل الناجم عن التكرر حذفت (كم) الثانية تخفيفا و دفعا للثقل، و مثل هذا ما قيل في قوله تعالى : <<وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ>>[1].

**حـذف المعطوف عليـه** : في قوله تعالى : <<فَكَرِهْتُمُوهُ>> و هذا على رأي من يرى أن الغرض من الخبر (كرهتموه) هو ظاهره، و ليس المراد منه الأمر بكره هذا الفعل، و عليه يكون تقدير الكلام : "بل عافته نفوسكم فكرهتموه"[2]، على أساس أن الكره معطوف على (عافت) المحذوفة، أو يكون التقدير : "عُرِض عليكم ذلك فكرهتموه"[3]، على أساس أن الكره –هنا– معطوف على (عُرِضَ) المحذوفة.

و على أية حال فمهما كان تقدير المحذوف، فإن "كرهتموه" معطوفة، لأن الفاء حرف عاطف، و لا يمكن –على حسب السياق– أن يكون حرف ربط لجملة الشرط و جملة جوابها، أو أي أمر آخر، إلا إذا أخذنا بعين الإعتبار أن هناك حذفا لجملة شرط مقدرة بقولنا "فإن تحقق ذلك، أي : خلاف ما تضمنه الإستفهام، بمعنى : إن تحقق عدم حبكم أكل لحم الأخ الميت فلأنكم قد كرهتموه، و تكون الفاء في الآية هي الفصيحة"[4].

**حذف المعطوف عليه** : في قوله تعالى <<وَ اتَّقُوا اللَّهَ>> لأنّ العبارة معطوفة –على رأي البعض– على جملة محذوفة "كأنّه قيل:إمتثلوا ما قيل لكم و اتقوا الله"[5] إلا أنّ هذه العبارة قد تكون استئنافية الغرض منها هو تعميم الأمر بالتقوى في كل الأحوال، و ليس مجرد تقييده بما تضمنته الآية الكريمة من نهي عن الغيبة و الظن و غيرهما، و على هذا الأساس يبطل –ربما– إدعاء أن تكون الجملة "واتقوا" معطوفة، و بالتالي فلا يكون هناك حذف أساسا في هذه الآية.

**حذف حرف العطف بين (تواب) و (رحيم)** : و ذلك لِمَا بين جزئي هذه الفاصلة من معنى قريب و ترابط متين، ذلك لأنه عادة ما يكون بعد توبة الله على عباده من رحمة بهم و رأفة بحالهم، و لأن توبة الله على العباد هي دليل رحمته بهم. و قد تحدثنا عن مثل هذا سابقا

---

(1)- تراجع الصفحة 97 من هذه الدراسة. أو ينظر بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج 01 ص 127.

(2)- الفريد في إعراب القرآن المجيد : الهمذاني، المجلد 04، ص 341.

(3)- التبيان في إعراب القرآن : العكبري ، المجلد 02، ص 1171.

(4)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 158.

(5)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 159.

عند تناولنا لفاصلة <<وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ>>لأن التوبة و المغفرة بمثابة الوجهين للصحيفة الواحدة[1]

**الثاني عشر** : قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ>>[2]، و فيه ما يلي من الشواهد :

**حذف الموصوف** : في قوله تعالى "من ذكر و أنثى" أي : من أب ذكر و أم أنثى[3]، سواء كان المقصود آدم و حواء عليهما السلام، أو كان المراد من الأب و الأم مطلق الوالدين.

**حذف الحال** : من قوله تعالى <<خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى>> و التقدير : خلقناكم حال خلقكم من ذكر و أنثى، ذلك لأن :(من ذكر و أنثى)متعلقان، فقد يكونان متعلقين بحال محذوف قبلهما[4]، و هو المقدر الذي تحدثنا عنه.

**حذف حرف التاء** : من الفعل "تعارفوا"، و ذلك -ربما- لاجتناب الثقل الناتج عن التقاء حرفين متجانسين، و هما التاءان المتتاليتان، كما هو الشأن في الفعل "تنابزوا" و الفعل "تجسسوا"[5].

**حذف حرف العطف** : الذي هو مقدر بين (عليم) و (خبير)، و لعل مرجع ذلك إلى ما بين هاتين الصفتين من ترابط جد وثيق[6]، إذ الخبرة هي كمال العلم، و الخبير بالشيء هو الفقيه له، المحيط علمه بكل أجزائه، الذي شمل إطلاعه له كل نواحيه.

**الثالث عشر** : قوله تعالى : <<قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ>>[7] و قد تضمنت هذه الآية الكريمة هذه اللفتة.

**حذف حرف العطف** : بين (غفور) و (رحيم)، وقد سبق الحديث عن مثل هذه الفاصلة[8]

---

(1)- تراجع الصفحة101من هذه الدراسة. أو ينظر بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج 01 ص 190.

(2)- الحجـــــرات : 13.

(3)- ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 259.

(4)- ينظر تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة : ج 26 ، ص 614.

(5)- تراجع الصفحة108من هذه الدراسة.

(6)- تراجع الصفحة94من هذه الدراسة. أو ينظر بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج 01 ص 190.

(7)- الحجـــــرات : 14.

(8)- تراجع الصفحة101من هذه الدراسة. أو ينظر بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج 01 ص 190.

**الرابـــع عشـــر** : قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1]، و فيه ما يلي :

**حذف متعلق الإرتيـاب** : و التقدير : " لم يشكوا في دينهم و كل ما يأتيهم من ربهم، بل يعتبرونه حقا و صدقا"[2]. و لعله من خلال هذا التقدير تتجلى الحكمة من هذا الحذف، و هـــي غاية التعميم، بمعنى: حتى لا يبقى في نفوسهم أدنى ريب حيال هذا الدين الذي تكفلت بحفظـــه يد الرّحمٰن.

**حذف مفعول المجاهدة** : في قوله ﴿وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ...﴾ لأنه "يجوز أن يكون المجـاهد منويا و هو العدو المحارِب أو الشيطان أو الهوى"[3]، كما يجوز أن يكون المفعول هو النفس[4] لِمَا توسوس به – في الغالب– من أفعال الشر.

إلا أن هناك من يرى أن (جاهدوا) هنا لا يحتاج إلى مفعول أصلا، فهو مبالغة من الفعـل (جهد) اللازم[5]، بمعنى المبالغة و الإكثار من الجد و الاجتهاد في الطاعة و القربات.

و على الإعتبار الأول نقول أنه "يجوز أن يُراد بالمجاهدة بالنفس الغـــزوُ، و أن يتنـــاول العبادات بأجمعها، و بالمجاهدة بالمال ... كلّ ما يتعلق بالمال من أعمال البر"[6].

هذا كله، و يجوز أن يكون المراد من حذف المفعول هنا هو إجـــراء الفعـــل (جـــاهدوا) مجرى الفعل اللازم، و أن لا يُراد منه أي مفعول أساسا، و ذلك لقصد فعـــل المجـــاهدة ذاتـــه و ليس للمفعول به و ذلك بمعنى : أن المؤمنين الصادقين هم الذين توفرت فيـــهم جملـــة مـــن الخصال منها : المجاهدة في سبيل الله.

**الخـــامـــس عشـــر** : قوله تعالى ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[7] و فيه هذه اللّفتـــة :

---

(1)- الحجـــــرات : 15.

(2)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة : ج 26 ، ص 618.

(3)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج 06، ص 23.

(4)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 169.

(5)- ينظر تفسير النسفي : ج 03، ص 174.

(6)- تفسير النسفي : ج 03، ص 174.

(7)- الحجـــــرات : 16.

**حذف الفعل (يعلم) الثاني** : و ذلك لاجتناب التكرار و الحشو، و كذلك لأن الواو يفيد مطلق الجمع. و التقدير : و الله يعلم ما في السماوات و يعلم ما في الأرض.

**السادس عشر** : قوله تعالى : <<يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ>>[1] و فيه ما يلي من النماذج :

**حذف حرف الباء** : في قوله تعالى : <<يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا>> و التقدير : يمنون عليك بأن أسلموا، و ذلك -ربما- للإيجاز[2]، لأن (أن أسلموا) في موضع المفعول -ليمنون- لتضمينه معنى الإعتداد، أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوبا بنزع الخافض أو مجرورا بالحرف المقدر أي : يمنون عليك بإسلامهم"[3].

**حذف الخافض (الباء)** : في قوله تعالى <<لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ>> أي : لا تمنوا علي بإسلامكم[4] و لعل الحكمة البارزة من ذلك هي الإيجاز و الإختصار كذلك كما في قوله <<يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا>>.

**حذف جواب الشرط** : في قوله تعالى : <<إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ>>، و يدل عليه ما قبله، و التقدير : "إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان فلله المنة عليكم"[5]، "حيث أرشدكم إلى الطريق الموصل إلى الإيمان الحق"[6].

---

(1)- الحجرات : 17.

(2)- ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 270.

(3)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 169.

(4)- ينظر التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 267.
و كذلك تفسير الجلالين : جلال الدين السيوطي و جلال الدين المحلي، ص 04 من تفسير السورة.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج 06، ص 23.
ينظر كذلك البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج 08 ، ص 118.

(6)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السّيد طنطاوي، ج 26، ص 184.

هكذا نأتي إلى نهاية الفصل الثاني من هذه الدراسة، و بعد هذا العرض لِمَا ورد في الحجرات من نماذج لظاهرتيَ الذكر و الحذف يمكن الخروج بالنتائج التالية :

1- وجوب الإعتقاد الجازم بأنه ما من حرف أو أداة أو كلمة أو عبارة ذُكرت في موضع ما إلا لحكمة ربانية معينة، سواء تجلت لنا هذه الحكمة أو لم يتجل لنا إلا شعاع من فيضها، سواء كانت تلك الحكمة أسلوبيةً، أو كانت عقديةً، أو تشريعية، و غير ذلك ...

2- وجوب الإيمان الثابت بأنّه ما من حرف أو أداة أو كلمة أو عبارة تحذف في موضع ما إلا لهدف ربّاني معين، أو ربما لأهداف كثيرة.

3- زيف الإدعاء بفكرة التسوية بين الذكر و الحذف في الموضع الواحد، و بطلان فكرةِ الصدفة و التّلقائية، و فكرة أنّ المذكور يمكن حذفه، و أن المحذوف يمكن ذكره دون أن يخل كلٌّ ذلك بنظم الكلام و معناه.

4- ضرورة الاهتمام بهاتين الظاهرتين الأسلوبيتين في كلام الله تعالى لكلّ من كانت لديه الرغبة في معرفة بعض أسرار هذا الكتاب، و الوقوف على بعض مظاهر الإعجاز فيه.

...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الفصل الثالث

## إستعمال الألفـــاظ والعبارات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن ثالث الفصول التي رسمت خطة لهذه الدراسة الأسلوبية هو تبيان مدى دقة القرآن في استعمال الألفاظ و العبارات، من خلال سورة الحجرات بالطبع.

أما الذي نعنيه بهذا الكلام فهو ما يُلمح عند القراءة المتأنية لآيات السورة من تفضيل لفظ على لفظ، و عبارة على غيرها، و صيغة على أخرى من الصيغ الصرفية المتباينة، و كذلك من إيثار زمن معين على غيره، أو إيثار تعريف لفظة و تنكير أخرى، أو الميول إلى تقديم كلمة على أخرى، و تأخير الحديث عن موضوع معين بعد الحديث عن موضوع آخر مغاير أو مقارب، و غير ذلك ...

فهل يمكن أن يحصل كل ذلك من قبيل الصدفة و التلقائية ؟ ، أم أن لهذا التفنن في استعمال الألفاظ و العبارات أسرارا و حكما و فوائد تنعكس على الجوانب العملية و الخلقية و التشريعية في حياة الناس؟..

ذلك ما سنعرض إليه من خلال ما سيأتي من النماذج الواردة في السورة، راجين أن نقف على أبرز ما يمكن أن يُستنبط من تلك الحكم و الفوائد التي أشار إليها – و إلى مثلها في القرآن الكريم– كثيرٌ من المفسرين في تفاسيرهم [1]، و كذلك بعض المهتمين بالدراسات القرآنية أمثال عبد القاهر الجرجاني [2]، و ابن قيم الجوزية [3]، و عبد الفتّاح لاشين [4]، و عمر السّلامي [5]، و مصطفى محمود [6] و مصطفى صادق الرافعي [7]، و بكري شيخ أمين [8].

أما عن الأسباب التي دفعت بي إلى تخصيص الحديث في هذا الفصل عن هذه الأمور، فهي محصورة في تلك الكثرة الهائلة من النماذج الحية و المختلفة لهذه الظاهرة الأسلوبية في ثنايا آيات السورة مدار البحث، و كذلك في تلك الرغبة الخفية و المشوقة لمعرفة الأهداف التي من وراء هذا الإستعمال.

---

(1)- أمثال : الزمخشري في تفسيره : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، و أبي حيان في تفسيره : البحر المحيط، و الطاهر بن عاشور في: التحرير و التنوير، و الرازي في: التفسير الكبير، و غيرهم.

(2)- في كتابه دلائل الإعجاز.

(3)- في كتابيه : بدائع الفوائد، و الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان...

(4)- في كتابه : صفاء الكلمة، و كتابه : الفاصلة القرآنية، و غيرهما.

(5)- في كتابه : الإعجاز الفني في القرآن.

(6)- في كتابه : القرآن محاولة لفهم عصري.

(7)- في كتابه : إعجاز القرآن و البلاغة النبوية.

(8)- في كتابه : التعبير الفني في القرآن.

و لقد ارتأيت – بعد نظر – أن أقسم هذا الفصل إلى خمسة مباحث، فخصصت المبحث الأول للحديث عن البعد الفني في اختيار اللفظة، ثم قمت بتقسيمه إلى مطلبين : تكلمت في الأول عن إيثار لفظ على لفظ و أداة على أخرى، و تكلمت في الثاني عن الحكمة من استعمال صيغة صرفية دون أخرى، مع الإشارة إلى تعريف بعض الألفاظ و تنكير البعض.

أما المبحث الثاني، فقد جعلته تحت عنوان : الدّقة في استعمال الزمن، ثم قسّمته إلى مطلبين، الأول : تكلمت فيه عن استعمال الماضي دون المضارع، و الثاني : عن استعمال المضارع دون الماضي.

و أما المبحث الثالث، فقد جعلته تحت عنوان : الدقة في استعمال العدد، و الذي أود الإشارة إليه هو أن هناك فرقا بين : إلالتفات من عدد إلى عدد، و بين استعمال عدد معين في موضع معين، بصرف النظر عن ظاهرة إلالتفات.

و أما المبحث الرابع، فقد جعلته تحت عنوان : إيثار نظم على نظم، و الذي أعنيه بذلك هو تفضيل التعبير بجملة معينة دون جملة أخرى، و ربما كانت هذه الأخيرة – في ظاهر السياق – هي الأولى بالإستعمال.

و أخيرا فقد أفردت المبحث الخامس للحديث عن ظاهرة أسلوبية أخرى كثيرا ما شغلت بعض المفسرين [1] و المهتمين بالدّراسات الأسلوبية للقرآن الكريم [2] لكنها ليست على علاقة باستعمال اللّفظ في حد ذاته، و إنما على علاقة باستعماله قبل غيره أو بعده، و ذلك ما سميته بـ : أسرار التقديم و التأخير.

و قد قمت بتقسيم هذا المبحث إلى مطلبين، فتحدثت في الأول عن : تقديم موضوعات على أخرى، و في الثاني عن الهدف من تقديم مفردات و تأخير أخرى.

---

(1)– أمثال : الزمخشري في تفسيره : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، و أبي حيان الأندلسي في تفسيره : البحر المحيط، و الطاهر بن عاشور في : التحرير و التنوير، و الرازي في : التفسير الكبير، و المراغي في تفسيره، و غيرهم.

(2)– أمثال : محمود السيد شيخون في كتابه : أسرار التقديم و التأخير في لغة القرآن الكريم، و كذلك : ابن القيم في كتابه : بدائع الفوائد، و غيرهما.

# المبحث الأول

## البعـــد الفني في إختيـــار اللفـــظ

- إستعمـــال لفظ دون لفظ و حرف دون حرف.
- إستعمـــال صيغة صرفية دون أخـــرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن دارس لفظة القرآن ليقف مشدوها – لأول وهلة – حينما يلاحظ كيف أن هذا اللفظ يستعمل في هذا الموضوع، و لا يستعمل في موضوع آخر، مع أنهما – في الظاهر – على تمام الإتفاق في المضمون و الهدف، و ذلك كاستعمال (النبأ) تارة، و (الخبر) تارة أخرى، و كاستعمال (ما) الموصولة في موضع معين، و عدم استعمالها في موضع آخر و استعمال (الذي) بدلها، و غير ذلك ...أو كاستعمال صيغة صرفية معينة مرة، و استعمال صيغة أخرى مخالفة تماما لسابقتها و ظاهر النص يوحي بالتماثل التام بين مضمون العبارتين، و ذلك كاستعمال (التبين) مرة، و استعمال (الإبانة) مرة أخرى، أو كاستعمال (غافر) في مكان، و (غفور) في مكان آخر، و غير ذلك كثير.

تُرى هل يمكن أن يكون كل ذلك من قبيل الصدفة، أم أن لكل لفتة من ذلك هدفا مرسوما و حكمة بالغة؟

ذلك ما سنأتي إلى بيانه من خلال هذه النماذج و الشواهد المتضمنة في هذين المطلبين.

**المطلب الأول : إيثار لفظ على لفظ.**

لقد عجت سورة الحجرات بجملة من الشواهد لظاهرة استعمال ألفاظ دون غيرها، و أدوات دون أخرى، إليك بيانها مرتبة على حسب ترتيب آيات السورة مدار البحث.

**الأول :** استعمال لفظ << تَشْعُرُونَ >> : و ذلك في قوله تعالى : << ...أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ >> [1] و لعل استعمال هذا اللفظ هنا دون غيره كلفظ << تعلمون >> مثلا يرجع إلى أن " عدم الإنتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه و سلم يُعوِّد النفس بالإسترسال فيه فلا تزال تزداد منه و ينقص توقير الرسول صلى الله عليه و سلم من النفس و تتولى من سيء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الإكتراث بالتأدب معه و ذلك كفر... لأن المتنقل من سيء إلى أسوأ لا يشعر بأنه آخِذ في التَّملي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلا قليلا حتى تغمره المعاصي، و ربما كان آخرها الكفر حين تضرى النفس بالإقدام على ذلك... " [2]

و لكن ليس المقصود من ذلك أن عدم الشعور كائن عند إتيان الفعل المنهي عنه لأنه لو كان الأمر كذلك لكان صاحبُه غيرَ مكلف على فعله، و هذا لامتناع تكليف الغافل و أمثاله. [3]

---

(1)- الحجرات : 02.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 221 و 222.

(3)- ينظر : التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 221 و 222.

و مما قيل كذلك في لفظ << تشعرون >> أن في استعماله " إشارة إلى أن الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان، فإن ارتكب ذنبا لم يرتكبه في عمره تراه نادما غاية النّدامة، خائفا غاية الخوف، فإذا ارتكبه مرارا يقل الخوف و الندامة و يصير عادة من حيث لا يعلم أنه متمكن " [1]، أي : لا يدرك أنه متمكن منه فينحدر شيئا فشيئا حتى يصير إلى الكفر المحبط للأعمال تماما.

**الثاني** : استعمال لفظ << الغَضّ >>، و ذلك في قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ... >>[2]، و ذلك – ربما – ليحصل التطابق بين كلمتي << الغض >> و << الجهر >>، حيث أن " الجهر يقال لظهور الشيء بإفراطٍ لحاسة البصر نحو : رأيته جهارا " [3] و أما الغض فيقال للتخفيض من حدة النظر إلى الشيء، قال تعالى : << قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ >>.[4]

و مما لا يخفى – خاصة عند علماء البيان – أن من جميل ما تزان به العبارات في كلام الناس هو أن ترد جملة من الصور البيانية و البديعية في كلامهم، و من بينها ما يُسمّى بالطباق، فما بالك إن كان مدار الحديث عن كلام الله جل و علا !..

**الثالث** : استعمال لام البعد : في قوله تعالى : << ... أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى... >> [5] مع قرب العهد بهؤلاء المشار إليهم، و هم الغاضون أصواتهم عند رسول الله، و في ذلك تفخيم لشأنهم و تعظيم لأمرهم [6]، ذلك لأن التعبير بالبعد عن المَثْنِي عليه فيه زيادة إجلال و إحماد لشأنه.

**الرابع** : استعمال لفظ << الحُجُرَات >> بدل << البيوت >> في قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ >> [7]، " لأن البيت كان بيتا واحدا مقسما إلى حجرات تسع" [8]، وهي حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم، هذا فضلا عما في هذا التعبير

---

(1)- التفسير الكبير : الرازي، ج:26، ص: 114.

(2)- الحجرات : 03.

(3)- روح البيان : البرسوي، ج:26، ص: 64.

(4)- النور : 30.

(5)- الحجرات : 03.

(6)- ينظر : تفسير أبي السعود : ج: 08، ص: 117.

(7)- الحجرات : 04.

(8)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 227.

من تلويح بوجوب احترام النبي عليه الصلاة و السلام، و احترام مواقيت تواجده داخل حجرات نسائه لأنه ما كان ليفعل ذلك إلا وقت مقيله، أو لقضاء حاجة من حوائجه الخاصة.

**الخامس** : استعمال (لا) للنفي [1] : دون << لن >> مثلا، أو غيرها، و ذلك – ربما – جريا على طريقة الكلام عند العرب، لأن " العرب إنما تنفي بلن ما كان ممكنا عند المخاطَب مظنونا أنه سيكون " [2]، و استعمال (لا) خلاف ذلك، ففيه دلالة على دوام هذا النفي، و عليه يكون النفي ب (لا)في الآية – ربما – إقرارا بنفي العقل عنهم أساسا، إذ لو كان لهم شيء من العقل – أي : عقل التأدب – لَمَا تجاسروا على أن ينادوا رسول الله صلى الله عليه و سلم من وراء الحجرات، و هو بهذا المنصب الخطير. [3]

**السادس** : استعمال لفظ <<يعقلون>> في قوله تعالى: << ... أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ >>[4] " إذ العقل يقتضي حسن التأدب و مراعاة العظماء عند خطابهم، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير ".[5]

وقد يكون في استعمال (لا يعقلون) احتمالان : أو " وجهان (أحدهما) لا يعلمون، فعبر عن العلم بالعقل لأنه من نتائجه [ لأن غير العاقل لا علم له ]، ... (الثاني) لا يعقلون أفعال العقلاء لتهورهم وقلة أناتهم" [6]، أي : أنهم لا يستعملون عقولهم فيما يعود عليهم بالنفع وحسن التعامل.

و على العموم فمن خلال هذا الكلام يمكن القول أنَّ باستعمال لفظ العقل هنا مع أن الحديث يدور حول قضية متعلقة بالأدب، تَتَجَلَّى لنا تلك العلاقة الوطيدة بين الجانب العقلي و الجانب السلوكي في حياة الناس، و عليه يمكن القول أنْ لا عقل لِمَنْ لا أدبَ له، و لا أدب لِمَنْ لا عقل له.

---

(1)- في قوله تعالى : << ...لَا يَعْقِلُونَ >> من الآية 04، من السورة.

(2)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج: 01، ص: 97.

(3)- ينظر : صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، المجلد : 03، ص: 233.

(4)- الحجرات : 04.

(5)- صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، المجلد : 03، ص: 233.
ينظر كذلك : أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 492.

(6)- النكت و العيون : تفسير الماوردي، ج: 04، ص: 70.

**السابـــع :** استعمال <<حتى>> دون <<إلى>> في قوله تعالى: <<حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ>>[1] مع أن الظاهر لا يبدي أدنى اختلاف بين الإستعمالين.

قيل أن مرد ذلك إلى أن " حتّى مختصة بالغاية المضروبة، تقول : أكلت السمكة حتى رأسها، و لو قلت : حتى نصفها أو صدرها لم يجز. و إلى – عامة في كل غاية. فقد أفادت حتى بوضعها أن خروج رسول الله صلى الله عليه و سلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الإنتهاء إليه ".[2]

و على هذا يمكن القول " أن حتى غاية لما قبلها و هو منه، و ما بعد إلى ليس مما قبلها بل عنده انتهى ما قبل الحرف، و لذلك فارقتها في أكثر أحكامها، و لم تكن إلى عاطفة لانقطاع ما بعدها عما قبلها بخلاف حتى " [3] أي : أنّ(حتى)يمكن أن تكون عاطفة كقولنا : زرت محمدا و فريدا حتى مصطفى، فمصطفى هنا معطوف على فريد، و ليس غاية ضربت للزيارة التي قمت بها.

هذا و قد أُخْتِيرَت << حتى >> دون << إلى >> كذلك لإرادة " الإيجاز بحذف حرف (أن) فإنه ملتزم حذفه بعد (حتى) بخلافه بعد (إلى) فلا يجوز حذفه " [4].

لأنك لو استعملت << إلى >> لقلت : ... و لو أنهم صبروا إلى أن تخرج إليهم، و لعل ما في هذه العبارة من الطول يجعلك دون تردد تؤثر عليها تلك التي استعملت فيها << حتى >> نظرا لما في هذه الأخيرة من الإختصار.

**الثامـــن :** استعمال <<خيرا>> دون غيرها: و هذا في قوله تعالى : << وَ لَوَ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىَ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ... >> [5] ذلك لأن << أفضل >> أو << أحسن >> مثلا، لا يدل كلٌّ واحد منهما على أكثر من التمييز و المفاضلة، أما << خيرا >> فهو لفظ يجوز " أن يكون اسم تفضيل، و يكون في المعنى : لكان صبرهم أفضل من العجلة، و يجوز أن يكون اسما ضدّ الشر، أي : لكان صبرهم خيرا لما فيه من محاسن الخلق بخلاف ما فعلوه فليس فيه

---

(1)- الحجرات : 05.

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 15.

ينظر كذلك : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 143.

(3)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج: 01، ص: 197.

(4)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 227.

(5)- الحجرات : 05.

خير، و على الوجهين فالآية تأديب لهم و تعليمهم محاسن الأخلاق و إزالة لعوائد الجاهلية الذميمة.>>[1]

و على الوجهين يمكن القول أنه من خلال استعمال هذا اللفظ يتبين لنا بلاغة القرآن في اختيار اللفظ الأنسب و الأفصح و الأكثر تأدية للمعنى الشامل و الأبلغ.

**التاسع** : استعمال حرف << إن >> دون غيره : و هذا في قوله تعالى : << إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا >>[1] مع أن تربُّص أعداء الإسلام و الفساق بالمسلمين، و إصرارهم على تمزيق صفّ الإيمان كان و يكون و مازال محتمل الوقوع على مر السنين، و حرف << إنْ >> " الأصل فيه أن يكون للشرط المشكوك في وقوعه ".[2]

و كان من المنتظر أن يحل << إذا >> أو مثله محل << إنْ >> لانتظار و احتمال وقوع فعل شرطه !

فما النكتة في استعمال << إنْ >> إذن ؟ ، و لِمَ لَمْ تستعمل أدوات الشرط الظرفية الأخرى ؟ ...

مما قيل في هذا الموضوع أن استعمال << إن >> هنا " للتنبيه على أن شأن فعل الشرط أن يكون نادر الوقوع لا يُقدِم عليه المسلمون "[3]، و هذا الفعل هو مجيء الفاسق إلى المؤمنين و محاولة تمزيق صفهم بأكذب الأنباء، و " فيه [أيضا] أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلاّ يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور ".[4]

و معنى ذلك " أن المؤمن كان موصوفا بأنّه شديدٌ على الكافر غليظ عليه، فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبإ، فإنْ تمكن منه يكون نادرا فقال : (إن جاءكم) بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع، إذ لا يحسن أن يقال : إن إحمر البِسر، و إن طلعت الشمس ".[5]

كما أنه قد يكون من وراء استعمال << إنْ >> هنا " الإشعار بأن الغالب في المؤمن أن يكون يقظا، يعرف مداخل الأمور، و ما يترتب عليها من نتائج، و يحكّم عقله فيما يسمع من

~~(1) التحرير والتنوير : الطاهر بن عاشور ج: 26، ص: 227~~

(1)- الحجرات : 06.

(3)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 229.

ينظر كذلك : بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج: 01، ص: 197.

(4) التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 229.

ينظر كذلك : بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، المجلد 01، ج: 01، ص: 197.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 16.

(5)- التفسير الكبير : الرازي، ج:26، ص: 119.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنباء، فلا يصدق خبر الفاسق إلا بعد التثبت من صحته ". [1]

**العاشـــر** : استعمال لفظ << فاسق >> دون غيره، و هذا في قولـــه تعـــالى : << ..إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ... >> [2] مع ما توحي به اللفظة من خروج عن الأصل، و ذلك " لانسلاخه عـن الخير و الرشد" [3]، فأصل الكلمة مأخوذ " من قولهم : فسقت الرطبة، إذا خرجت عن قِشرتها".[4]

كما أما تخصيص الفاسق بالذكر " لأنه مظنة الكذب، و حتى لا يشيع الشك بين الجماعـــة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها... أما الفاسق فـــهو موضع الشك حتى يثبت خبره، و بذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ و الرفض لِمَا يصل إليها من أنباء ".[5]

من خلال هذه الآراء حول استعمال لفظ << الفاسق >> يمكن أن نخلص إلى ما يلي :

1- بلاغة القرآن في اختيار اللّفظ الجامع – بدقة متناهية – بين المعني اللغـــوي، والمعنى المراد، و خدمة ذلك المعنى ( اللّغوي ) للمعنى المرجو بأدق ما يمكن.

2- براعة القرآن في اختيار اللّفظة المناسبة، فلو استُبدلت بكلمة <<فاسق>> –و تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا– كلمة أخرى كلفظة "أحد" مثلا لكان ذلك سببا في انعدام الثقة بين أفراد المجتمع الواحد، و لأدّى ذلك – في الغالب – إلى عرقلة المصالح المتبادلة بين الناس، و ذلك ما لا يصبو إليه تشريع القرآن، أما باســـتعمال كلمـــة << فـــاسق >> فالأمر يختلف، إذ بهذا الإستعمال يستقيم – كما سلف الذكر – أمرُ المسلمين وسطا بيـــن القبول، و رفض ما يصل إليها من أخبار.

**الحادي عشـــر:** استعمال <<نبأ>> دون <<خبر>> في قوله تعـــالى: <<..إِنْ جَـــاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ...>>[6] مع أنّ النبأ هو –في ظاهره– الخبر، و الخبر هو النبأ، إذن فلِمَ يؤثر لفظ النبأ هنا على لفظ الخبر ؟

قيل أن النبأ "هو الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به علم أو غلبة ظن و لا يقال للخبر نبأ إلا إذا حصل به علم أو غلبة ظن [و لذلك فمعنى] قوله تعالى: <<إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَـــإٍ>> أي: بخبر تميلون إلى صدقه، [كما أن] .. استعمال النبأ في هذه الآية للإشـــارة إلـــى وجـــوب

---

(1) - التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 178.

(2)- الحجرات : 06.

(3)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 178.

(4)- المرجع نفسه.

(5)- في ظلال القرآن : سيد قطب، ج: 26، ص: 3341.

(6)- الحجرات : 06 .

الإحتياط في أخبار غير العدول، و إن كانت في ظاهرها توهم الصدق ". [1]

ولعل ممَّا يعزز فكرة أن النبأ هو الخبر ذو الفائدة العظيمة قوله تعالى : << عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ... >> [2] – مع الإختلاف – طبعا – في طبيعة كلٍّ من النبأين – ، لأنه لم يكن هنالك خبر أعظم أمرا، و أدعى إلى دهشة قريش و استغرابهم – في تلك الحِقبة التي انغمسوا فيها في أوحال الشهوات و حمإ الملذات – من أن ينادِيَهم منادي الإيمان، و هو شاب كان يرعى الغنم عندهم، و أمُّه امرأة كانت تأكل القديد – إلى دعوة الحق و الخلد و ملك لا يبلى << فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صدق عند مليك مقتدر >> [3] ! ...

إذن من خلال هذا يتبين الفرق بين << النبأ >> و << الخبر >> إذ لا يصح أن نعبر بالنبأ عن سقوط المطر في فصل الشتاء، كما لا يجوز أن يُعبَّر عن ظهور إحدى علامات الساعة الكبرى بأنه مجرد خبر.

و عليه يكون – ربما – قد تجلى لنا وجه الحكمة من استعمال كلمة << النبأ >> في هذا الموضع، و ذلك لِمَا يمكن أن يكون لهذا النبأ الذي يأتي به الفاسق من أثر خطير و بليغ على كيان الأمة المسلمة.

**الثاني عشر :** استعمال الفعل << أصبح >> دون غيره في قوله تعالى: <<...فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ...>> [4] فهل المقصود وقت الصباح ؟ أم أن هناك قصدا آخر ؟

" قال النحاة:(أصبح)يستعمل على ثلاثة أوجه (أحدهما) بمعنى دخول الرجل في الصباح... و (ثانيها) بمعنى كان الأمر وقت الصباح كذا و كذا، كما يقول : أصبح اليوم مريضُنا خيرًا ممّا كان...(و ثالثها) بمعنى صار، يقول القائل : أصبح زيد غنيا و يريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت، و المراد ههنا هو المعنى الثالث " [5] " لأن بعض أخوات (كان) تستعمل بمعنى الصيرورة " [6] و عليه يكون المقصود : فتصيروا على ما فعلتم نادمين، و ليس المقصود تعيين

---

(1)– من أسرار التعبير القرآني : دراسة تحليلية لسورة الأحزاب: محمد أبو موسى، ص: 02.

(2)– النبأ : 01 و 02.

(3)– القمر : 54 و 55.

(4) - الحجرات : 06.

(5)– التفسير الكبير: الرازي، ج:26، ص: 121.

(6)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 232.

وقت دون آخر، ذلك لأن الندم حالة تصاحب مُقْتَرِف الخطيئة في كل حالاته و أحواله و أوقاته و أماكنه.

**الثالث عشر** : استعمال (لو) في قوله تعالى : << لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ... >> [1] دون << إن >> مثلا أو << حين >> أو << متى >> أو غير هاته الأدوات، كل هذا يكشف عن سِرِّه مَا تُفِيدُهُ << لَوْ >> من معنى الفرض و التقدير، لأن "ما بدر من التزيين [للرسول صلى الله عليه و سلم الإيقاعَ ببني المصطلق ] كان من حقه أن يُفرض كما يفرض الممتنعات " [2] هذا لأنّ << لو >> هي حرف امتناع لامتناع كما هو معروف، فما امتنع نزول العنت و النكال بهم إلا لامتناع طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم لهم.

**الرابع عشر** : استعمال لفظ << العنت >> : في الآية السابقة، و هذا لِمَا في هذا اللفظ من معنى المشقة و الشدة للمبالغة في التحذير من استتباع رأي الرسول صلى الله عليه و سلم لرأيهم [3]، و لذلك ذكر بعضهم خمسة معان و تأويلات لهذه الكلمة، فبيّن أنها تفيد الشدة و المشقة، و تفيد الهلاك، و تفيد الإثم و تفيد الإتهام و تفيد الغواية [4]، و كلها من الأمور التي يعز وجودها و يعسر تحملها على النفس البشرية.

و لئن دل هذا على أمر فلعل أول ما يدل عليه هو هول ما حاول بعضهم أن يصل إليه و هو استمالة الرسول صلى الله عليه و سلم للنزول إلى رأيهم و العمل به.

**الخامس عشر** : إيثار التعدية ب (إلى) في الفعلين << حَبَّبَ >> و << كَرَّهَ >> : وذلك في قوله تعالى : << ... حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ... >> [5]، بخلاف (زَيَّنَ) حيث " لمّا كان في التحبيب و التكريه معنى إنهاء المحبة و الكراهة و إيصالهما إليهم استعملا بكلمة (إلى) " [6]، أي : " لتضمينهما معنى بلغ، أي : بلغ إليكم حُبّ الإيمان و كُرْهَ الكفر "[7].

---

(1)- الحجرات : 07.

(2)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 148.

(3)- ينظر : الجامع لأحكام القران : القرطبي، المجلد : 08 ، ج: 16، ص: 314.

و كذلك ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 148.

(4)- ينظر : النكت و العيون ، تفسير الماوردي، ج: 04، ص: 71.

(5)- الحجرات : 07.

(6)- تفسير أبي السعود : ج: 08، ص: 120.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 237.

أما فعل التزيين فلم يُعَدَّ كذلك " للإيماء إلى أنه لما رغبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم"[1]، و اتسعت –عن طوع– له أنفسهم، وزكت به أرواحهم.

**السادس عشر** : استعمال لفظ << الرَّاشِدُونَ >> : في قوله : << ..أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >> [2] للمبالغة في تأكيد اعتصامهم بحبل الله، و حب الإيمان، و كره الكفر و أنواع الفسوق و العصيان، لأن مدلول كلمة << الرشد >> " الإستقامة على طريق الحق مع تصلبٍ فيه " [3] و " تمسك به في كل الأحوال " [4]

أما من الجانب اللغوي، فالرشد مأخوذ من الرشادة، و الرشادة هي الصخرة الصلبة القوية [5]، و لعل هو السر الذي جعل هذه الكلمة أولى بالإستعمال في هذا المقام بالتحديد.

**السابع عشر** : استعمال حرف << إنْ >> للشرط : دون غيره، في قوله تعالى : << ... وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا... >> [6] مع أن << إنْ >> يفيد قلة وقوع الأشياء أو انعدامها تماما، فلِمَ لَمْ يستعمل غير هذا الحرف من الأدوات الأخرى التي تفيد الشرط أيضا ؟

ربما يكون ذلك " إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل : فنحن نرى أكثر الإقتتال بين طوائفهم ؟ نقول : قوله تعالى (و إن) إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادرا" [7]، " فإن وقع على سبيل الندرة، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته" [8].

**الثامن عشر** : استعمال لفظ << الطائفة >> في الآية ذاتها، و الطائفة هي الجماعة، " و الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله تعالى: << فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ >>[9] " [10]

---

(1)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 237.

(2)- الحجرات : 07.

(3)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 17.
ينظر كذلك : الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، المجلد : 08 ج: 16، ص: 314.

(4)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 182.

(5)- ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 17.

(6)- الحجرات : 09.

(7)- التفسير الكبير: الرازي، ج:26، ص: 127.
ينظر كذلك : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 83.

(8)- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 183.

(9)- التوبة : 122.

(10)- تفسير المراغي : ج: 26، ص: 129.

مع أن الفرقة – هي في حد ذاتها – لا تتضمن أفرادا كثيرين بمثل ما تتضمنه القبيلة أو الشعب، وفي ذلك –ربما– إشارة إلى وجوب الإصلاح حتى مع أقل عدد من المسلمين يحدث بينهم خلاف أو نزاع، و لتأكيد ذلك جاء قوله تعالى : << ...فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...>> [1] بلفظ التثنية، و هما أقل من يحتمل أن يحدث بينهما ذلك الإقتتال.[2]

**التاسع عشر** : استعمال حرف << إن >> للشرط : في قوله تعالى : << ...فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى ... >> [3] و فيه " إشارة إلى نادرة أخرى و هي البغي، لأنه غير متوقع، فإن قيل كيف يصح في هذا الموضع كلمة (إن) مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه، و بغي أحدهما عند الإقتتال لا بد منه، إذ كل واحد منهما لا يكون محسنا، فقوله (إن) تكون من قبيل قول القائل : إنْ طلعت الشمس، نقول فيه معنى لطيف، و هو أن الله تعالى يقول: الإقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع، و هو كما تظنّ كلُّ طائفة أنّ الأخرى فيها الكفرُ و الفساد، فالقتال واجب... فإن بان لهما أو لأحدهما الخطأ و استمر عليه فهو نادر، و عند ذلك يكون قد بغي فقال << فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى >> يعني بعد إستبانة الأمر، و حينئذ فقوله << فَإِنْ بَغَتْ >> في غاية الحسن لأنه يفيد الندرة و قلة الوقوع " [4]

**العشرون** : استعمال << بغت >> دون غيرها : في الآية ذاتها، مع أن ظاهر السياق لا يمنع من استعمال << تعدت >> مثلا، لكنّنا نقول : إن التعدي هو ظلم، صحيح، لكنه دون البغي، و ذلك لما تحويه كلمة : البغي من استعمالٍ للقوة في طلب ما ليس بمستحق [5]، و فيه من التحذير ما لا يخفى، أما الظلم فقد لا تستعمل فيه القوة لنيل حق الغير.

**الواحد والعشرون**: استعمال <<حتى>> دون << إلى >> في قوله تعالى: <<...حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ >> [6] حيث " قد جُعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي : يستمر قتال

---

(1)- الحجرات : 10.

(2)- و هذا على أساس أن المراد ب: الأخوين : فردين اثنين، بخلاف من يرى أن المراد بالأخوين : الطائفتان، تراجع الصفحة 61 من هذه الدراسة والصفحة : 62 .

(3)- الحجرات : 09.

(4)- التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 128.
ينظر كذلك : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 84.

(5)- ينظر : النكت و العيون: تفسير الماوردي، ج: 04، ص: 72.

(6)- الحجرات : 09.

الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، و أمرُ الله هو ما في الشريعة من العدل و الكف عن الظلم، أي : حتى تقلع عن بغيها " [1] بمعنى : حتى انتهائها عن البغي، و إلا فحكم المقاتلة يبقى ساري المفعول.

هذا بالإضافة إلى ما في استعمال << حتىَّ >> من الإيجاز الذي سبق و أن تحدثنا عنه عند تناولنا لقوله تعالى : << ... وَ لَوَ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ >>.[2]

**الثاني والعشرون :** استعمال << أَقْسِطُوا >> في قوله تعالى : << ... فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا... >> [3]

فضلا عن اللّطيفة الأسلوبية و الفائدة التشريعية لذكر << و أقسطوا >> بعد << بالعدل >> [4]، فإن في اختيار لفظ الإقساط – بالتحديد – لطيفة أخرى تكمن في وجوب العمل من أجل إزالة كل مظاهر الجور في حياة المسلمين [5]، لأن الإقساط مأخوذ من القسط، و القسط هو الجور، و الإقساط هو العمل على تنحية كل ألوان الجور.

**الثالث والعشرون :** اختيار لفظ << إنما >> للحصر بدل النفي مع الإستثناء: و هذا في قوله تعالى : << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... >> [6]

مما قيل في هذا أن << إنما >> " وُضعت لتحقيق المتصل و تمحيق المنفصل، و تلخيص هذا الكلام أنها لنفي و إثبات " [7] أي أنها " تأتي إثباتا لما يذكر بعدها و نفيا لما سواه ".[8]

و على الرغم من أن معنى << إنما >> قريب جدا من المعنى الحاصل من اجتماع ما يفيد النفي مع ما يفيد الإستثناء، إلا أن هناك فرقا " بين أن يكون في الشيء معنى الشيء، و بين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق " [9] ، فكما أن << إنما >> لا تصلح في مكان <<ما>> و<< إلّا >> في قوله تعالى << وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ... >> [10] ، فكذلك لا تصلح <<ما>>

---

(1)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 242.
(2)- الحجرات : 05. تراجع الصفحة :122 من هذه الدراسة.
(3)- الحجرات : 09.
(4)- ذكرنا هذا في فصل : الذكر و الحذف، تراجع الصفحة 77 من هذه الدراسة.
(5)- ينظر : التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 129.
(6)- الحجرات : 10.
(7)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج: 01، ص: 128.
(8)- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص: 305
(9)- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص: 306
(10)- آل عمران : 62.

و << إلا >> في مكان << إنما >> في قولك : إنما هو درهم لا دينار. [1]

فإن قيل أنه يصلح استبدال << ما >> و << إلا >> ب << إنما >> في قوله تعالى : << إِنَمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... >> نقول أنه يصلح نظما و لكن المعنى الذي أريد في قوله << إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... >> لن يكون هو الذي في قولنا : ما المؤمنون إلاّ إخوة.

و مرد ذلك إلى " أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهلة المخاطَب و لا يدفع صحته أو لَمَّا ينزل هذه المنزلة " [2]، و تفسير ذلك أن قوله تعالى : << إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ >> " ليس... موجها لمن يجهله و يدفع صحته، و لكن لمن يعلمه و يقر به إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ " [3] على أخيه، و حرمة هذه الرابطة الدينية، و ما تستلزمه هذه العلاقة المقدسة من وجوب الإصلاح حتى بين أقل عدد منهم يحتمل أن يحدث بينهم شقاق.

**الرابع والعشرون** : استعمال لفظ << إخوة >> دون << إخوان >> : في قوله تعالى: << إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ >> [4]، و المعروف " أن لفظة أخ و إخوة لأقل العدد و إخوان للكثير" [5] و على الإعتبار يمكن القول أن العدول عن << إخوان >> إلى << إخوة >> للإشارة إلى تأكيد وجوب الإصلاح بين كل المؤمنين، مادام عددهم قليلا بهذا الشكل، حتّى لا يتسنى لأعدائهم الإيقاع بهم لقلة عددهم و هوانهم على الغير.

إلا أن هناك من ينظر إلى العبارة على أن فيها تشبيها بليغا حيث شبه المؤمنون بالإخوة من أب و أم [6]، و هذا على أساس أن <<إخوة>> موضوعة لمن تربطهم علاقة الأخوة الدموية. و << إخوان >> لمن تربطهم علاقة الأخوة الدينية، فشبه المؤمنون الإخوان بالإخوة في الود للإشارة إلى الصلة المتينة التي يجب أن تكون بينهم.

و على أية حال فمهما كان في الجملة تشبيه على أساس أن كلمة <<إخوة>> لمن يجمعهم أب واحد و أم واحدة، فإن عدد هؤلاء الإخوة مهما كان فلن يتجاوز عدد الإخوان في الدين، و عليه فإن كلمة <<إخوة>> تبقى في مدلولها أقل عددا من كلمة <<إخوان>> وقد أشرنا -في أول الكلام- إلى ما يمكن أن يستفاد من أسرار وراء استعمال هذا اللفظ الدال على التصغير.

---

(1)- ينظر : دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص: 306

(2)- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص: 307

(3)- المصدر نفسه.

(4)- الحجرات : 10.

(5)- إعراب القران : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، ج: 04، ص: 212.

(6)- ينظر التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج: 26، ي: 235.

**الخامس و العشرون:** التعبير بـ: <<الأخوين>> بدل << الطائفتين >> في قول الله تعالى : << فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ... >> [1]، و لعل سر ذلك أنه " لما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرر [أطلق على الطائفتين لفظ : الأخوين] فهو وصف جديد نشأ عن قوله : <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ>> فتعيّن إطلاقه على الطائفتين"[2]، و هذا لزيادة تقرير الأخوة وتأكيدها.

**السادس و العشرون :** استعمال لفظ << تُرْحَمُونَ >> بدل << تُفلحون >>مثلا و هذا في قوله تعالى : << وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> [3]

من خلال مقارنة بسيطة بين لفظ << تُرْحَمُونَ >> و << تفلحون >> مثلا أو غيره، و من خلال ما ترشد إليه قاعدة أن الجزاء من جنس العمل المستمدة من قوله تعالى : << هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ >> [4] يتبين لنا بوضوح تلك الدقة المتناهية التي اتسم بها أسلوب القرآن الكريم في اختيار اللفظ المناسب في المكان المناسب، فالتعبير بلفظ << تُرْحَمُونَ >> مرجعه " أن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين و شأن تعامل الإخوة الرحمة ، فيكون الجزاء عليها من جنسها " [5]، و هو المتضمن في عبارة : << لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> أي : رجاء أن يكون جزاؤكم هو الرحمة، فمتلما عملتم من أجل زرع بذور الرحمة بين الناس، فإن الراحم سوف يشملكم برداء عطفه و رحمته إذ لا ملجأ إلّا إليه.

**السابع و العشرون :** استعمال << أنفسكم >> دون غيرها في قوله الله تعالى : <<...وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ...>> [6] ، فالذي يقتضيه النظم المألوف في الكلام أن يقال : و لا تلمزوا غيركم أو بعضكم أو إخوانكم، و لكن وردت الآية بهذا اللفظ << أَنْفُسَكُمْ >> حيث " نُزّل البعض الملموز نفسا للامزه لتقرر معنى الأخوة " [7]، لأن " المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع، و لكل فرد فيه كرامته التي تمس، و هي من كرامة المجموع، و لمز أي فرد هو لمزٌ لذات النفس ".[8]

---

(1)- الحجرات : 10.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 245.

(3)- الحجرات : 10.

(4)- الرحمن : 60.

(5)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 245.

(6)-الحجرات : 11.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 248.

(8)- في ظلال القرآن . : سيد قطب، ج: 26، ص: 3344.

هذا، و يمكن أن يكون من وراء استعمال << أنفسكم >> احتمال آخر، و هو " أنه إذا عابه و لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه فيكون هو بعينه حاملا للغير على عيبه، و كأنه هو العائب نفسه، و عل يحمل قوله تعالى : << و لا تقتلوا أنفسكم >> [1] أي : أنكم إذا قتلتم نفسا قتلتم فتكونوا كـأنكم قتلتم أنفسكم ".[2]

وعلى مثل هذا يحمل قوله تعالى أيضا : << ... فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية مـن عند الله مباركة طيبة >>. [3] [4]

و هناك احتمال ثالث، " و هو أن تقول لا تعيبوا أنفسكم أي : كل واحد منكم فإنكم إن فعلتم فقـد عبتم أنفسكم، أي كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه".[5]

و هناك احتمال رابع، و هو " لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمـز نفسه "[6]، و عليه فليس من حقه إلقاء اللوم إلا على نفسه.

هذه جملة من الاحتمالات الواردة حول استعمال لفظ << أنفسكم >> و مهما اختلفـت وجهـات نظر أصحابها فإن كل واحد منها لينم عن بلاغة أسلوب القرآن الكريم في استعمال الألفـاظ و اختيـار المفردات.

**الثـامـن و العشـرون :** استعمال لفظ << اللقب >> في قوله تعالى: << و تنابزوا بالألقـاب >> [7] دون لفظ أخر، و لعل النكتة في ذلك هي " أن النبز بفتحتين مختص بلقب السوء عرفـا" [8] و" لأن لفظ اللقب في القديم كان في الذم أشهر منه في المدح " [9]، ولذلك قال شاعر:

أكنيه حين أناديه لأكرمه *** و لا ألقبه و السوأة اللقب [10]

---

(1)- النســـاء : 29.

(2)- التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 132.

(3)- النـــور : 61.

(4)- ينظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 187.

(5) التفسير الكبير : الرازي ج 26 ص 132

(6) تفسير أبي السعود ص 121

(7) الحجرات 11

(8)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج: 26، ص: 602.

(9)- روح المعني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي، ج: 26، ص: 154.

(10)- لم أقـف على نسبتـه.

**التاسع و العشرون :** استعمال << بعد >> في قوله تعالى : << ... بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ...>> [1] و مرد ذلك أنّ من معاني << بعد >> << بدل >> [2]، أي : بئس الفعل ما قمتم به من أن تستبدلوا بالإيمان لفظ الفسوق، و ذلك " كما في قولك للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة " [3]، و في التعبير القرآني تغليظ وتشديد يجعل التنابز بالألقاب فسوقا يخرج صاحبة من ربقة الإيمان[4].

**الثلاثون :** استعمال << إثم >> دون << ذنب >> أو غيره: و هذا في قوله جل علا: << ... إِنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ>> [5] و همزة << الإثم >> هنا منقلبة عن الواو ، فاللّفظ مأخوذ من الفعل : وَثَمَ، أي :أن هذه الظنون الخاطئة بما ينجر عنها من سلوكات و تصرفات فيها إيذاء للأبرياء كأنها تثم الأعمال و تكسرها فتحبط جميعها أو بعضها [6] ، فلا يبقى بحوزة هذا الآثم من الصالحات إلا القليل، أو لا يبقى معه من ذلك شيء.

**الواحد الثلاثون :** استعمال لفظ << التجسس >> دون << التحسس >> في قول الله : << ... وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا... >> [7]

مما قيل في ذلك أن معنى التحسّس هو " البحث عما يُكتَم عنك، و التجسّس طلب الأخبار و البحث عنها " [8] أي دون التكلف في البحث عن المستتر، و قد قيل أنهما بمعنى واحد، و لعل هذا ما دفع إلى اختلاف القراءات، فقد قرأ الحسن و أبو رجاء بالحاء (تحسسوا) [9].

و قد ذكر الثعالبي أنهما متقاربان في المعنى إلا أن التجسس عادة يكون في الشر، و التحسس خلاف ذلك [10] حيث استعملت اللفظة في أبواب الخير من ذلك ما ذكره الله تعالى

---

(1)- الحجرات : 11.

(2)- ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السّبع المثاني : الألوسي، ج: 26، ص: 155.

(3)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي، ج: 26، ص: 155.

(4)- ينظر المرجع نفسه.

(5)- الحجرات : 12.

(6)- ينظر :الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 21.

(7)-الحجرات : 12.

(8)- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، المجلد : 08 ، ج: 16، ص: 333.

(9)- ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 192.

(10)- ينظر : جواهر الحسان في تفسير القرآن : الثعالبي، ج: 04، ص: 191.

على لسان يعقوب عليه السلام لأبنائه: << اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ >> (1) (2).

و لعل هذا ما نميل إليه، و نرجو أن يكون هو الأقرب إلى الصواب، و هو السر الذي كان من وراء استعمال لفظ << التجسس >> دون << التحسس >> في هذا المقام الذي ينهى الله تعالى فيه عن سلوك لو تمادى فيه صاحبه لأدى به ذلك إلى ارتكاب أبشع ما يستقذر الإنسان مجرد التفكير فيه، فكيف بالإقدام عليه ! و هو أكل لحم الأخ الميت !.

**الثاني و الثلاثون :** إيثار التعبير عن << الغيبة >> بأكل اللحم: في قوله عز و جل: << وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ...>> (3)

و لعل في هذا الإستعمال ما يدل – بحق – على بشاعة المنظر و كآبة الحال مما لا يمكن أن نجده – ربما – في تعبير آخر بمثل هذه الدقة في التصوير ، و ذلك تماشيا مع سنة العرب في الكلام، حيث كانوا يعبرون بأكل لحم الميت، أو لحم غيره عموما عمّن يتحدث عن معايب إنسان في غيبته. قال الشاعر (4) :

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ *** وَ إِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا (5)

وهو يعني بهذا الكلام : إن تكلم قومي في عرضي بما يسيء إلي في غيبتي أحجمت –من جهتي– عن ردة الفعل المماثلة، بل ربما ذكرتهم بما يشرفهم و يرفع من قدرهم تكرما مني و شهامة.

**الثالث و الثلاثون :** استعمال << أحدكم >> دون << بعضكم >> أو غيرها : في قوله تعالى : << أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ ...>> (6)، و ذلك – ربما – " ليكون النفي أوضح استيعابا و شمولا ، و لذا أكده بقوله بعد : (فكرهتموه) فنسب الكراهة إلى الجميع و لم يقل : فكرهه " (7) وعليه يتبين أن الغرض من استعمال << أحد >> هو التعميم و ليس التبعيض كما هو الحال بالنسبة لكلمة << بعضكم >>.

---

(1)- يوسف : 87.

(2)- ينظر : البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 114.

(3)- الحجرات : 12.

(4)- هو محمد بن عميرة بن أبي شمر بن فرعان بن قيس بن الأسود بن عبد الله الكندي.

(5)- معجم الشعراء المخضرمين و الأمويين : د/ عزيزة فوال بابتي، دار صادر بيروت – لبنان، 1998م، ص: 473.

(6)- الحجرات : 12.

(7)- الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي، ج: 18، ص: 327.

**الرابـــع و الثلاثـــون :** استعمال لفظ << أيحب >> دون غيره كلفظ : << يتحمـــل >> مثلا أو << يطيق >> أو غيرها [1] لأن مثل هذا الشعور الذي هو الحب، لا يلتقي أبدا مع مثل هاته الصورة البشعة:صورة أكل لحم الأخ حال موته.

و لذلك فاستعمالها هنا قد يكون الهدف منه زيادة " الإشعار بتفظيع حالة ما شبه به و حالة من ارتضاه لنفسه " [2] بنسبة المحبة إلى مثل هذا العمل الفاحش.

و لذلك أكد الحقيقة المغايرة بقوله تعالى : << فَكَرِهْتُمُوهُ >> إقرارا بعدم اجتماع كل مـن ذلك الشعور النبيل، و هذا السلوك المنحط.

**الخامـــس و الثلاثـــون :** تخصيص الإفتخار بالنسب دون غيره : و ذلك ما تضمنه قولـه تعالى : << يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَـــائِلَ لِتَعَـــارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ >> [3] مع أن التفاخر قد يكون بالمال و الجاه، و قـــد يكون بالسلطة، و قد يكون بالجمال و غير ذلك.

إلا أنّ تخصيص النسب بالذكر – ربما – لأن " الأمور التي يفتخر بها فـــي الدنيـــا و إن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به، و الحُسْنُ و السِّنُّ و غير ذلك غير ثابت... و النَّسَبُ ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمـــن ليـــس لـــه فاختاره الله للذكر و أبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليُعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى" [4]

فإذا كان الإفتخار بالنسب – و هو الثابت دون كلِ ما يفتخر به – قد بطل مفعولـــه أمـــام معيار التقوى، فكيف ؟ و ماذا يقال عن غيره كالمال و الجمال؟

**الســـادس و الثلاثـــون :** النفي ب << لم >> دون << لن >> أو << لا >> و ذلك في قوله تعالى : << قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا... >> [5] و في ذلك فائدة، و هي " أن (لم) نفيٌ لما مضى، و لن نفي لما يستقبل، و المذكورون أخبروا عن أنفسهم بإيمان قد مضى كلامه كما ترى فلذلك نفـى قولهم (بلم) دون (لن) " [6]

---

(1)– و ذلك في قوله تعالى : << أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ... >> من الآية 12 من سورة الحجرات.

(2)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 255.

(3)– الحجـــرات : 13.

(4)– التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 137.

ينظر كذلك : روح البيان : البرسوي، ج: 26، ص: 91.

(5)– الحجـــرات : 14.

(6)– الفريد في إعراب القرآن المجيد : الهمذاني، المجلد: 04 ، ص : 342.

أما العدول عن النفي ب(لا) فلأنها تفيد استمرار النفي دون انقطاع [1]، و هذا خلاف ما هو كائن، إذ قد يحدث أن يدخل هؤلاء الإيمان، يبقى لِ (لا تؤمنون) المقدرة هنا موضع، و لذلك قال تعالى : << وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ >> [2]، و هذا الذي عليه مدار الحديث في النموذج السابع و الثلاثين.

**السابع و الثلاثون :** النفي ب<<لمّا>> دون <<لم>> في قوله تعالى: <<...وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ... >>[3]، و هنا لطيفة أخرى في استعمال هذه الأداة بالتحديد للدلالة "على أن النفي بها متصل بزمان التكلم و ذلك الفارق بينها و بين (لم) أختها، و هذه الدلالة على استمرار النفي إلى زمن التكلم تؤذن غالبا بأن المنفي بها متوقع الوقوع ". [4]

و عليه فالتعبير الشريف فيه دلالة "على أن بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد"[5] إيمانا صادقا.

" و لذلك لم يكن [قوله تعالى : << وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ >>] تكرارا لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله : << لَمْ تُؤْمِنُوا >> " [6]، و إنما كان لأمرين اثنين :

1- تأكيد نفي الإيمان إلى حدّ زمن التكلم لا أزيد.

2- الإشارة إلى احتمال وقوع الإيمان منهم بعد زمن التكلم هذا.

**الثامن و الثلاثون:** النفي بـ<< لا >> دون << لن >> أو غيرها : في قوله تعالى: <<... وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا...>> [7]، و هذا للدلالة على النفي الدائم و المستمر الذي لا يعرف الإنقطاع، نفي أن يُنقص الله تعالى لهؤلاء شيئا من أجر أعمالهم، و هذا لإفادة (لا) النفي لمطلق الزمن [8] ، و قد سبق الحديث عن مثل هذه الفائدة في استعمال << لا >> عندما تناولنا قوله تعالى : << ... أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ >> [9].

---

(1)- سبق و أن تحدثنا عن عمل (لا) عند تناول قوله تعالى : << لا يعقلون >> تراجع الصفحة 121 من هذه الدراسة.

(2)- الحجرات : 14.

(3)- الآية نفسها.

(4)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 265.

(5)- تفسير النسفي، ج:03، ص: 173 و 174.

(6)- الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي، ج: 18، ص: 332.

(7)- الحجرات : 14.

(8)- ينظر : أساليب النفي في القرآن : د/أحمد ماهر البقري، (كلية الآداب – جامعة المنيا) – دار المعارف ، ط: 02، 1984م، ص: 24.

(9)- الحجرات : 04.، تراجع الصفحة 121 من هذه الدراسة.

**التاسـع و الثلاثـون:** اختيار << إنما >> للحصر بدل النفي مع الإستثناء في قوله تعالى: << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ... >> [1]

و في ذلك لطيفة و فائدة أسلوبية رائعة سبق و أن تحدثنا عن مثلها عند معرض الكـلام عن قوله تعالى : << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ >> [2]، و لعل الحكمة من ذلك هي حصر المؤمنين في من توفرت فيهم الشروط الثلاثة : الإيمان، و عدم الإرتياب، و المجاهدة.

**الأربعـون :** اختيار << ثم >> دون حروف العطف كلها : في قوله تعالى : << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ >> [3].

المعروف أن لكلٍ من حروف العطف معناه الخاص، و أنه لا يجوز استعمال أحدها محل الآخر.

و لأجل أن << ثم >> يفيد التراخي فقد اخْتير دون غيره في هذا المقام، و لكن لِمَ يعطف عدم الإرتياب على الإيمان بالله و رسوله بما يفيد التراخي مع أنهما لا ينفكان عن بعضهما، و لا يصح أن يكون هناك إيمان و ارتياب معا بتاتا ؟

لا شك أن تكون هناك لفتة أسلوبية لاختيار هذا الحرف بالتحديد، فما عساها تكون ؟...

من جميل ما قيل في ذلك أن الهدف من استعمال هذا الحرف هو " إفادة نفي الشك فيما بعد عند اعتراء شبهة كأنه قيل : آمنوا ثم لم يعترهم ما يعتري الضعفاء بعد حين، و هذا لا يدل على أنهم كانوا مرتابين أو لا بل يدل على أنهم كما لم يرتابوا أو لا لم يحدث لهم ارتياب ثانيا" [4].

و في ذلك إشعار بأن " اشتراط عدم الإرتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط بل فيه و فيما يستقبل فهي كما في قوله [تعالى]:« ثُمَّ اسْتَقَامُوا >>" [5] أي ثم بقوا على حالة الإستقامة الثابتة طوال الأزمنة المتعاقبة، و ذلك حتى يبقى إيمانهم غضا جديدا عبر الأزمنة المتراخية المتطاولة. [6]

"و لو قيل : و لم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أو لا مقارنا لعدم الإرتياب

---

(1)- الحجرات : 15.

(2)- الحجرات : 10، تراجع الصفحة 129 من هذه الدراسة.

(3)- الحجرات : 15.

(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 168.

(5)- أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص: 494.

(6)- ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 23.

مع السكوت عما بعد " [1] أي : أنه قد حدث اليقين مع الإيمان في البدء حـــال الإيمـــان الأول ولكنه – ربما – زال فلم يبق إلا إيمان شكلي خال من محتوى اليقين الصادق.

و قد يكون في استعمال " (ثم) [كذلك] إشارة إلى أن إنتفاء الإرتياب في إيمانهم أهم رتبـــة من الإيمان إذ به قوام الإيمان، و هذا إيماء إلى بيان قوله: << وَ لَمَّـــا يَدْخُـــلِ الإِيمَـــانُ فِـــي قُلُوبِكُمْ >> أي: من أجل ما يخالجكم ارتياب في بعض ما آمنتم به مما أطلع الله عليه ". [2]

و في ذلك إيحاء بأن الإيمان الذي يُعتد به عند الله هو الذي لا يخالج صدورَ أصحابه أدنـــى شك أو ارتياب، و أنه لا يوسم بالمؤمن إلا مَنْ بلغ أقصى درجات اليقين.

**الواحـــد و الأربعـــون** : استعمال <<مـــا>> دون <<الذي>> في قوله تعالى: << وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ >> [3] مع أنهما – في الظاهر – بمعنـــى واحـــد، فَلِـــمَ استعمال (ما) هنا بالتحديد ؟

إن سر ذلك – و الله أعلم – يكمن في الوقوف على المعنى الدقيق لكلمة (ما) حيث أنـــها " اسم مبهم في غاية الإبهام حتى أنها تقع على كل شيء و تقع على ما ليس بشـــيء ألا تـــراك تقول أن الله يعلم ما كان و ما لم يكن ". [4]

فـــ: (ما لم يكن) غاية في الغموض و الإبهام، و حتى (ما كان) و (مـــا يكـــون) فإنـــهما يشملان من الأشياء ما لا تحده حدود، و لأجل فرط (ما) " كان في لفظها ألف آخرة لِمَـــا فـــي الألف من المد و الإتساع في هواء الفم مشاكلة لا تساع معناها في الأجناس". [5]

أما (الذي) فإنها عادة ما تدل على المفرد المذكر و قد تدل في غالب الأحيان على العـــاقل دون غيره، و لذلك أوثرت (ما) لشمولها لكل العدد و لكل النوع و لكل الجنس.

**الثانـــي و الأربعـــون** : نسبة فعل المن بالهداية إلى الله تعالى و هذا في قوله تعـــالى : << بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ >> [6] مع :

---

(1)- الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي، ج: 18، ص: 333.
(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 267 و 268.
(3)- الحجـــرات : 16.
(4)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 : ج: 01، ص: 131.
(5)- المصـــدر نفســـه.
(6)- الحجـــرات : 17.

1- أَنَّ مَنَّهُمْ قد وُجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : << يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا >>. (1)

2- و أن الله تعالى قد نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أفعال الهداية في مواطن أخرى كقوله تعالى : << وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ >>. (2)

قيل : إن الحكمة من ذلك هي الإشارة إلى ما في هذا التعبير الكريم من الرشاقة و النبل و حسن الأدب عند إرجاع الفضل – في كل الأحوال – إلى صاحبه ذي النعم و الأفضال و هو الله جل علا. (3)

أما عن المقصود بقوله تعالى : << وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ >> فذلك ما سنتطرق إليه عند الحديث عن تعدية فعل الهداية باللام في قوله تعالى: <<أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ >> و هو النموذج الثالث و الأربعون.

**الثالث و الأربعون :** تعدية فعل الهداية باللام دون غيرها : مع أنه قد ثبت في القرآن الكريم تعدية هذا الفعل بـ: <<إلى>> كما في قوله : << وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ>>، أو بنفسه كما في قوله : << اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ >> (4) و قوله أيضا : << وَ يَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا >> (5).

من خلال الوقوف على المعنى المراد من فعل الهداية حسب نوع الحرف الذي يُعدَّى به يتبين لنا الفرق بين كل هذه الإستعمالات.

فممّا قيل في ذلك أنه متى عُدِّي فعل الهداية باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، و متى عدي ب << إلى >> تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، و متى عدي بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، و هو التعريف و البيان و الإلهام. (6)

و على هذا يكون المقصود من قوله : << وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ >> أي : إنك لتعمل على إيصال الناس إلى الغاية المطلوبة و الهدف السامي المنشود، و هو الإهتداء.

---

(1)- الحجرات : 17

(2)- الشورى : 52.

(3)- ينظر : التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 144.

(4)- الفاتحة : 06.

(5)- الفتح : 02.

(6)- ينظر : بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج: 02، ص: 21 و 22.

و يكون المقصود من قوله : << اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ >> و قوله : << وَ يَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا >> هو الوصول إلى الهدف المتمثل في الإهتداء التام مع التعريف الجامع و البيان السّاطع و الإلهام اللامع.

أما عن إيثار تعدية فعل الهداية باللام في قوله : << أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ >> فإنّ المقصود به هو الإشارة إلى الإختصاص و التعيين، أي : التّخصيص بالشيء المطلوب [1]، و معناه : أنّ الله يمنّ عليهم لأنه هو من ذكر لهم حقيقة الإيمان، و بينها لهم، و هيأ لهم طريق الوصول للإهتداء، سواء أوصلوا و بلغوا درجة الهداية أم لم يبلغوا، فهذا أمر آخر. ذلك لأن الهداية لا تعني الإهتداء بالضرورة، و قد أشرنا إلى هذا في فصل : الذكر و الحذف، عند الحديث عن سر ذكر قوله : << أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ... >> بعد قوله تعالى : << ... قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا... >> [2] و في هذه الآية إشارة إلى معنى ما قلناه، بل – ربما – دليل عليه.

**الرابع و الأربعون :** استعمال صفة البصر دون غيرها من الصفات، في قوله تعالى : << ...وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ >> [3]، و ذلك –ربما– " للإحتراس من أن يُتَوَهَّمَ أن الله يعلم خفايا النفوس و ما يجول في الخواطر و لا يعلم المُشَاهَدَاتِ نظير قول كثير من الفلاسفة : إن الخالق يعلم الكليات و لا يعلم الجزئيات ". [4]

و في كلام الفلاسفة هذا من الخلط و التناقض ما يستدعي الإستغراب بحق، فكيف بمن وَسِعَ علمه كلَّ شيء أن يخفي عليه بعض من ذلك الشيء؟ !

و في ذلك الظن المُتَوَهَّم المحتمل من الحيف –أيضا– ما يدعو – بحق – إلى التعجب و الإستبعاد، فكيف بمن تعمّق علمه في خفايا النفوس و بواطن الأمور أن يغيب عن إدراكه و علمه، ما هو أبين و أوضح للعيان؟ !

و مع كل ذلك فقد كان لهذا اللّفظ موقعه الأنسب لإزالة كلّ ريب محتمل حتى و لو كان في هذا الريب من السخافة و السذاجة ما يثير سخرية السّذّج و البلهاء ...

---

(1)– ينظر : بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج: 02، ص: 21 و 22.

(2)– تراجع الصفحة: 87 من هذه الدراسة.

(3)– الحجرات : 18.

(4)– التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 271.

هذه جملة من الشواهد في سورة الحجرات عن استعمال الألفاظ و الأدوات في كـــلام الله تعالى، و كيف أنه قد وُضع كلّ لفظ في مكانه الأنسب الذي لو حذف منه ليحل غيرُه محلَه ما كـان ليؤدي ذلك إلى المعنى المراد بدقته التي تُوصِّل إليها باللّفظ المستعمل أو بالأداة المستعملة.

هذه جملة من النماذج التي تشهد – بحق – أن دارس لفظة القرآن ليمتلكه الشعور بالعجز التام عن الإتيان بمثل ما جاء به القرآن الكريم من ألفاظ ليس من حيث طبيعة اللّفظ في حدّ ذاته، و لا من حيث نوعُ الحروف، لأن القرآن الكريم كلّه عربي فصيح سواء من حيث الألفاظ أو من حيث الحروف. (1)

و لكنّ الذي نعنيه هو حسن استعمال هذه الألفاظ و الأدوات بنمط أعجز فطاحلة الشـــعر وجها بذة البيان.

و لمزيد من البيان إليك هذا المطلب و ما تضمن من نماذج تشهد بحسن استعمال الصيـــغ الصرفية في كلام الله و إيثار بعضها على الآخر في غير ما تكلف .

---

(1)- قال تعالى : << كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ >> - فصلت : 03.

## المطلب الثاني : إيثار صيغة على أخرى

من جميل ما تزينت به سورة الحجرات -أيضا- هو ذلك التنوع في استعمال الصيغ الصرفية و إيثار بعضها على الآخر في كثير من المواضع، على الرغم من التطابق الظاهري بين المعنى الذي تهدف إليه كلٌّ من الصيغتين : المستعملة و المهملة.

و من بين ما يلفت انتباه القارئ للسورة من تلك الصيغ ، استعمال صيغتي فعول و فعيل في أكثر الفواصل المختومة بأسماء الله تعالى و صفاته ، و كذلك استعمال صيغة التفعل عند الإبانة لقول الفاسق، و استعمال صيغة التفاعل عند الحديث عن النبز بخلاف ما استعمل عند الحديث عن اللمز و هي : الفعل، و غير ذلك كثير سنأتي إلى بيانه.

ومما يدخل في باب استعمال الصيغ، استعمال التعريف تارة، و التنكير تارة أخرى، فمما يجلب انتباه القارئ هو الميول إلى تعريف جملة من الألفاظ كتعريف <<الرَّاشِدُونَ>> و <<الظَّالِمُونَ>> و <<الصَّادِقُونَ>> مع أنّ كل واحد منها خبر لما قبله، و الخبر يفترض فيه التنكير، وكذلك كتعريف <<الأَعْرَابُ>> بالألف و اللام، وتعريف <<الإِيمَان>>، وغير ذلك...

و مما يلفت الإنتباه -أيضا- هو العدول عن تعريف جملة من الكلمات،و استعمال التنكير، كلفظتي << مَغْفِرَة >> و << أَجْر >> و لفظتي << فَاسِق >> و << نَبَأ >> و كلمة << قَوْمٌ>> في الموضعين، و تنكير << كَثِيرًا >> و << إِثْم >> و << شَيْئًا >>، و غير ذلك، فما الغرض من كل هذا يا ترى ؟

ذلك ما سنتناوله في هذا المطلب من خلال النماذج التالية :

**الأول :** استعمال صيغة << الإفتعال >> في الفعل << امْتَحَنَ >> بدل << محن >> و هذا في قوله تعالى : << ... أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى...>> [1] مع أن الأصل في ذلك هو الفعل : مَحَنَ، و هو مأخوذ من المحنة، و هي المشقة.

قيل: إن ذلك للدلالة على المبالغة في المحن و التمحيص لأن " الإمتحان افتعال من محنة و هو اختبار بليغ و بلاء جهيد " [2]، و في التعبير من التلويح بالثناء على هؤلاء الممتحنة قلوبهم ما لا يخفى.

كما أن في استعمال صيغة الإفتعال إشارة إلى توسيع هذه القلوب و شرحها كي تستوعب

---

(1)- الحجرات : 03.

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 14.

هذه التقوى، بناء على أن محن بمعنى أوسع، و محن الأديم محنا، أي : أوسعه. [1]

**الثـــانـــي** : تنكير لفظتي << مغفرة >> و << أجر >> في قوله تعالى : << ... لَـــهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ >> [2] ، و قد يكون في ذلك إشارة إلى التعظيم [3] ، أي : تعظيم شأن هذا الأجر و هذه المغفرة و أنه لا حد لهما خصوصا إذا عُلم أن صاحب الأمر في ذلك و المعطـــي بلا حدود هو الله جل و علا.

هذا و " في وصف أجر بعظيم [ بالتنكير أيضا ] مبالغة في عظمه فإنه مما لا عيـــن رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ". [4]

كما أن في هذا التنكير تعريضا " بعظم ما ارتكب غيرهم و استحقاقهم أضداد ما اســـتحق هؤلاء " [5]، و ذلك لتجرئهم على مناداة الرسول صلى الله عليه و سلم من وراء الحجرات كما ينادى بأصغر الناس شأنا، أو لعدم تورعهم عن رفع أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة و السلام.

**الثالـــث : استعمال المصدر الميمي << مغفرة >> دون المصدر الأصلي << غفران >>** في الآية السابقة، و يحتمل أن يكون ذلك من قبيل المبالغة و التكثير، أي : تكثير هذه المغفـــرة إلى الحد الذي لا يبلغ حصره عقل الإنسان، و هذا يرجع إلى أن الزيادة في المبنى تزيـــد فـــي المعنى كما هو معروف في علم الصرف. [6]

**الرابـــع : تنكيـــر << خيـــرا >>** : في قوله تعالى : <<وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْـــرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ...>> [7] و هذا للمبالغة في تكثـــير هـــذا الخـــير، لأن << خيـــرا >> [8] بصورتها المنكرة تفيد مطلق الخير، و كل الخير، و جميع أنواع و أبواب الخير التي علمنا منها و التي لمّا نعلم، و التي رأينا و سمعنا عنها و التي لمّا نر و لما نسمع، ذكر ابن ماجه في سننه: "حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال:

---

(1)- ينظر : الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، الجلد : 08، ج : 16، ص: 309.
(2)- الحجرات : 03.
(3)- ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 138.
ينظر كذلك : التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج:26، ص: 215.
(4)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 138.
(5)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 75.
(6)- ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص: 106.
(7)- الحجرات : 05.
(8)- على أساس أنها مقابل << الشر >> وليس على أنها اسم تفضيل.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : << يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَ لاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَ لاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ >> ". (1)

**الخامس: استعمال صيغتي <<فعول>> و <<فعيل>>** في قوله تعالى: <<...وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ>> (2)، و هذا للدلالة على المبالغة في وصفه تعالى بصفتي المغفرة و الرحمة، لِمَا تحمله تانك الصّيغتان من معنى التكثير، أي:أنه تعالى عظيم المغفرة، واسع الرحمة. (3)

**السادس : تنكير << فاسق >> و << نبأ >>** في قوله تعالى : << ... إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ... >> (4) .

من بين أهم المحطّات التي أجمع كثير من المفسرين فيها على حكم واحد حول قضية من القضايا المتعلقة بالجوانب الأسلوبية في هذه السورة هو حكمهم على تنكير هاتين اللّفظتين حيث قيل أن ذلك " شياع في الفساق و الأنباء كأنه قال : أي فاسق جاءكم بأي نبإ فتوقّفوا فيه و تطلّبوا بيان الأمر و انكشاف الحقيقة " (5) ، و هذا التعميم إنما هو لاجتماع التنكير في معرض الشرط المثبت. (6)

و مهما كان الفسق الذي اتصفوا به، و مهما كانت الأخبار التي جاؤوا بها ، فالواجب هو التوقف طويلا لتطلب البيان المطلق. (7)

كل ذلك أفادته لفظتا << فاسق >> و << نبإ >> بصورتهما المنكرتين.

**السابع : استعمال صيغة التفعل في لفظ << التبين >>** في قوله تعالى : << ... فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ >>. (8)

وفيه إشارة و دلالة على قوة الإبانة، لأن صيغة التفعل تفيد التكلف و المبالغة في الفعل (9)

---

(1)- ج: 02، باب : 39، ص : 1447.

(2)- الحجـــرات : 05.

(3)- ينظر : صفوة التفاسير : الصابوني، المجلد : 03، ص: 237.

(4)- الحجـــرات : 06.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 15.

(6)- ينظر التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 119.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 231.

(8)- الحجـــرات : 06.

(9)- ينظر : التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 231.

و هذا نظير قول القائل لمن تنزل به نائبة من نوائب الدهر، << تصبَّر >> بدل << إصبر >>، لما في صيغة التفعل من معنى التكلف لتأكيد معنى الصبر و المبالغة في الأمر بالعمل به.

و لعل في استعمال هذه الصيغة أمريْنِ تهدف إليهما :

1- تأكيد الأمر بالتحقق من أقوال هؤلاء الناس قبل اتخاذ أي إجراء و العمل بأي قرار.

2- اجتناب العجلة و السطحية عند الحكم على الأمور، لأن ذلك كثيرا ما يؤدي إلى أكل أموال الغير بالباطل، و ربما إلى هلاكهم.

**الثامن : تنكير << قوم >>** في قول الله تعالى : << ... أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ >> [1].

و ذلك -ربما- لإفادة العموم و الإطلاق، و ليس المقصود هم -فقط- بنو المصطلق الذين كاد المسلمون أن يصيبوهم – عن جهالة – بإتباعهم للأمر الكاذب، و هذا لأن العبرة – في أسباب نزول القرآن الكريم – بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب [2]، و عليه يكون الهدف من الآية إذن هذان الأمران :

1- الدعوة إلى الإحتراز من اتباع أي خبر جاء به أي فاسق.

2- الحذر من إلحاق الضرر و الأذى بأي قوم كانوا، و ليس بقوم معينين.

وربما لأجل هذا وردت اللّفظة بصيغتها المنكرة بدل التعريف الموحي بالحقيقة و الجنس و الماهية.

**التاسع : تعريف << الأمر >>** في قوله تعالى : << ... لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ >> [3]، و هو تعريف الجنس ليشمل جميع الأمور المتعلقة بالتشريع و الآداب و العقائد "ولذلك جيء معه بلفظ <<كثير من>>" [4]، و المراد من استعمال التعريف هنا ما يلي :

1- النهي عن المبادرة بإبداء الرأي قبل الإصغاء إلى ما يقول به صلى الله عليه وسلم.

2- التحذير من محاولة استتباع رأي الرسول عليه الصلاة و السلام لرأيهم، في جميع الأحوال، و عند كل الطارئات، لأن ذلك مجلبة للعنت لهؤلاء من حيث لا يشعرون.

---

(1)- الحجرات : 06.

(2)- ينظر : الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ج: 01، ص : 85.

(3)- الحجرات : 07.

(4)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 235.

**العـــاشـــر : تعريف << الراشدون >>** في قوله تعالى: <<... أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >>[1] مع أنها خبر و حق الخبر التنكير.

قيل : إن فائدة ذلك هي الحصر و القصر، أي : أن المقصود من هذا التعريـــف أنـــه لا راشد إلا هؤلاء و أن هؤلاء ما هم إلا راشدون.

و معنى ذلك أن في هذا التعريف إثبات الرشد لهم فقط دون غيرهم، و توكيدا لذلك، [2].

**الحـــادي عشـــر : استعمال صيغة المبالغة << فعيل >>** في الفاصلة <<...وَ اللَّهُ عَلِيـــمٌ حَكِيمٌ>> [3] و كذلك وردت أسماء الله تبارك و تعالى في أغلب آيات القرآن الكريم للدلالة علـى كثرة الإتصاف بهاتين الصفتين الجليلتين.

و قريبا من هذا ما ذكره الصابوني عن فاصلة << وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيـــمٌ >> مـــن الآيـــة الخامسة من السورة موضوع البحث. [4]

**الثـــاني عشـــر : تنكير << طائفتان >>** في قوله تعالى : << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا... >> [5]، و هذا لقصد التعميم، لأن << طَائِفَتَان >> نكـــرة مســـبوقة بـــ << إن >> الشرطية، و النكرة في سياق الشرط تفيد العموم [6] و عليه فقد يكون المقصـــود من الآية الكريمة أن أيةَ طائفة تقاتلت مع أيةِ طائفة أخرى، أو بدت منهما بوادر الفتنة و النزاع فالواجب على المؤمنين الإسراع إلى إصلاح ما بينهما قبل أن تقع الفتنة بينهما، و إذا وقعـــت، فقبل أن تشتد بينهما نيران هذه الفتنة.

**الثالـــث عشـــر : بناء فعل الرحمة للمجهول** في قوله تعالى : <<...وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُـــمْ تُرْحَمُونَ>>[7] مع أن الفاعل الأول و الآخر لفعل الرحمة هو الله تبارك و تعالى، فَلِمَ العـــدول عن ذكر الفاعل إذن ؟

ربما يكون ذلك من قبيل أن الغرض من الكلام منصب حول الفعل و المفعول لا غـــير، و هي سنة العرب في التحدث، حيث أنهم إذا أرادوا ذِكْرَ المفعول لا غير لم يتعرضوا للفاعـــل،

---

(1)- الحجـــرات : 07.

(2)- ينظر : دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص : 178.

(3)- الحجـــرات : 08.

(4)- تراجع الصفحة: 144 من هذه الدراسة.

(5)- الحجـــرات : 09.

(6)- ينظر : بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، الجلد : 02.، ج: 04.، ص: 02.

(7)- الحجـــرات : 10.

و إذا أرادوا ذكر الفعل و الفاعل لم يتعرضوا للمفعول حتى و لو كان متعديا [1]، و هكذا...

و أما عن بناء الفعل المجهول في قوله تعالى : << لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> فربما يكون الغرض منه ما يلي :

1- ذكر نوع الجزاء الذي يستحقه العاملون على الإصلاح بين المتخاصمين من المسلمين، و هذا الجزاء هو الرحمة.

2- تأكيد تخصيص هذا الجزاء لهؤلاء المخاطبين فقط لا غير.

**الرابع عشر: تنكير <<قوم>> و <<نساء>>** في قول الله جل و علا <<... لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ...>> [2]

قيل : إن الفائدة من هذا التنكير يُحتمل أن تكون :

1- إما للبعضية.

2- أو لإفادة الشياع. [3]

و معنى ذلك : إما أن يكون المقصود من هذا التنكير هو القصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض، و إما أن يكون المقصود هو التعميم. [4]

و تفصيل ذلك أن المراد من هذا التنكير هو " لا يسخر بعض المؤمنين و المؤمنات من بعض، و [إما] أن يقصد إفادة الشياع و أن تصير كل جماعة منه منهية عن السخرية " [5]

إلا أن هناك مَنْ بَيَّنَ أن الغرض من ذلك هو -فقط- " لإفادة الشياع، لئلا يُتَوَهَّم نهي قوم معينين سخروا من قوم معينين " [6]، أي : " للإشعار بأن هذا النهي موجه إلى جميع الرجال و النساء، لأن هذه السخرية منهي عنها بالنسبة للجميع " [7] ، و لعل هذا هو الأرجح و الأقرب إلى منطق التشريع الإسلامي، باعتبار أن العبرة – في أسباب نزول القرآن الكريم – بعموم

---

(1)- ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص: 75 و 76.

(2)- الحجرات : 11.

(3)- ينظر : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 88.

(4)- ينظر : تفسير أبي السعود : ج: 08، ص: 121.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 19.
ينظر كذلك : تفسير النسفي : ج: 03، ص: 170

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 247.

(7)- التفسير الوسيط : محمد السيد طنطاوي، ج: 26، ص: 187.

اللفــظ لا بخصوص السبب. (1)

**الخامــس عشــر: استعمال صيغة << الفعل >> في اللمز و << التفاعل >> في التنابز** في قوله تعالى : << ... وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ...>> (2) علمــا أن صيغة << التفاعل >> تفيد المشاركة بخلاف صيغة << الفعل >> التي لا تفيد ذلك، إذن فما السر في هذا الإستعمال يا ترى ؟

للإجابة على ذلك لا بد من الوقوف -أولا- على معنى كلّ من اللفظتيــن، فــاللمز هو التعايب بالقول أو بالإشارة باليد أو بالعين، و التنابز هو التعاير بما يكره من الألقاب.

وعلى هذا الأساس يتبين لنا أن الغرض من استعمال الصيغة المفيدة لوقوع الفعــل من طرف واحد في << اللّمز >>، و استعمال الصيغة المفيدة لوقوع الفعــل مــن طرفيــن في << التنابز >> هو " أن النبز لا يُعْجِز الإنسان عن جوابه غالبا فمن ينبز غيره بالحمــار كان لذلك الغير أن ينبزه بالثور مثلا، و لا كذلك اللمز فإن الملموز كثيرا ما يغفل عن عيب اللامــز فلا يحضره في الجواب شيء فيقع اللمز من جانب واحد فقط " (3)

إلا أن هناك من يرى أن سر استعمال صيغة الفعل في << اللمز >> مرده إلى أن هــذا الفعل كان قليل الحصول بين المسلمين آنذاك، و لكنه كان كثيرا في الجاهلية في قبائل كثيرة. (4)

و لعل من الأسرار الأسلوبية – أيضا – في اختيار صيغة << التفاعل >> في النبز بدل: و لا ينبز بعضكم بعضا لغرض الإيجاز الواضح في الصياغة الأولى.

**الســادس عشــر: تعريف الألقاب و الإسم و الفسوق و الإيمان فــي قولــه تعــالى** : <<... وَ لَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْــدَ الإِيمَــانِ...>> (5) حيــث قــد عُرِّفَــت هذه الألفاظ " باللام الجنسية لتدل على الماهية و الحقيقة التي لا يختلف اثنان فيها ". (6)

---

(1)- ينظر : الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ج: 01، ص : 85.

(3)- الحجــرات : 11.

(4)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 89.

ينظر كذلك : التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص: 133.

(4)- ينظر : التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 249.

(5)- الحجــرات : 11.

(6)- التعبير الفني في القرآن : بكري شيخ أمين، ص: 302.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و عليه يكون المراد من الألقاب -مثلا- تلك التي قد تم استعمالها في السوء عند التعـــابر و التشاتم، و يكون المراد من الإسم الفسوق هو ذاك الذي عهد أنه يخرج صاحبه أو قائله مـــن ربقة الإيمان، و يكون المراد من هذا الإيمان هو الإيمان المعهود الذي قـــامت بـــه الســـماوات و الأرض و من أجله ابتعث الله جميع أنبيائه و رسله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

**السابـــع عشـــر : تعريف << الظالمون >> في قوله تعالى :** << ... وَ مَنْ لَّـــمْ يَتُـــبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ >> [1] مع أن الكلمة خبر، و من حق الخبر التنكير.

ربما يكون ذلك من قبيل << أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >> [2] فيكون الغرض هـــو الحصـــر و القصر، أي : أنه لا ظالم إلا هؤلاء، و أن ما هؤلاء إلاّ ظالمون، و هذا مـــا أفـــاده ضمـــير الفصل <<هم>> بين عنصري الجملة الإسمية. [3]

**الثامـــن عشـــر : تنكير << كثيرا >> في قوله جل و علا :** << يَا أَيُّهَا الَّذِيـــنَ آمَنُـــوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ...>> [4].

ورد عند كثير من المفسرين أن النكتة في هذا التنكير هي إفادة " معنى البعضية و أن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبين لذلك و لا تعيين لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر و تأمل و تمييز بين حقه و باطله بأمارة بينة مع استشعار للتقوى و الحذر، و لو عرف لكـــان الأمر باجتناب الظن منوطا بما يكثر منه دون ما يقل و وجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنبا و ما اتصف منه بالقلة مرخصا في تظننه ". [5]

و لزيادة التوضيح فقد ذكر -أيضا- أن الغرض من الإبـــهام هـــو " لإيجـــاب الإحتيـــاط و التأمل في كل ظَنٍّ ظَنَّ حتى يعلم أنه من أي قبيل، و توضيح المقام أن كثيرا لمّا بين بقوله من الظن كان عبارة عن الظن فكان المأمور باجتنابه بعض الظن إلا أنه علق الإجتناب بقوله كثيرا لبيان أنه كثير في نفسه، و لا بد لنا من الفرق بين تعريف الظن الكثير و تنكيره، فلـــو عـــرف و قيل اجتنبوا الظن الكثير يكون التعريف للإشارة إلى ما يعرف المخاطب بأنه ظن كثير غـــير قليل، و لو نكر يكون تنكيره للإفراد و البعضية و يكون المأمور باجتنابه بعض أفـــراد الظـــن الموصوف بالكثرة من غير تعيينه أي:بَعْضٌ هو، و في التكليف على هذا الوجه فائـــدة جليلـــة

---

(1)- الحجـــرات : 11.

(2)- تراجع الصفحة :146 من هذه الدراسة.

(3)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص: 178.

(4)- الحجـــرات : 12.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 20.

و هي أن يحتاط المكلف و لا يجترئ على ظن ما حتى يتبين عنده أنه مما يصح اتباعه و لا يجب الإجتناب عنه، و لو عرف لكان المعنى اجتنبوا حقيقة الظن الموصوف بالكثرة أو جميع أفراده لا ما قل منه، و تحريم الظن المعرف تعريف الجنس و الإستغراق لا يؤدي إلى احتياط المكلف لكون المحرم معينا فيجتنب عنه و لا يجتنب عن غيره و هو الظن القليل سواء كان ظن سوء و ظن صدق، و من المعلوم أن هذا المعنى غير مراد بخلاف ما لو نكر الظن الموصوف بالكثرة فإن المحرم حينئذ اتباع الفرد المبهم من أفراد تلك الحقيقة و تحريمه يؤدي إلى احتياط المكلف إلى أن يتبين عنده أن ما يخطر بباله من الظن من أي نوع من أنواع الظن ". (1)

و على أساس هذا التوضيح، و بالإضافة إلى هذا البيان فقد ذكر -أيضا- أن من أسرار هذا التنكير الإشارة إلى أن من الظنون ما هو " واجب الإتباع كالإجتهاد في الأحكام العملية، و حسن الظن بالله، و بعضه حرام كالظن في الإلهيات و النبوات،... و بعضه مباح كالظن في الأمور المعاشية " (2) و ما يتعلق بظروف الحياة الخاصة و المتباينة، و ما أكثرها...

و معنى أن من الظنون ما هو واجب الإتباع كالإجتهاد في الأحكام العملية أن هناك احتمالات و تنبؤات يفترضها العلماء و المجتهدون لحالات قد تحدث في حياة الناس، فيضعون لها الحلول و النتائج المسبقةو هو ما يسمى بباب الإجتهاد في الفقه الإسلامي.

و أما عن حسن الظن بالله فمن البديهي المعلوم أن سلامة العقيدة الإسلامية لن تكون إلا بوجود هذا الركن الأساسي، لأن من الخلل العقدي سوء الظن بالله إن لم نقل أنه كفر.

أما معنى كلامنا أن من الظنون ما هو حرام كالظن في الإلهيات و النبوات، فهذه جوانب تنطوي تحت لواء العقيدة الصحيحة للمسلم و أنه لا يجوز استعمال الخيال، أو ترك المجال للعقل يفكر في نطاق هذه الدائرة التي فصل فيها الكلام. فقد فصل الوحي الكريم في هذه الأمور و رفعت الأقلام و جفت الصحف، و ما بقي للعقل البشري بعد ذلك أن يجتهد في هذه الأمور.

و أما عن معنى أن من الظنون ما هو مباح كالظن في الأمور المعاشية أي : إفساح المجال للعقل أن يفترض و يضع التنبؤات و الإحتمالات الممكنة لوقوع أحداث معينة فيضع لها الوسائل الوقائية قبل الوقوع، أو العلاجية بعد الحدوث، سواء تعلقت تلك الأحداث بأمور الحياة

---

(1)- روح البيان : البرسوي، ج: 26، ص: 84.
ينظر كذلك : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 90.
(2)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج:26، ص: 247.
ينظر كذلك : تفسير أبي السعود : ج: 08، ص: 122.

السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، و غيرها.

**التاسع عشر : استعمال صيغة << التفعل >> في فعل << التجسس >>** في قوله تعالى : << ... وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضًا... >> [1] علما أن << التجسس >> تفعل من << الجس >> و قد استعملت صيغة << التفعل >> هنا لِمَا فيها " من معنى الطلب فإن جس الخبر طلبه و التفحص عنه، فإذا نقل إلى باب، التفعل يحدث معنى التكلف منضما إلى ما فيه من معنى الطلب، يقال : جسست الأخبار أي : تفحصت عنها، و إذا قيل تجسستها يراد معنى التكليف كالتلمس فإنه تفعل من اللمس و هو المس باليد لتعرف حال الشيء ". [2]

و عليه فاستعمال << التفعل >> -إذن- للمبالغة في تطلب الأخبار [3]، و يكون المقصود : لا تتطلبوا البحث عن العورات و المعايب [4]، و لا تكلفوا أنفسكم مشقة ذلك لأنه مما يحط من قيمة الفرد، و إذا كان و لا بد من الجهد و التكلف فمن الحكمة أن يكون ذلك في سبيل ما يعود على الأفراد بالخير و الطمأنينة، و على الجميع بالوحدة، لا بالتشتت و الإفتراق.

**العشرون : تعريف << بعض >> بإضافتها إلى << كم >>** في قوله تعالى : << وَ لَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضًا >> [5] فكأن الله تعالى يبين أن من سولت له نفسه – من المؤمنين – اغتياب أخيه، فكأنه يغتاب نفسه، و يمزق عرضه بنفسه، و أنه هو وحده من يتأذى و يصاب بسيء الأثر الناجم عن ذلك. [6]

و ربما ما يؤكد هذا المعنى هو قوله تعالى: << أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَّاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا... >> [7] حيث :

1- أضيف << أحد >> إلى << كم >> من جهة.

2- و جعل اللحم المأكول لحم الأخ من جهة أخرى.

و أي تصوير أروع من هذا التصوير ؟ و أي تهجين أبشع من هذا التهجين ؟

---

(1)- الحجرات : 12.

(2)- روح البيان : البرسوي، ج: 26، ص: 86.

ينظر كذلك : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 21.

(3)- ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 157.

(4)- ينظر تفسير النسفي : ج: 03، ص : 172.

(5)- الحجرات : 12.

(6)- ينظر : التعبير الفني في القرآن : بكري شيخ أمين، ص: 302.

(7)- الحجرات : 12.

**الواحـــد و العشـــرون : استعمال صيغتي << فعال >> و << فعيل >>** في قوله تعالى : << ... إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ >> [1] و هذا للمبالغة و التكثير، و الإشارة إلى أن الله كثير التوبـــة على عباده المتقين، مبالغ في شمله لهم برداء رحمته التي لا تُحد، إن هم تابوا إليـــه و اتقـــوه و أطاعوا أوامره و اجتنبوا نواهيه.

**الثانـــي و العشـــرون : تنكيـــر <<ذكر>> و <<أنثى>> و<<شعوبا>> و <<قبـــائل>>** في قوله تعالى : << ... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَ أُنثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُـــعُوبًا وَ قَبَـــائِلَ لِتَعَارَفُوا ...>> [2] ، و قبل هذه الألفاظ نكرت أيضا <<إثم>> و <<بعض >> في قوله تعالى : << ... إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا... >> [3] حيث قد أوحـــى تنكير هذه الكلمات بالجنس أولا، و بالمعنى الدال على الكثرة ثانيا، و بالتعميم المطلق ثالثا. [4]

**الثالـــث و العشرون : استعمال صيغة التفضيل :** في قوله تعالى: << ... إِنَّ أَكْرَمَكُـــمْ عِندَ اللَّهِ ...>>[5] و لِمَ لَمْ يُقَلْ -مثلا- إن الكريم عند الله هو الأتقى و قيل : إن أكرمكم ...؟

قيل أن السر في ذلك هو الدلالة على أنه " لا انتفاء أن تكون للناس مكارم أخـــرى فـــي المرتبة الثانية بعد التقوى مما من شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حســـن التربيـــة و نقاء النسب و العراقة في العلم .... " [6]

و معنى هذا أنه لا مانع من أن تكون للناس صفات أخرى يحمدون عليها تكون في الدرجة الموالية لدرجة الورع و التقوى، كما هو الحال بالنسبة لحسن السلوك و التعامل مـــع النـــاس، أو كالمواهب الربانية الأخرى التي يتفضل الله بها على بعض من عباده، فإن صاحبها قد يطلـق عليه وصف << الكريم>>، لكن يبقى الأكرم عند الله و الأفضل هو الأتقى من هؤلاء جميعا.

**الرابـــع و العشـــرون : استعمال صيغة <<فعيل>>** في قوله تعالى : << إِنَّ اللَّهَ عَلِيـــمٌ خَبِيرٌ >>[7] للمبالغة -كذلك- و التنبيه إلى أن علم الله واسع لا تحده حدود، وأنه الخبير بكل دقائق

---

(1)- الحجـــرات : 12.

(2)- الحجـــرات : 13.

(3)- الحجـــرات : 12.

(4)- ينظر : التعبير الفني في القرآن : بكري شيخ أمين، ص: 302.

(5)- الحجـــرات : 13.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 262.

(7)- الحجـــرات : 13.

الأمور، ما تعلق منها بالأشياء، أو ما تعلق منها بالمشاعر، أو ما تعلق منها بالمقاييس و موازين التفضيل.

**الخـامـس و العشـرون : تعريف << الأعراب >>** في قوله تعـالى : << ...قَـالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ...>> [1] و هو " تعريف العهد لأعراب معينين و هم بنو أسد فليس هذا الحكم الذي في الآية حاقا على جميع سكان البوادي و لا قال هذا القولَ غيرُ بني أسـد."[2]، ذلك لأن من الأعراب من تغلغل الإيمان في قلوبهم، و منهم من كانوا –و لا يزالون– أشد كفرا و نفاقا، و منهم، و منهم ...[3]

**السـادس و العشـرون : تنكير << شيئا >>** في قوله تعالى : << ... وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا... >> [4] و هذا – ربما – لإفادة العموم، لأن << شيئا >> نكرة، و النكرة في سياق النفي تفيد العموم، كما في قوله تعالى: <<وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا>>. [5] [6]

و لعل النكتة في ذلك هي أن الله تبارك و تعالى تنزه و ترفع على أن ينقص مـن أجـر أعمال عباده المخلصين شيئا و هم يطيعونه و يطيعون أوامر نبيه صلى الله عليه و سلم، حتـى و لو كان هذا الشيء يعادل مثقال حبة من خردل.

**السابـع و العشـرون : استعمال << فعول >> و << فعيل >>** فـي قولـه تعـالى : << ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ >> [7] لأنهما – كما سبق الذكر – [8] تفيدان المبالغة، أي أنه تعالى عظيم المغفرة، واسع الرحمة [9].

---

(1)- الحجـرات : 14.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 264.

(3)- لأن من الأعراب من اكتُفِيَ بمثل ما ورد في الحجرات من توبيخ لهم، و منهم من قال الله فيهم << الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا.. >> التوبة، 97. و منهم من صدقوا في إيمانهم فوصفهم الله بقوله : << ... وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ >>. التوبة : 99.

(4)- الحجـرات : 14.

(5)- الكهـف : 49.

(6)- ينظر : بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 02.، ج: 04.، ص: 02.

(7)- الحجـرات : 14.

(8)- عند الحديث عن فاصلة الآية الخامسة من سورة الحجرات، تراجع الصفحة144من هذه الدراسة.

(9)- ينظر : صفوة التفاسير : الصابوني، المجلد : 03، ص: 237.

و الواقع أن هذه المبالغة التي تفيدها << فعول >> و << فعيل >> ليست مختصة بـ << غفور >> و << رحيم >> فقط، بل بأكثر أسماء الله تبارك و تعالى، الوارد منها في الحجرات، أو غير الوارد ك : << سميع >> و << عليم >> و << ودود >> و <<رؤوف >> و << كريم >> و << حكيم >> و << حليم >> و غير هذه الأسماء.

**الثامن و العشرون: استعمال صيغة المطاوعة في << يرتابوا >>** في قوله تعالى: << إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...>> [1]، لأن << الإرتياب >> مطاوع << رابه >> و رابه : أوقعه في الشك...

و عليه يكون المراد من استعمال المطاوعة في هذا الفعل هو الإشارة إلى أن هناك من يعمل على تشكيك المسلمين في دينهم [2]، و رميه بمختلف أنواع التّهم و الأباطيل التي بوأه الله منها بقوله : << إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ >> [3]، و قوله كذلك : << الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا >> [4]

و لا ريب، فما برحت، و مازالت وسائل النشر و الإعلام بمختلف مستوياتها، و في مختلف الدول المعادية للإسلام تعمل جاهدة بكل وسعها من أجل التشكيك في مصداقية هذا الدين و صلاحيته لكل زمان و مكان، ولذلك ما تزال الحروب قائمة بين الحق و الباطل إلى أن تقوم الساعة، و تلك سنة الحياة.

**التاسع و العشرون: تعريف الصادقون:** في قوله تعالى: <<...أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ>>[5] مع أن اللفظ خبر، و الخبر من حقّه التنكير و قد كان الأظهر أن يقال : أولئك صادقون، فَلِمَ التعريف إذن ؟.

ربما يكون هذا نظير ما قيل في : << أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ >> [6] و << أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ >> [7] فيكون الغرض من هذا التعريف هو إفادة الحصر و القصر [8]، أي :

---

(1)- الحجرات : 15.
(2)- ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 23.
(3)- الحجر : 09.
(4)- المائدة : 03.
(5)- الحجرات : 15.
(6)- الحجرات 07.
(7)- الحجرات : 11.
(8)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص: 178.

المبالغة في نسبة الصدق إلى هؤلاء و حصره فيهم حتى لكأنه لا صادق إلا هم، و ما حقيقتهم إلا إنهم لصادقون، و هذا ما يؤكده وجود ضمير الفصل << هم >> بين عنصري الجملة الإسمية.

أما عن الفائدة من هذا الحصر فربما تكون الترغيب في الإتصاف بخصال هؤلاء الصادقين، و الدعوة إلى حسن اقتفاء أثرهم، فضلا عن حسن الثناء عليهم و الإشادة بمكانتهم.

**الثلاثون: استعمال صيغة << التفعيل >> في << تُعَلِّمُونَ >>** و هذا في قول الله تعالى: << ... قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ... >> [1] علما أن " التعليم ههنا بمعنى الإعلام، و لهذا أدخلت الباء في (بدينكم) أي : أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا " [2] فما سر استعمال << التعليم >> إذن ؟

قيل : إن مرد ذلك لكون هؤلاء الأعراب قد " تكلفوا و تعسفوا في الإستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه و سلم الذي أبلغهم أن الله نفى عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه تَدِل إلى محاولة إقناع الله بما يعلم خلافه ". [3]

و لذلك أوثرت صيغة << التفعيل >> -ربما- لدلالتها الصريحة على معنى التكلف و التعسف، و هذا نظير ما في << الإخراج >> و << التخريج >>، فالذي يُخَرِّجُ الشيء يتكلف و يتحمل من أمر هذا التخريج ما لا يتحمله و لا يتكلفه من يُخْرِجُ ذاك الشيء.

و أما عن إيثار صيغة << التفعيل >> في الآية، فقد قيل كذلك أن الغرض منصب حول توبيخ هؤلاء الأعراب و تشنيعهم [4] لجرأتهم على هذا التكلف و التبجح في محاولتهم إقناع الله تعالى بخلاف ما يعلم من حقيقتهم.

**الواحد و الثلاثون : تعريف << إسلام >> بإضافتها إلى << كم >>** في قوله تعالى : << ... قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ... >> [5]، دون جملة << لا تمنوا علي الإسلام >> لأنهم - حسب سياق الكلام - لم يبلغوا بعدُ درجة الإسلام المعتد به، لذلك لم يعرف << الإسلام >> بالألف و اللام الدّالتين على الحقيقة و الماهية، بل عرف بإضافته " إلى ضميرهم لأنهم أتوا بما يسمى إسلاما [و لكنه في حقيقة الأمر ليس إسلاما له اعتبار عند الله تعالى] لقوله :

---

(1)- الحجرات : 16.

(2)- فتح البيان في مقاصد القرآن : البخاري، ج: 13، ص: 156.

(3)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 268.

(4)- ينظر : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 96.

(5)- الحجرات : 17.

<< وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا>> [1] " [2] ولم يقل << ولكن أسلمتم >> لعدم الإعتداد بما جاؤوا به.

أما لفظ <<الإيمان>> فلم يضف إليهم، بل لم ينسب إلى أية جهة من الجهات، و إليك بيان ذلك.

**الثاني و الثلاثون : تعريف << الإيمان >> بلام الجنس** : في قوله تعالى : << ... بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ >> [3]، فلم ينسب الإيمان هنا إلى هؤلاء الأعراب و لا إلى المخلصين من أصحاب الرسول صلى الله عليه و سلم، و لا إلى أية جهة من الجهات، و هذا للدلالة على أنه حقيقة قائمة بذاتها [4] يُنسَب إليها من تعلق بها، و لا تُنْسَب هي إلى أي شخص أو هيئة أو جهة من الجهات.

**الثالث و الثلاثون : استعمال صيغة << فعيل >>** في قوله تعالى : << ...وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ >> [5]، لما تدل عليه هذه الصيغة من المبالغة في نسبة صفة البصر لله تعالى، و أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء.

أما عن الفوائد المرجوة من ذلك فقد يمكن إجمالها في النقاط التالية :

1- التنبيه إلى أن التكلف لا يُجدي نفعا أمام الله تعالى فهو علّام الغيوب، و المطّلع على كل صغيرة و كبيرة، ما ظهر منها و ما بطن.

2- التحذير من الإمتنان على الرّسول صلى الله عليه و سلم بأي شيء ، لأن صاحب المنّ الأول و الآخر هو الله تعالى فهو الهادي إلى الصّراط المستقيم.

3- التحذير من مخالفة كل ما أمر الله به أو نهي عنه في هذه السورة الكريمة، و إذا شئت فقل : التحذير من معصية الخالق في ما أمر به أو نهى عنه في جميع آيات القرآن، لأنه المُطّلِع على كل شيء.

---

(1)- الحجرات : 14.

(2)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 270.

(3)- الحجرات : 17.

(4)- ينظر : التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور ، ج:26، ص: 270.

(5)- الحجرات : 18.

بهذا النموذج نطوي صفحة الحديث عن استعمال الألفاظ و إيثار صيغ منها على أخرى، و تعريف بعض منها و تنكير بعض، و لا شك أنك قد استفدت من ذلك ، و زالت لديك كثير من الأوهام حول الفهم السليم للغرض من التعبير القرآني.

لا شك أنه – بعد هذا البيان – قد اتضحت لديك الحكمة أو بعضٌ من هذه الحكمة في استعمال صيغة دون أخرى، و تعريف لفظة و تنكير أخرى.

لا ريب أنه قد زالت من الأذهان – بعد هذا العرض – فكرة التسوية بين صيغة و صيغة صرفية أخرى، أو بين تعريف المفردة و تنكيرها.

من خلال هذه النماذج يمكن القول أنه ما من صيغة مستعملة هنا إلا لغاية عملية تشريعية خلقية، ربما لو غُيِّرت بصيغة أخرى لا نحرف الخط عن هذه الغاية. (1)

و أنه ما من لفظة معرفة أو منكرة إلا لهدف عملي تشريعي خلقي، لو استُبدل التعريف بالتنكير، أو التنكير بالتعريف لأدّى ذلك إلى التحريف و الإبتداع في كلام الله تعالى. (2)

---

(1)- ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص : 106.

(2)- ينظر : الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ج: 02، ص : 296.

# المبحث الثاني

## الدقـــة في استعمـــال الزمـــن

إستعمـــال الماضـــي دون المضـــارع.

إستعمـــال المضـــارع دون الماضـــي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المتأمل في آيات السورة قد لا يشعر بالإستغراب حينما يقف على جملة من استعمالات الزمن، كاستعمال الماضي -مثلا- في قوله تعالى : <<...أُوْلَئِكَ الَذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَقْوَى...>>[1] لأن فعل الإمتحان قد تم وانتهى وما غضُّ الأصوات عند الرسول صلى الله عليه وسلم إلا نتيجة وثمرة لذلك الإمتحان، وكذلك في قوله: <<...إِنَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ...>>[2] لأن كلاً من فعل الخلق وفعل الجعل قد وقع سالفا وانتهى أمره.

و كاستعمال المضارع – مثلا – في قوله تعالى : << ... وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ >> [3] لأن الجملة حال من الضمير (كم) في جملة << أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ>> [4]، و من حق جملة الحال أن تكون من زمن جملة صاحب الحال.

و كاستعمال الأمر في أغلب آيات السورة كقوله تعالى : << ... وَ اتَقُوا اللهَ >> [5] و قوله كذلك : << ... فَتَبَيَنُوا... >> [6] و قوله أيضا : << فَأَصْلِحُوا...>>. [7]

إلا أن الذي يثير نوعا من التساؤل هو أن تجد الماضي في موضع المضارع كقوله تعالى: << ... وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا... >> [8]، و قوله : << فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى >> [9]، أو أن تجد المضارع في موضع الماضي كقوله تعالى : << إِنَّ الَذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ... >> [10]، و قوله أيضا : << إِنَّ الَذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ >> [11] مع أن كلا من فعل الغض، و فعل المناداة قد تم و انتهى، و أن كلا من فعل الإقتتال و فعل البغي فعل شرط، و من حق فعل الشرط أن يكون مضارعا، فما سرّ كلّ هذا التّفنن ؟

ذلك ما سنتعرف عليه من خلال النماذج الواردة في هذين المطلبين.

---

(1)- الحجرات : 03.

(2)- الحجرات : 13.

(3)- الحجرات : 02.

(4)- الحجرات : 02.

(5)- الحجرات : 01.

(6)- الحجرات : 06.

(7)- الحجرات : 09.

(8)- الحجرات : 09.

(9)- الحجرات : 09.

(10)- الحجرات : 03.

(11)- الحجرات : 04.

**المطلـــب الأول : إستعمـــال الماضي دون المضـــارع :**

لقد عجت سورة الحجرات باستعمال الماضي، لكن الذي يأخذ العقل و يثير الرغبـــة فـــي الكشف عن أسراره، هو أن يُستعمل الماضي في موضع المضارع ، فما عساه يكون الغـــرض من ذلك يا ترى ؟ إليك بيانه من خلال هذه النماذج.

**الأول :** في قوله تعالى : << يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا >> [1]،علـــى الرغم من أن المضارع هو الأليق بالشرط بعد حرف << إنْ >> و كان من المنتظر أن يقال : << إن يجئكم >> أو << إن يأتكم فاسق >> فما عساه يكون السر في استعمال الماضي إذن ؟

من خلال ما هو معروف عن المضارع أنه يفيد الإستقبال بعد حرف الشرط، و من خلال ما هو معروف أنّ على المسلمين أن يتحلّوا باليقظة و الحذر من أخبار غير العـــدول حتـــى لا ينالوا من الأبرياء و لا يُصيبوا منهم، و حتى و إن وقع ذلك فلا يكون إلا غرارا.

من خلال هذا يتبين –ربما– سر استعمال الماضي في هذه العبارة دون المضارع، حتى لا ينبئ استعمال المضارع بالإستمرار و الدوام، أي : حتى لا يبقى للفاسق طمع في المجيء بالنبإ الكاذب. و نظير هذا ما ورد عن استعمال الماضي –كذلك– في قوله تعالى : << اقْتَتَلُوا >>[2]، وبمثل هذا قال النيسابوري حول استعمال الماضي في هذه الآية، و هذا ما ســـيأتي بيانـــه فـــي النموذج التالي :

**الثانـــي:** في قوله تعالى : << وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا... >>[3]

فقد عُبّر بالماضي : دون المضارع " لئلا ينبئ عن الإستمرار" [4]، " لأن صيغة الإستقبال تنبئ عن الدّوام و الإستمرار، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إن تمادى الإقتتـــال بينـــهما فأصلحوا، و هذا لأن صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك ". [5]

و هناك لفتة أسلوبية أخرى في استعمال الماضي هنا و العدول عن المضـــارع " علـــى الرغم من كونه الأليق بالشرط، لأنه لما أريد تقديم الفاعل على فعله للإهتمام بالمسند إليه جعـــل الفعـــل ماضيا على طريقة الكلام الفصيح في مثله مما أوليت فيه (إن) الشرطية الإسم نحـــو

---

(1)– الحجـــرات : 06.

(2)– ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص : 32 و 33.

(3)– الحجـــرات : 09.

(4)– غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج: 26، ص: 83.

(5)– التفسير الكبير : الرازي، ج: 26، ص: 127.

<< وَ إِنَ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ >>[1]، <<وَ إِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا >>[2]" [3]، و قوله كذلك : << إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ>>.[4]

**الثـــالـــث :** في قوله تعالى : << فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَـــى الأُخْـــرَى...>> [5] مـــع أن المضارع هو الأولى بالإستعمال في سياق الشرط، و كان المنتظر أن يقـــال : << فَـــإن تبـــغ إحداهما >> و لكنّ ذلك لم يحدث، فجاء الماضي للإيحاء بعدم الإستمرار [6]، و أن مثـــل هـــذا الفعل الأولى أن لا يكون، و إذا كان،فَلْيُحْرَص على أن لا يقع إلا يسيرا.

أما إن قيل، فإن تبغ إحداهما على الأخرى فقي هذا التعبير من الإيحاء بالدوام و الإستمرار ما لا يتفق و الحكمة المرجوة من تشريع القرآن الكريم المستوحى من تعبير القرآن الكريم ومـــن أسلوب هذا الكتاب العزيز، وهو استمرار بغي الطوائف الإسلامية بعضها على بعض.

**الرابـــــع :** في فقوله تعالى : << ...فَكَرِهْتُمُوهُ...>> [7] مع أن ظاهر الكلام أن يقـال : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فتكرهونه)على أساس أن الحدث فـــي المســـتقبل لوجـــود <<أنْ>> الدالة على الإستقبال ، و يكون التقدير في الإجابة على السؤال : إنكم ستكرهون ذلـك و لا يمكنكم أن تحبوا ذلك أبدا.

و لكن و بالنظر إلى أن لأسلوب القرآن الكريم أسرارا تتجاوز عقول البشر، و تخرج عن نطاق القواعد المألوفة في علمي النحو و الصرف، و أنه لا يصل إلى كشـــف تلـــك الأســـرار إلا الراسخون في العلم ممن اصطفاهم الله بالإلهام و القدرة الفذة على الإستنباط و الإستجلاء،

فقد قيل-مِنْ حسن ما قيل في ورود الفعل بصيغة الماضي-أنه للمبالغة في تأكيد الكراهيـــة و إثباتها و تقريرها [8]، و أن ذلك مما لا يستطيع الفرد أن يفكر فيه بله الإقدام عليه، ذلـــك لأن (الفاء) التي سبقت الفعل هي الفصيحة " في جواب شرط مقدر، و يقدر معه (قد) أي : إن صح ذلك أو عُرض عليكم هذا فقد كرهتموه و لا يمكنكم إنكار كراهتـــه" [9].

---

(1)- التوبـــة : 06.
(2)- النســـاء : 128
(3)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 239.
(4)- النســـاء :176.
(5)- الحجـــرات : 09.
(6)- التفسير الكبير : الرازي، ج: 26، ص: 128.
(7)- الحجـــرات : 12.
(8)- ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 159.
(9)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 158.

و هذا لِمَا يدل عليه الماضي من التقرير و الإثبات، بخلاف المضارع الذي يدل في عمومه على الإستقبال، و الإستقبال -دوما- في حكم الغيب، خصوصا إذا سُبق المضارع بما يفيد الإمكان و التوقع مثل << قد >> و << ربما >> و غيرهما.

إلا أن فكرة حمل الماضي هنا على أساس أنه للمبالغة في التقرير و الإثبات، و أن الفاء التي سبقته هي الفصيحة في جواب الشرط المقدر، قد تبطل إذا ما اعتبرت الفاء هنا للعطف و قُدِّر أن يكون هناك معطوف عليه محذوف مقدر ب: عرض عليكم ذلك أو ... بل عافته نفوسكم، و يكون : كرهتموه – إذن – معطوفا على فعل ماض محذوف [1] سواء كان هذا الفعل هو << عُرِضَ >> أو << عافته >> أو غيرهما. و عليه يكون بناء فعل الكراهية للماضي جريا على طريقة الكلام عند العرب، بعطف ماض على ماض لا أكثر.

و على العموم فمهما كانت لفظة << كرهتموه >> معطوفة على فعل محذوف، أو لم تكن، أو كانت الفاء التي سبقته هي الفصيحة في جواب شرط مقدر، فإن الماضي تبقى له في كل الحالات دلالة ثابتة : و هي التقرير و الإثبات ما لم يخرج هذا الماضي عن غرضه ليدل على أغراض أخرى في علم المعاني.

و عليه يكون الغرض من استعمال الماضي إذن هو الزيادة في إثبات حالة الإستهجان و الإستقذار التي يشعر بها ذو الفطرة السليمة من إتيان مثل هذا الفعل المتمثل في أكل لحم الأخ الميت، و هو في تمام العجز عن الدفاع عن نفسه.

**المطلب الثاني : إستعمال المضارع دون الماضي :**

لقد كثر استعمال المضارع في سورة الحجرات أيضا كما استعمالُ الماضي، لكن الذي يلفت الإنتباه ليس هو الإستعمال لهذا الزمن، و إنما هو أن يوضع موضع الماضي، و يُعبر به دون الماضي مع أن هذا الأخير كان هو الأولى بذلك، فما النكتة في ذلك يا ترى ؟ هذه النماذج ربما يكون فيها الشفاء.

**الأول :** في قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ... >> [2] مع أن فعل الغض قد وقع و انتهى، و الإشادة بشأن هؤلاء الغاضين إنما جاءت بعد وقوع الفعل، فَلِمَ كانت الصياغة في المضارع إذن ؟

---

(1) - سبق و أن تناولنا هذا في الفصل الثاني، مبحث: الحذف، تراجع الصفحة 110 من هذه الدراسة.
(2) - الحجرات : 03.

في الواقع؛ إن استعمال المضارع بدل الماضي للحديث عن أمور ثبت وقوعها ليس مختصا فقط بفعل الغض في هذه الآية، و إنما كثيرا ما نجد ذلك في سورة الحجرات.

من أمثلة ذلك قوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ... >> [1]، و قوله أيضا: << يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...>> [2] و غير هاتين الآيتين.

و قد ذكر ابن القيم بأن الحكمة من ذلك هي : " تبيين هيئة الفعل، و استحضار صورته ليكون السامع كأنه يعاينها و يشاهدها ". [3]

فقوله تعالى : << إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ >>[4] مثلا، فيه تكريم لهؤلاء، و تفخيم لشأنهم، و ذلك لاستمرارهم على هذه الحال بما يدل عليه فعل الإستقبال.

أما القول : إن الذين غضوا أصواتهم، فقد أُفرِغ من محتوى التشريف، و جُرِّد من معنى الإستمرار، و كأن هذا الفعل قد تم و وقع في وقت معين، ثم زال، و ربما تغير طبع فاعله فأصبح ممن يرفع صوته فوق صوت الرسول صلى الله عليه وسلم.

**الثاني:** في قوله تعالى : <<إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ>>[5] فقد استُعمل فعل النداء في المضارع " مع تقدّمه على النزول [و هذا] لاستحضار الصورة الماضية لغرابتها " [6]، أي : استحضار حالة ندائهم للنّبي صلى الله عليه و سلم، وكأنهم ينادون بأبسط النّاس قدرا.

و في التعبير من الإستقباح ما لا يخفى، و فيه من التهجين ما لم يكن بالوسع الكشف عنه في حالة ما لو استُعمِل الماضي بدل المضارع في فعل المناداة، فلو قيل مثلا : إن الذين نادونك من وراء الحجرات، لأَوْحَى ذلك -ربما- بأن الفعل قد تم وقوعه في الماضي و انتهى أمره، و ربما قد عَدَلَ فاعلوه عنه بعد ذلك و تابوا إلى الله، و لكن في التّعبير المستعمل ما يوحي بل ما يُثبت أنهم كانوا على حالة الإلحاح و الإستمرار على فعل المناداة لتتجلى فظاعة الأمر و هجنة هذا السلوك.

---

(1)- الحجرات : 04.

(2)- الحجرات : 17.

(3)- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان، ص: 34.

(4)- الحجرات : 03.

(5)- الحجرات : 04.

(6)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السّبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 140.

**الثالث:** في قوله تعالى: <<...لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ>>[1] وفيه من الدلالات ما يلي :

1- " أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه " [2]، أي أنه كلّما عن لهم رأي في أمر ما فقد كانت لهم رغبة شديدة في أن يعمل الرسول صلى الله عليه و سلم بهذا الأمر[3] بدليل قوله تعالى : <<فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ >> [4] و لم يكن ذلك في أمر واحد قد حدث و انتهى أمره كما حدث عند تزيينهم للرسول عليه الصلاة و السلام الإيقاع ببني المصطلق.

2- " استمراره [صلى الله عليه وسلم] في التثبت و التحقق مما ينقل إليه من الأخبار، بدليل قوله (فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ) أي: في كثير مما عنّ لهم من الآراء والأهواء"[5].

و معنى هذا إلزام الرسول صلى الله عليه و سلم بوجوب الإحتراس من أقوال غير العدول حذرا من تسرب الأنباء الكاذبة التي يستغلها ذووا النفوس المريضة لاستدراج الرسول عليه الصلاة و السلام للعمل برأيهم فيما يعود على الأبرياء بالغُرم و النَّكال.

3- " امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة و السلام لأن عنتهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الأمور " [6] هكذا قال البرسوي في تفسيره، إلاّ أنّ هذه اللفتة إنما دلت عليها << لو >> ، و لم يكن للمضارع -ربما- أثر على ذلك، إذ قد نقول : لو أطاعكم في كثير من الأمر، و تبقى مع ذلك الدلالة على امتناع العنت لامتناع الطاعة.

إلاّ إذا راعينا في كلام المفسر لفظة < استمرار الطاعة >. ففي هذه الحالة يمكن القول بأن للمضارع أثرا، و يجب مراعاته لدلالته على الإستمرار.

4- " تصوير ما كانوا عليه و تهجينه مع التوبيخ " [7] و هذا ما يدل عليه الفعل المضارع و ما يتضمن من معنى الإستمرار و كذا استحضار الصورة المعبر عنها لإرادة التهجين

---

(1)- الحجرات : 07.

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج: 06، ص: 16.
ينظر كذلك : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون : السمين الحلبي، المجلد : 06، ص: 169.

(3)- ينظر : البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص: 110.

(4)- الحجرات : 07.

(5)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج: 26، ص: 128.

(6)- روح البيان : البرسوي، ج: 26، ص: 72.

(7)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج: 26، ص: 148.

و الإستقباح و التوبيخ، و ما كان ليحصل مثل ذلك التوبيخ و الإستهجان باستعمال الماضي حتى و لو كان هو الأولى بالإستعمال [1]، و حتى و لو كان الفعل قد وقع و انتهى أمره.

**الرابـــع** : في قوله تعالى : << يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...>> [2] " مع أنّ منهم بذلك حصل فيما مضى، [و هذا] لاستحضار حالة منهم كيف يمنّون بما لم يفعلوا " [3]

و في ذلك دلالة خفية أو صريحة على غرابة تستحق التهجين، إذ كيف لهم الجرأة على أن يمنّوا على الرّسول صلى الله عليه و سلم بما هو ليس حاصلا أصلا ؟

و لئن تحقق و ثبت وقوع المُمتَنِّ به فلن يكون من حقهم الإمتنان بما ليس لهم فيه يد و فضل، بل الفضل في كل ذلك يرجع إلى الله تعالى فهو الأحق بالإمتنان.

و على هذا الأساس يمكن إجمال الفوائد المستوحاة من استعمال المضارع هنا في النقاط الثلاثة التالية :

1- إستحضار حالة المنّ و كيفية امتنانهم بما لم يكن أساسا، و هذا ما أفاده المضارع.

2- الإستغراب ممن يمتن بما لم يفعل، لأن الإيمان لم يحصل لقوله <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا>>[4]

3- توبيخهم من أجل الجرأة على هذا الإمتنان، و هو ما لزم من فائدة الخبر في قوله : << يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا >> [5]

**الخامـــس** : في قوله تعالى : << ... بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ...>> [6] عوض << بل الله مَنَّ عليكم أن هداكم >>، لأن هذا المنّ منٌّ مفروض، " لأن الممنون به لما يقع [أي : وجود الإيمان في قلوبهم] و فيه من الإيذان بأنه سيمن عليهم بالإيمان ما في قوله : << وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ>>" [7] أي : أنه تعالى سيمنُّ عليهم بنعمة الإيمان حينما يُكتب لهذا الإيمان أن يتغلغل في قلوبهم، وما ذلك ببعيد لِمَا تدل عليه <<لَمَّا>> من توقع حدوثِ الفعلِ الذي بعدها.[8]

---

(1)- لأن (لو) يؤتى بها – في الغالب –للربط لتعلق ماض بماض. " و إذا وليها مضارع أُوِّلَ بالماضي نحو (لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ) " هكذا في : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ابن هشام الأنصاري المصري، المجلد:04، ص: 228.

(2)- الحجـــرات : 17.

(3)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 270.

(4)- الحجـــرات : 14.

(5)- الحجـــرات : 17.

(6)- من الآيـــة نفسهـــا.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج:26، ص: 270.

(8)- تراجع الصفحة 136 من هذه الدراسة.

هذه نماذج خمسة لاستعمال المضارع في المواضع التي استعمل فيها. تأملها جيدا و تأمل المعنى الذي أريد باستعمال هذا الزمن في كل موضع من تلك المواضع على حدة، فستدرك أنه ما كان ليحل زمن آخر محله لإصابة الهدف المنشود بتلك الدقة التي وجدت باستعمال المضارع.

كما أنك لو تأملت النماذج الأربعة التي وردت في المطلب السابق، فستدرك أيضا أنه ما كان للمضارع أن يحل محل الماضي للوصول إلى الغاية المرجوة بتلك الدقة الأسلوبية التي وُجدت باستعمال الماضي.

و عليه يمكن القول أن الذي نعنيه بعبارة : الدقة في استعمال الزمن، ليس ما قد يتبادر إلى الذهن من أنه توظيف زمن الفعل توظيفا يكون مطابقا لزمن وقوع الحدث في واقع الحياة.

و إنما الذي نعنيه بذلك هو حسن استعمال،و براعة اختيار الصيغة الزمنية التي تخدم المعنى المراد و الفكرة المرجوة و الهدف المنشود في الآية ذاتها،دون أن يُعمَّم الحكم على المواقف و الأجوال المتقاربة، لأن اختلافا طفيفا بين موقف و آخر قد يستدعي تغييرا جذريا في أزمنة الأفعال المستعملة.

و لذلك فالذي يُرجَى حتَّى يفهم المراد من كلامنا : " الدقة في استعمال الزمن " هو الإحاطة الكاملة و الدراسة الشاملة الدقيقة للمعنى المراد من الآية، و ليس مجرد الوقوف على ظاهر الآية فقط، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الأولى أن يقال في الآيات السابقة : << يَآ أَيها الذين آمنوا إن يجئكم فاسق >> و << ...و إن طائفتان من المؤمنين يقتتلوا... >> و <<...فإن تبغ إحداهما على الأخرى...>> و << ... أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فتكرهونه >>.

و لكان الأولى أن يقال – من الجانب الآخر – : <<... إن الذين غضوا أصواتهم >> و << إن الذين نادوك... >> و << ... لو أطاعكم... >> و << منوا عليك أن أسلموا >> و << قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله مَنَّ عليكم أن هداكم للإيمان >>.

إلا أن شيئا من ذلك لم يكن لأن لاستعمال الماضي في الطائفة الأولى أهدافا سبق و أن تناولناها، و لاستعمال المضارع في الطائفة الثانية –أيضا– أهدافا سبق و أن أشرنا إليها، و ما خفي أعظم، و هو عند الله، و ما عند الله غيب، و الله نسأل أن يزيدنا علما و أن ينفعنا بما علمنا.

# المبحث الثالث

## الدقـــــة في استعمـــال العـــدد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سبق و أن ذكرنا في التمهيد للفصل الثالث أن الذي نعنيه بعبارة : الدقة في استعمال العدد هو بعيد عما يسمى في علم المعاني بظاهرة الإلتفات، أعني : (الإلتفات من المفرد إلى المثنى أو من المثنى إلى الجمع أو من المفرد إلى الجمع، أو العكس)، لأنه قد سبق و أن تعرفنا على جملة من النماذج لهذه الظاهرة في المبحث الأخير من الفصل الأول لهذه الدراسة، و الذي وضعناه تحت عنوان : براعة الإلتفات[1]، و تعرفنا على معنى الإلتفات، و الغاية منه من خلال الشواهد في السّورة، أما الذي نعنيه بعبارة : الدقة في استعمال العدد فهو ما يلاحظه القارئ للسورة من تفنن في اختيار العدد ما بين المفرد و المثنى و الجمع و إيثار أحدهم على الآخر في موضع لو خُيِّرَ القارئ أيهم يضع لاختار -ربما- ما هو غير مستعمل في النص الكريم.

فلو كان لبشر مثلنا الإختيار لاستبدل بكلمة "الحجرات" كلمة "الحجرة" في قوله تعالى <<إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ[2]>> و لو كان له الإختيار أيضا لوضع كلمة "رجل" و كلمة "امرأة" بدل "قوم" و "نساء" في قوله تعالى : <<... لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ..... وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ .....>>[3].

و لو كان له ذلك لاستبدل بكلمة "يلتكم" كلمة "يلتاكم" في قوله تعالى : <<وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا>>[4]، و لقال : إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين إخوانكم، أو بين إخوتكم بدل عبارة : بين "أخويكم" كما هو في النص القرآني الكريم.

إذن فلماذا جاءت لفظة الحجرات بصيغة الجمع، و لِمَ وردت كلمتا رجل و امرأة بالجمع أيضا دون الإفراد ؟ و لِمَ أُفرِد الفاعل في قوله "لا يلتكم" ؟ و ثُنِّيَ لفظ الأخوين ؟ ترى ما الحكمة من كل هذه الدقة في استعمال العدد ؟

هذا الذي نود أن نكشف عنه اللّثام، و ننظر أيَّ الأسرار يُخفي و إلى أي الأبعاد و الحِكَم يهدي.

---

(1)- تراجع الصفحة 59 و ما بعدها من هذه الدراسة.

(2)- الحجرات : 04.

(3)- الحجرات : 11.

(4)- الحجرات : 14.

**الأول : استعمال الجمع في لفظ "الحجرات"** : في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1] مع أنه لا يمكن أن يتواجد الرّسول صلى الله عليه و سلم في كل الحجرات في آن واحد.

و لذلك فقد ذُكِر أن في استعمال الجمع هنا احتمالان :

1- الإحتمال الأول: و هو أنهم نادوه كل واحد من وراء حجرة معينة، فجُمعت اللفظة، و جمعها هنا مطابق للواقع، ربما لأنهم لم يكونوا يعلمون في أيّ الحجرة هو موجود آنذاك.

2- الإحتمال الثاني: و هو أنهم نادوه من وراء حجرة واحدة، و هي التي كان متواجدا فيها، لكن جُمعت اللّفظة إجلالا للرسول صلى الله عليه و سلم و تعظيما له[2].

**الثاني : استعمال التثنية في لفظ "أخويكم"** : في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾[3] مع أنّ الأولى بالإستعمال هو الجمع لأن الأمر بالإصلاح واجب و عام لكل المسلمين، و لكن ثُنِّيَ اللّفظ هنا للإشارة إلى وجوب الإصلاح حتى بين أقل من يقع بينهم التقاتل من المسلمين و لا يوجد أقل من الإثنين، فثني اللفظ حرصا على الإسراع إلى الإصلاح بينهما و بين من هم أكثر منهما عددا بالطريق الأولى[4].

**الثالث : استعمال الجمع في "قوم" و "نساء"** في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ...﴾[5]. مع أن السخرية -في الغالب- تكون من طرف شخص إلى شخص آخر، بالإفراد، فلِمَ الجمع إذن ؟

---

(1)- الحجرات : 04.

(2)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج 06، ص 14.

(3)- الحجرات : 10.

(4)- ينظر التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 129.

(5)- الحجرات : 11.

من المعلوم أن السخرية –و إن فعلها شخص واحد– فهي تغلب في المجامع[1] "لأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى و يستضحك على قوله، و لا يأتي ما عليه من النهي و الإنكار الواجب على المسلم السامع، فيكون شريك الساخر في تحمل الوزر، و كذلك كل من يستطيبه و يضحك منه، فيؤدي ذلك و إن أوجده واحد إلى تكثير السخرة و انقلاب الواحد جماعة و قوما"[2].

هذا و قد يكون الغرض من استعمال الجمع هنا هو الإعلام "بإقدام غير واحد من رجالهم و غير واحدة من نسائهم على السخرية"[3] و الإشارة إلى استفظاع الشأن الذي كانوا عليه[4].

كما أن استعمال الجمع في "قوم " و "نساء" المتأخرين، أي القوم و النساء المسخور منهم للإشارة إلى أن "المتكبّر في أكثر الأمر يرى جبروته على رؤوس الأشهاد، و إذا اجتمع في الخلوات مع من لا يلتفت إليه في الجامع يجعل نفسه متواضعا"[5].

و معنى ذلك أن كثيرا من السخرة لا يشعر بنفس مقدار النشوة و اللذة التي يشعر بها إن كان المسخور منه جمعا من الرجال، أو جمعا من النساء، أو كان أمام جمع من الرّجال، أو النساء.

**الرابع : استعمال المفرد في الفعل** "يلتكم" في قوله تعلى : <<... وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا...>>[6] مع أن الأمر بالطاعة واجب للرسول صلى الله عليه و سلم كوجوبه لله تعالى، و أن فاعل يلتكم "عائد إلى اسم الله و لم يقل لا يلتاكم بضمير التثنية"[7].

---

(1)- ينظر أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص 493.

(2)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج: 26، ص 601.

(3)- تفسير النسفي : ج 03، ص 170.

(4)- ينظر تفسير النسفي : ج 03، ص 170.

(5)- التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 132.

(6)- الحجرات : 14.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج : 26، ص 266.

لعل الإجابة على ذلك لا تحتاج إلى أكثر من التذكير بأن الله تعالى " هو متولي الجـــزاء دون الرسول صلى الله عليه و سلم "[1]، و ما الرسول عليه الصلاة و السلام إلا مبلغ أمين يجب أن يطاع لا لنيل الجزاء منه، لأن الجزاء لا ينال إلا من الله جل و علا، و لكن يطاع الرســول صلى الله عليه و سلم لأنه المبلغ عن الله تعالى و لأن السنة النبوية الشريفة هي الســبيل الأول لمعرفة المراد من كلام الله تعالى و تشريعه.

**الخامــس : استعمال الجمع في "الأموال و الأنفس"** في قوله تعالى : << ..... وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...>>[2] و هــو – كمــا تــرى– جمــع مضــاف، و الجمــع –إذا أضيف– أفاد العموم[3]، و عليه فاستعمال الجمع هنــا فيــه حــث علــى المجــاهدة فــي سبيل الله بكل النفوس و بكل الأموال من غير استثناء، و بهذا فقــط يثبــت اليقيــنُ و يتحقــق كمــالُ الإيمــان.

**الســادس : استعمال الإفراد في لفظ "السبيل"** في قوله تعالى : <<... وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ>>[4].

و الملاحظ أنه كثيرا ما جاء التعبير عن سبل الباطل – في القــرآن الكريــم – بصيغــة الجمع، أما سبيل الحق فكثيرا ما يجيء بصيغة الإفراد، و هذا كقوله <<الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّــذِي خَلَــقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ>>[5]،، و قوله <<وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْــتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ>>[6]، و قوله أيضا : <<يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمَائِلِ>>[7]، و قوله <<اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ>>[8].

---

(1)– ينظر التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج : 26، ص 266.

(2)– الحجــــرات : 15.

(3)– ينظــر : بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 02 ، ج 04، ص 03.

(4)– الحجــــرات : 15.

(5)– الأنعــــام : 01.

(6)– الأنعــــام : 153.

(7)– النحــــل : 48.

(8)– الفاتحــــة : 06.

و الجواب عن ذلك و سرّه "و الله أعلم أن طريق الحق واحد ... و طرق الباطل متشعّبة متعدّدة فإنّها لا ترجع إلى شيء موجود و لا غاية لها يوصل إليها"[1].

"و المقصود أن طريق الحق واحد إذ مرده إلى الله الملك الحق، و طرق الباطل ... لا غاية لها يوصل إليها بل هي بمنزلة بنيات الطريق، و طريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود، فهي و إن تنوعت فأصلها طريق واحد"[2].

**السابع : استعمال الجمع في "السماوات" و الإفراد في "الأرض"** في قوله تعالى : <<... وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ>>[3]، و قوله أيضا <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ>>[4].

مع أنه قد ورد -في القرآن الكريم- لفظ السّماء بالإفراد في مواضع كثيرة، فما سر الجمع هنا إذن ؟

مما قيل في ذلك "أن الكلام متى اعتُمد به على السماء المحسوسة التي هي السقف و قُصد به إلى ذاتها دون معنى الوصف صَحَّ جمعها جمع السلامة ... و متى اعتمد الكلام على الوصف و معنى العلا و الرفعة جرى اللفظ مجرى المصدر الموصوف به"[5].

"و نظير ذلك قوله تعالى <<قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ>>[6] [ف]لَمَّا كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السماوات أتى بها مجموعة.

و تأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلّا مفردة حيث وقعت لَمَّا لَمْ يكن المراد نزوله من ذات السماء نفسها بل المراد الوصف"[7].

---

(1)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج 01، ص 119.

(2)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج 01، ص 119 و 120.

(3)- الحجرات : 16.

(4)- الحجرات : 18.

(5)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج 01، ص 115.

(6)- النمل : 65.

(7)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج 01، ص 117.

... و ذلك في قوله تعالى : <<وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ>>[1] "فالرّزق:المطر و ما وُعدنا به الجنة و كلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السماوات فكان لفظ الإفراد أليق بها"[2].

" و أما الأرض فأكثر ما تجيء مقصودا بها معنى التّحت و السّفل دون أن يُقصد ذواتها و أعدادها ... [كما أنه] ... لا نسبة لها إلى السماوات و سعتِها بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء فهي و إن تعددت و تكبّرت فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل فأُخْتِير لها اسم الجنس"[3].

و على ضوء هذا التبيان يمكن القول أن في جمع السماوات إشارة إلى إحاطة علمه تعالى بكل ما هو في السماوات واحدة واحدة، و أن في إفراد الأرض إشارة إلى معنى التحت و الدونية، و أنها -بالمقارنة مع ما في السماوات- لا تساوي شيئا. و مع ذلك فالله يعلم كل صغيرة و كل كبيرة تحدث في هذه الأرض.

و لعل ما يُستخلص من كل هذا ما يلي :

1- استشعار الخوف و التقوى لله تعالى فهو علاّم الغيوب، و هو المطلع على كل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء.

2- التذكير بعظم ما في السماوات مقارنة مع ما في الأرض، و أن الذي يعلم ما في السماوات واحدة واحدة فهو أولى بأن يطلع على ما يجري في الأرض، و مرد ذلك إلى الأمرين التاليين :

أ- جمع السماوات و إفراد الأرض، و قد تحدثنا عن الهدف من ذلك.

ب- تقديم السماوات – في الذكر – على الأرض، و هو ما سوف نتناول أحكامه في المبحث الخامس من هذا الفصل.

---

(1)- الذاريات : 22.

(2)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج 01، ص 116 و 117.

(3)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01 ، ج 01، ص 115.

أخيرا وبعد هذا العرض لأهم النماذج الواردة في السورة لاستعمالات العدد يمكن أن نخرج بهذه النتائج :

1- إختيار العدد المناسب للتعبير لا يعني بالضرورة موافقة الرّقم المراد للمعنى الظاهر، و إلا لكان الأولى أن يقال : إن الذين ينادونك من وراء الحجرة، و يقال أيضا:لا يسخر رجل من رجل و لا امرأة من امرأة.

و لكن العبرة هي أن يوافق العدد المستعمل الهدفُ المرجو من هذا الإستعمال، سواء أكان هذا الهدف متعلقا بالجانب الخلقي، و منه ما رأينا عند الحديث عن جمع لفظ الحجرات في الإحتمال الثاني، أي : أن جمع هذه اللفظة قد يكون للتعظيم و التفخيم، أي : تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه و سلم في القرآن الكريم و في نفوس العباد، و هو من أسمى الآداب و الأخلاق التي يتحلّى بها المسلم.

أو كان هذا الهدف متعلقا بالجانب التشريعي، و منه ما رأينا عند الحديث عن تثنية الأخوين، في النموذج الثاني من هذا المبحث، حيث ذكرنا أن الحكمة من ذلك هي وجوب الإصلاح بين المتخاصمين حتى ولو كان ذلك بين أقل من يحتمل أن يحدث بينهم النزاع.

أو كان هذا الهدف متعلقا بالجانب العَقَدي، و منه ما رأينا عند الحديث عن إفراد فاعل "يلت" في النموذج الرابع من هذا المبحث، حيث بينا أن الغاية من ذلك هي التذكير بأن الله وحده هو متولي الجزاء و العطاء. و غير هذا كثير...

2- ليس كل عدد يقع عليه الإختيار يكون الغرض منه أمر آخر غير ظاهره،

أ- فقد يستعمل المفرد -مثلا- ويكون الغرض منه هو المفرد لا غير، كقوله تعالى: <<...لَا يَلِتْكُمْ مِّنَ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا>>[1] و ذلك في الفعل : يلتكم لما بَيَّنَا من أن الله وحده هو ولي الجزاء.

ب- و قد يستعمل المفرد لكن لا يكون الغرض منه المفرد لذاته، بل يكون الغرض هو التعميم كقوله تعالى: <<أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ ...>>[2] لأن الكلّ لا يحب ذلك.

---

(1)- الحجرات : 14.

(2)- الحجرات : 12.

ج- و قد يستعمل الجمع و يكون الغرض منه هو ذات الجمع، كقوله تعالى : <<...لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَ رَسُولِهِ>>[1] و قوله <<لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...>>[2] و هذا لعموم الحكم و وجوبه على الكل.

د- و قد يستعمل الجمع و لا يكون الغرض منه التعميم، بل يكون الغرض منه هو التبعيض. كقوله تعالى: <<وَ لَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ...>>[3].

فالميم الدالة على الجمع في هذه الآية هي ليست ذاتها الميم التي في قوله تعالى : <<وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ...>>[4]، و هذا لوجود "لكن" التي تفيد الإستدراك، و مخالفة ما بعدها لِمَا قبلها[5].

---

(1)- الحجرات : 01.

(2)- الحجرات : 02.

(3)- الحجرات : 07.

(4)- الحجرات : 07.

(5)- ينظر : روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 72.

و كذلك : التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج 26، ص 229.

# المبحث الرابع

## إيثـــــار نظـــم على نظـــم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المتأمل لعبارات السورة الكريمة لا ريب أن يقف على جملة من الإستعمالات المختلفة المتعلقة بإيثار جملة على أخرى، كاستعمال الجملة الموصولة مثلا في قوله تعالى :

<<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...>>[1] بدل الإسم المفرد، و استعمال الإسم المفرد بدل الجملة الفعلية في قوله:<<إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ>>[2] وقوله:<<إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ>>[3] وكذلك كاستعمال المصدر المؤول في قوله تعالى: <<وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا...>>[4] وقوله:<<أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا>>[5] أو كاستعمال الجملة الفعلية بدل الإسمية في قوله:<<وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ>>[6] و قوله:<<وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ>>[7] أو كاستعمال الجملة الإسمية بدل الفعلية في قوله :<<إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى>>[8] وقوله <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ>>[9] أو كاستعمال بعض الجمل و إيثارها على أخرى كقوله <<لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ>>[10] بدل << لا يسخر بعضكم من بعض>> و قوله << وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا>>[11] بدل <<اجتنبوا الغيبة>> و كقوله << ... قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ>>[12] بدل << قل لم تؤمنوا و لكن أسلمتم>> أو غيرها.

فإذا كان الإنسان منا لا يرى -في غالب الأحيان- بُدًّا من استعمال الجملة الفعلية بدل الإسمية أو الإسمية بدل الفعلية. و لا يرى فرقا بين "يا أيّها المفلح" و "يا أيها الذي أفلح" و بين قوله "عليك أن تكف أذاك عن الناس" و قوله: "عليك كف أذاك عن الناس" .

فهل يمكن أن ينطبق هذا على ما ورد في القرآن الكريم من عبارات واستعمالات مختلفة للجمل ؟ هذا الذي نود أن نتعرف عليه من خلال النماذج التالية :

---

(1)- الحجرات : 01، 02، 06، 11 و 12.
(2)- الحجرات : 01.
(3)- الحجرات : 14.
(4)- الحجرات : 05.
(5)- الحجرات : 12.
(6)- الحجرات : 02.
(7)- الحجرات : 16.
(8)- الحجرات : 13.
(9)- الحجرات : 18.
(10)- الحجرات : 11.
(11)- الحجرات : 12.
(12)- الحجرات : 14.

**استعمال الجملة الموصولة بدل الاسم المفرد:** لقد تكررت هذه الظاهرة في سورة الحجرات أزيد من عشر مرات. تماثلت في خمسة منها، وهي التي افتتحت آياتها بنداء الذين آمنوا[1]، واختلفت في غيرها[2]، فما سر ذلك يا ترى؟ وما الحكمة في العدول عن الإسم المفرد؟ فلِمَ لَمْ يقل ـ مثلا : " يا أيها المؤمنون" و " فقاتلوا الباغية " و " والله بصير بأعمالكم " ؟.

هذا ما نود التعرف عليه من خلال النماذج التالية فعسى أن يكون فيها الجواب و البيان، لكن وقبل أن نشرع في عرض الشواهد فإنه ليحسن بنا أن نورد أهم ما قيل عن استعمال الجملة الموصولة و أهميتها في الكلام بدل الإسم المفرد.

فمما ذُكر أن الإسم الموصول قد "وضعوه وصلة إلى وصف المعارف بالجمل، و لولاها لما جرت صفاتها عليها"[3] ذلك "لأن الإسم الموصول يوصِل إلى تبيان الموصوف من غيره[4] بالإضافة إلى أنه قد كانت لك به سابق معرفة في حالة ما إذا عُرِّف بالجملة الموصولة[5].

و مثال ذلك حينما يقال : أبصرت الذي يؤدي الأمانة. فإن الغرض هنا منصب حول صفة عُرِف بها هذا الموصوف، و للسامع سابق معرفة بذلك، كما أن بتلك الصفة يتميز هذا الموصوف عن غيره، و هذه الصفة المُتحدَّث عنها هي : تأدية الأمانة، حتّى لكأنّه لا أحد يفعل هذا إلا ذاك الذي وقع عليه بصري.

أما ما ورد في الحجرات من الجمل الموصولة فقد خُصِّصت صلاتها الواردة فيها بالذكر لأجل ما يلي :

1- تخصيص الصلة بجملة (آمنوا) في قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...>>[6]، و فيه تعظيم لمكان هؤلاء المؤمنين و تفخيم شأنهم و إستجاشة قلوبهم لحسن الإذعان حينما يُذَكَّرون بأمرٍ قد بلغ مسامعَهم و عرفوه و عمِلوا بموجبه فأصبح وصفا لهم و أصبحوا النموذجَ الحيّ له، و ما عليهم إلا الثبات على العمل بمقتضاه من تلبيةٍ للأوامر و اجتنابٍ للنواهي.

---

(1)- و ذلك في مطالع الآيات : 1-2-6-11-12. و كذلك ما ورد في الآية 15 و هي قوله تعالى :
<<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ...>>

(2)- و ذلك في الآيات : 3-4-6-9-16-18، و سيأتي بيانها لاحقا.

(3)- بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، المجلد: 1، ج1، ص 129.
ينظر كذلك دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ص194

(4)- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ص 194.

(5)- المصدر نفسه.

(6)- الحجرات : 01. و ما يقال عن هذه الآية ينطبق على الآيات الأخرى، و هي : 02 -6-11-12.

فمن الأوامر أن يغضّوا أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يتبينوا من أخبار غير العدول، و أن يصلحوا بين المتقاتلين من المسلمين، و أن يجتنبوا سيئ الظنون ببعضهم، و غير ذلك...

ومن النواهي أن لا يُقدّموا بين يدي الله ورسوله عليه الصلاة و السلام، وأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة و السلام، وأن لا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وأن لا يبادروه بالرأي عند نزول الطوارئ قبل أن يستمعوا إلى رأيه صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك...

2- تخصيص الصلة بجملة (يغضون) في قوله تعالى : <<إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ...>>[1] لأجل أن الغرض منصب حول صفة الغض التي بها مُيِّزوا عن غيرهم لِمَا في الأذهان من سابق المعرفة بها لأهميتها في موقف الفصل بين المشهدين : مشهد الغاضين – في جميع الأحوال[2]– أصواتهم في حضرة الرسول صلى الله عليه و سلم، و مشهد المنادين له من وراء الحجرات كما لو كان المنادَى من أبسط الناس قدرا.

3- تخصيص الصلة بجملة (امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) في قوله تعالى : <<... أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ>>[3]، و هذا حتّى يتجلى مقام هؤلاء دون غيرهم، و ينجلي قدر هذا الوصف العظيم، هذا الوصف الذي بُنِيَ على أساس الإمتحان بصيغة الإفتعال التي تفيد المبالغة، و هو امتحان من طرف الخالق الأعظم، و أيّ امتحان أعظم من امتحان الأعظم ؟، و هو امتحان للقلوب، و هي التي إن صلحت صلح الجسد كله و إن فسدت فسد الجسد كله.

فأي وصف أحمد من هذا الوصف ؟، و أي تمييز لهم بعد هذا التمييز الذي خصت به جملة الصلة في هذه الجملة الموصولة.

4- تخصيص الصلة بجملة (يُنَادُونَكَ) في قوله تعالى : <<... إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ>>[4] لتبيان أن هذه الصّفة التي نفت عنهم العقل هي تلك المناداة بكل جفاء و وقاحة و ليست صفة أخرى، و ربما ما يعزز ذلك هو قوله تعالى : <<وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ>>[5]، و كذلك استعمال فعل الإستمرار (المضارع) على الرغم من أن الفعل قد مضى و انتهى، و هذا للتأكيد على هذا الوصف و إبعاد ما سواه.

---

(1)- الحجرات : 03.

(2)- ذلك ما أفاده فعل الإستمرار، و هو المضارع في قوله تعالى : <<يغضون>>.

(3)- الحجرات : 03.

(4)- الحجرات : 04.

(5)- الحجرات : 05.

و لعل ما يستفاد من هذا هو الإشارة إلى ما في حيّز الصلة من سوءٍ في الأدب و المعاملة عُرف به هؤلاء الأعراب فوصفوا به، فأصبحوا كالنموذج له و المثل الذي يُضرب لتقويم السلوك.

5- تخصيص الصلة بجملة (تبغي) في قوله تعالى : <<... فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ...>>[1] لأن في تعليق القتال بالموصول إشارة إلى ما في حيّز الصلة[2]، فيكون المقصود : فقاتلوها لبغيها، و عدم خضوعها لأمر القائمين على الإصلاح بين المتقاتلين، و هذا ما يؤكده استعمال المضارع الدّال على الإستمرار في قوله تعالى : <<... تَبْغِي...>> للإشارة إلى أن حكم المقاتلة إنما يكون ساري المفعول حال بغي هذه الطائفة، أما إذا أقلعت عن بغيها فإن حكم المقاتلة حينئذ يبطل.

و لعله من أجل كلّ هذا أوثر استعمال الجملة الموصولة في هذا المقام بدل الإسم المفرد، لأنه لو وردت الآية بهذا الشكل: "فقاتلوا الباغية" لكان حكم المقاتلة واجبا حتّى بعد التخلي عن البغي، و هذا ما لا يهدف إليه النظم الشريف.

6- تخصيص الصلة بجملة (آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ) في قوله تعالى : <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ>>[3]، بالإضافة إلى ما في جملة الصلة من تعظيم لهؤلاء المؤمنين و تمجيد لمقامهم حين وصفهم بهذا الوصف العظيم، فإن في تخصيص هذه الصلة بالإيمان بالله و الرسول صلى الله عليه و سلم تذكيرا بأهمية هذين الركنين و أنهما الأساس الذي تتبني عليه صحة الأركان المتبقية، لأن الذي يؤمن بالله لا ريب أن يصدق بالرجل الذي بعثه الله بشيرا و نذيرا للناس أجمعين، و الذي يصدق بهذا الرجل و يثق به لا شك أن يؤمن بكل ما جاء به من عند الله، و الذي يؤمن بهذا و ذاك لن يبقى له مجال للشك فيما جاء من جهتهما سواء من ناحية الإيمان بالملائكة أو باليوم الآخر أو بالكتب السماوية الأخرى أو بالرسل و الأنبياء و غير ذلك.

هذا و إن في نسبة الرسول إلى الله تعالى تشريفا له و إحمادا لقدره، و زيادة تذكير المؤمنين بواجبهم نحوه لأنه المبلغ الأمين عن الله تبارك و تعالى.

---

(1)- الحجرات : 09.

(2)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السّبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج 26، ص 150.

(3)- الحجرات : 15.

7- استعمال الجملة الموصولة في قوله تعالى : <<وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ>>[1] بدل الإسم المفرد "و الله يعلم الموجود في السماوات و الأرض"، و هذا لِمَا يدل عليه الإسم الموصول المستعمل (ما) من معنى التوغل في الإبهام[2]، للمبالغة في تأكيد إحاطة علمه بكل ما هو موجود في السماوات واحدة واحدة، وفي الأرض شبرا شبرا، وهذا ما يؤكده :

أ- استعمال الإسم الموصول (ما) بالذات دون غيره، و قد تحدثنا عن ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل[3].

ب- استعمال الجمع في لفظ (السّماوات) دون الإفراد، و قد تحدثنا عن ذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل أيضا[4].

8- إستعمال الجملة الموصولة في قوله تعالى : <<وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ>>[5] دون "و الله بصير بأعمالكم"، و فيه فوائد منها :

أ- المبالغة في تأكيد إطلاع الله على كل أعمال البشر، صغيرِها و كبيرِها، خيرِها و شرها، قديمِها و حديثِها ... و كل هذه المعاني يؤكدها استعمال الإسم الموصول (ما) الذي يفيد مطلق التوغل في الإبهام.

ب- التأكيد على استمرارية هذا الإطلاع، أي : إطلاع الله على أعمال الناس، و هذا ما أفاده المضارع في الجملة الفعلية الواقعة في حيز الصلة "تعملون"، بخلاف ما لو قيل : "و الله بصير بأعمالكم" فربما ما كان هذا التعبير ليؤدي ذلك المعنى لاحتمال أن يكون المقصود من لفظة الأعمال سالفَها فقط، أو حاضرَها فقط، أو مستقبلَها فقط، و هذا ما لا يتماشى مع مدلول العبارة الشريفة، و التشريع الإسلامي عموما، أو بالأحرى مع مبادئ العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ولعله من مثل هذه اللّفتة النموذجية على سبيل الذكر يُدرك الدارس لأسلوب القرآن الكريم أهمية التعبير -في القرآن- بجملة، دون أخرى، في تصحيح العقيدة، و توجيه السلوك الإنساني وجهة الخير و السّداد.

---

(1)- الحجرات : 16.

(2)- ينظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج 01، ص 131.

(3)- تراجع الصفحة 138 من هذه الدراسة.

(4)- تراجع الصفحة 172 من هذه الدراسة.

(5)- الحجرات : 18.

**استعمال الجملة الفعلية بدل الإسم المفرد** : و لنا من ذلك هذان النموذجان :

1- التعبير بالجملة الفعلية في خبر (أنتم) في قوله تعالى : <<... وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ>>[1]، و سر ذلك -و الله أعلم- هو التنبيه إلى أن عدم الشعور يتجدد و يستمر[2] حتى ينقل صاحبَه إلى أسوإ حال و هو لا يدري.

و ليس المراد من عدم الشعور هو عدم الإدراك، الذي يحدث للحظة يغيب فيها توقير الرسول صلى الله عليه و سلم، ثم يعود الإنسان إلى وعيه و إلى عالم الإدراك. لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان هناك تكليف أصلا، و هذا لامتناع تكليف الغافل و الناسي و نحوهما.

و إنما المقصود هو أن الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان بذلك، لأن الإنسان الذي يرتكب الذنوب مرارا فإن ذلك ينقِص من خوفه، فيصير ذلك بالنسبة إليه عادة متمكنة منه من حيث لا يعلم[3].

2- التعبير بالجملة الفعلية بدل الإسم المفرد في خبر لفظ الجلالة في قوله تعالى : <<...وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ...>>[4]، و كذلك في خبر الحرف المشبه بالفعل في قوله تعالى : <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ...>>[5]، و ذلك للإشارة إلى إحاطة علمه تعالى بكل ما في السّماوات و ما في الأرض ممّا من شأنه التجدد و الإستمرار، لأن ما في السماوات و ما في الأرض منه ما يتغير و تطرأ عليه التحولات، فكان استعمال الجملة الفعلية في هذا المقام أولى و أليق لدلالة الفعل المضارع على الإستمرار. أمّا عن استعمال الإسم المفرد في خبر لفظ الجلالة في قوله تعالى : <<وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ>>[6]، و قوله : <<وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْ ون>>[7]، بل و في كلّ الفواصل المختومة باسم من أسمائه تعالى في هذه السورة بل و في غيرها أيضا، فللإشارة إلى صفة الثبوت و اللّزوم في جانب الله تبارك و تعالى، و المعلوم أن كلّ صفاتِه و كلّ أسمائه تدل على الثّبوت و اللّزوم[8].

---

(1)- الحجرات : 02.

(2)- و هذا ما يدل عليه المضارع الذي يفيد الإستمرار (تشعرون).

(3)- ينظر التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص 114.

(4)- الحجرات : 16.

(5)- الحجرات : 18.

(6)- الحجرات : 16.

(7)- الحجرات : 18.

(8)- ينظر دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص 174.

و للمزيد من الإيضاح و البيان حول الفرق بين الاستعمالين، أعني : استعمال الجملة الفعلية بدل الاسم المفرد، و الاسم المفرد بدل الجملة الفعلية، فقد ذُكِرَ "أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدُّدَهُ [أي: تجدّد المعنى] -شيئا بعد شيء. و أما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء، فإذا قلت : زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلا له من غير أن تجعله يتجدد و يحدث منه شيئا فشيئا بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيد طويل و عمرو قصير. فكما لا يقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد و يحدث بل توجبهما و تثبتهما فقط و تقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد.

و أما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك فإذا قلت : زيد هاهو ذا ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا و جعلته يزاوله ..."[1]

و الخلاصة أنه متى أريد الإخبار عن الثبوت أوثر التعبير بالاسم المفرد، و متى أريد الإخبار عن التجدد استعمل الفعل في التعبير، أي : الجملة الفعلية.

---

(1)- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص 174.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**استعمال الجملة الإسمية بدل الجملة الفعلية** : في الواقع لقد وُجدت في السورة الكريمة شواهد كثيرة عن استعمال الجملة الإسمية، كقوله تعالى <<إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ>>[1] و قوله كذلك <<إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى...>>[2] و قوله أيضا <<إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ>>[3] و قوله <<وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ>>[4] و قوله <<وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ>>[5] و غير ذلك ...

إلّا أن الذي نود الحديث عنه هو تلك المواضع التي لوحظ فيها إمكانية استعمال الجملة الفعلية بدل الجملة الإسمية كقوله تعالى : <<... إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...>>[6] فبالإمكان القول : "لقد خلقناكم من ذكر و أنثى ...". و كقوله تعالى <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ...>>[7]، فبالإمكان القول : "يعلم الله غيب السماوات والأرض" و قد ورد بالفعل مثلُ هذا في قوله تعالى : <<عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ>>[8]، فلماذا، أو بالأحرى فما سر تفضيل الجملة الإسمية على الجملة الفعلية يا ترى ؟

من جميل ما قيل في ذلك أن العدول عن استعمال الجملة الفعلية، و استعمال الجملة الإسمية بدلها، لما تفيده الجملة الإسمية من زيادة التأكيد و التّحقيق و الإثبات خصوصا عندما تسبق بـ : إن المشددة[9].

1- فبالنسبة لقوله تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...>>[10] فالغرض من استعمال الجملة الإسمية المؤكدة هنا هو ما يلي :

أ- المبالغة في تأكيد أن الله وحده هو مصدر الخلق و الجعل لا غيره.

ب- التمهيد لنفي التمايز و الفروق الطبقية الإجتماعية بإثبات أن الغاية من هذا الخلق و الجعل هي التعارف و التآزر لا التباغض و التناكر، لأن الذي خلق الناس من مصدر واحد هو الذي جعل معيار التفاضل بينهم واحدا، فالفرق إذا كان -ولا بد- فلن يكون على أساس النسب أو الجنس أو اللون، و إنما يكون بالتقوى، و التقوى محلها القلوب، و مفتاح القلب عند الله، و ما عند الله لا يعلمه سواه.

---

(1)- الحجرات : 01.
(2)- الحجرات : 03.
(3)- الحجرات : 04.
(4)- الحجرات : 05.
(5)- الحجرات : 08.
(6)- الحجرات : 13.
(7)- الحجرات : 18.
(8)- البقرة : 187.
(9)- ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص 207.
(10)- الحجرات: 13.

2- وبالنسبة لقوله تعالى: <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ>>[1] فالغرض هو ما يلي :

أ- تأكيد أن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء، و أنه علاّم الغيوب، و أنه على تمام العلم و الإدراك بكل صغيرة و كبيرة، سواء كانت ممّا من شأنه الثبوت، أو ممّا من شأنه التغير و الإستمرار.

ب- التحذير من مخالفة الأوامر التي أمر الله بها، و النواهي التي نهى عنها من خلال آيات السورة الكريمة من أولها إلى آخرها، لأن الذي يعلم تمام العلم و يدرك تمام الإدراك أن الله يعلم كل شيء سيزجره ذلك عن فعل ما يُغضب ربه، بل و يحفزه على تأدية كل واجباته.

**استعمال المصدر المؤول بدل المصدر الصريح** : و المقصود هو العدول عن استعمال المصدر الصريح الذي هو اسم مفرد دال على حدث غير مقيد بزمن ما، و اللجوء إلى استعمال المصدر المؤول الذي هو -في الغالب- اجتماع الفعل مع (أن)، كقولك : يعجبني أن تحضر، بدل : يعجبني حضورك.

و قد لفت انتباهي – في السورة- بعض الشواهد لاستعمال المصدر المؤول، منها قوله تعالى: <<... وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ>>[2] بدل : " ...كجهر بعضكم لبعض خشية حبوط أعمالكم"[3].

وقوله أيضا <<وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ...>>[4] بدل : "و لو ثبت صبرهم"[5].

وقوله كذلك <<أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ...>>[6] بدل "أيحب أحدكم أكل لحم أخيه".

فما سر العدول عن المصدر الصريح، و تفضيل المصدر المؤول مع أن المعنى – في ظاهره واحد في كِلَا الإستعمالين ؟ و هل يكون لهذا التفنن في الإستعمال أثر في تغير المعنى ؟

لقد حاول بعضهم الإجابة عن هذه التساؤلات و الكشف عن أسرار هذا الإيثار في الإستعمال، حيث ذكر أن في ذلك فوائد جمة منها :

---

(1)- الحجرات : 18.
(2)- الحجرات : 02.
(3)- مع مراعاة المضاف المحذوف، تراجع الصفحة: 95 من هذه الدراسة.
(4)- الحجرات : 05.
(5)- مع مراعاة الفعل المحذوف، تراجع الصفحة: 99 من هذه الدراسة.
(6)- الحجرات: 12.

- " أنَّ المصدر فيما مضى و فيما هو آت و ليس في صيغته ما يدل عليه فجاؤوا بلفظ الفعل المشتق مع أنْ ليجتمعَ لهم الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزمان"[1].

و معنى هذا الكلام أن للمصدر المؤول الدور الأساسي في تحديد الزمن العام للحدث، بخلاف المصدر الصريح، فليس فيه تحديد لأدنى معالم الدائرة الزمانية.

- كما أنَّ "أنْ تدل على إمكان الفعل دون الوجوب و الإستحالة"[2] و معنى هذا أن المصدر المؤول لا يدل بالضرورة على وجوب وقوع الفعل و ثبات هذا الوقوع، و لا استحالة أن يحدث هذا الفعل أو امتناع ذلك، فهو رهن الأقدار و الأسباب، قد يقع و قد لا يقع.

- كما أنَّ أنْ " تدل على مجرد معنى الحدث دون احتمال معنى زائد عليه ففيها تحصين من الإشكال و تخليص له من شوائب الإجمال، بيانه أنك إذا قلت:كرهت خروجَك و أعجبني قدومُك احتمل الكلام معاني. منها أن يكون نفس القدوم هو المعجب لك دون صفة من صفاته وهيآته... و احتمل أيضا أنك تريد أنه أعجبك سرعته أو بطؤه أو حالة من حالاته، فإذا قلت أعجبني أن قَدِمْتَ كانت أنْ على الفعل بمنزلة [التخلّص] من عوارض الإجمالات المتصورة في الأذهان"[3]

وعلى ضوء هذا البيان يمكن القول فيما يتعلق بالشواهد الثلاثة الواردة في الحجرات ما يلي:

ا- في قوله تعالى : <<وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ>>[4]، أوثر استعمال المصدر المؤول للدّلالة على ما يلي :

أ- تحديد الزمن، و هو المستقبل الذي يدل عليه المضارع "تحبط" و معنى ذلك أنكم إن واصلتم و بقيتم على هذه الحال من رفع للأصوات فوق صوت النبي صلى الله عليه و سلم و الجهر له بالقول كجهر بعض المسلمين لبعض، فسوف تحبط كل أعمالكم و سوف تبور تجارتكم مستقبلا، بخلاف ما لو قيل : " خشية حبوط " فعسى أن يكون في هذا التعبير دلالة على أن الأعمال قد حبطت و انتهت، أو أنها الآن بصدد الحبوط.

ب- إمكانية حبوط هذه الأعمال في حالة ما إذا كان هناك إصرار و عناد من طرف من لا يعرف قدر النبوة و مقام الرسول صلى الله عليه و سلم، وبالمقابل فهناك احتمال عدم حبوط

---

(1)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج 01، ص 92.
(2)- المرجع نفسه.
(3)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج 01، ص 92 و 93.
(4)- الحجرات : 02.

هذه الأعمال في حالة ما إذا كانت هناك توبة ورجوع إلى الله عز وجل وإقلاع عن رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم، والجهر له بالقول كما يجهر الناس مع بعضهم البعض.

ج- التحذير من احتمال وقوع الحبط في حد ذاته بصرف النظر عن كيفية وقوع هذا الحبط أو لفت النظر إلى الحالة التي تحبط فيها الأعمال. ربما يكون لمثل هذه الإحتمالات المجال في حالة واحدة، و هي التي يستعمل فيها المصدر الصريح، فلو قيل : خشية حبوط أعمالكم لكان هناك احتمال بأن المراد من الحبط هو حبطٌ معين، في حالة و هيئة معينة، لكن العبرة -على ما يبدو- هي التحذير من الحبط نفسه دون مراعاة أي أمر آخر.

2- في قوله تعالى : <<وَ لَوَ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ...>>[1] استُعمل المصدر المؤول أيضا للدّلالة على ما يلي :

أ- تحديد الزمن، و هو الماضي الذي يدل عليه الفعل : صبروا، و هم لم يصبروا، فعدم الصبر قد حدث و انتهى، و بالتالي فليس هناك احتمال آخر لزمن آخر، بخلاف ما لو قيل، و لو ثبت صبرهم، فقد يكون المقصود من هذا التعبير، و لو ثبت أنهم سيصبرون في المستقبل، ذلك لأن المصدر الصريح هو من يتضمن الإيحاء بذلك.

لكن التعبير الشريف جاء بصيغة الماضي للدلالة على أن صبرهم لم يحدث، وقد عُلِم هذا الأمر.

ب- أما إذا قيل كيف القول بإثبات عدم وقوع فعل الصبر، والقول بأن المصدر المؤول يؤتي به -من بين ما يؤتي به- لأجل تبيان إمكان الفعل دون الوجوب أو الاستحالة، فنقول -والله أعلم- ربما مرد (الإمكان) في هذا النموذج إلى ما تفيده (لو) من معنى الإمكان لكونها حرف امتناع لامتناع حتى ولو استعمل المصدر الصريح هنا و قيل ولو ثبت صبرهم...

فقد كان بإمكانهم أن يصبروا فيكون ذلك خيرا لهم، فلمَّا لَمْ يصبروا لم يكن ذلك خيرا لهم، وعليه يبقى معنى الإمكان حاصلا بوجود (لو)، كما يبقى معنى التحقق قائما بوجود (أن) لأنَّ "أنْ و إِن دلت بما في حيزها على المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبوت"[2] وهذا لأمرين :

- لإفادتها التوكيد من جهة: و لكن ليس المقصود توكيد وقوع الصبر، و إنما توكيد وقوع الجزاء في حالة ما إذا وقع الصبر.
- ولدخولها على الجملة الإسمية، وما تفيده هذه الأخيرة من معنى الثبوت و التأكيد من جهة أخرى[3].

---

(1)- الحجرات : 05.

(2)- تفسير أبي السعود : ج : 08، ص 118.

(3)- ينظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان : ابن قيم الجوزية، ص 207.

ج- التنبيه إلى أن العبرة بالصبر في حد ذاته بغض النظر عن كيفية هذا الصبر، أو التفكير في هيئة من هيـأته أو حالة من حالاته، لأن(الصّبر حتى يخرج إليهم الرسول صل الله عليه و سلم) هو الذي كان سيحقق لهم الخير الكثير، أو هو الذي كان سيكون أفضل لهم من العجلة و مناداته صلى الله عليه و سلم من وراء الحجرات، و ليس الغرض منصبا حول صفة هـذا الصبر أو شكله.

3- في قوله تعالى : <<... إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ...>>[1]

استعمل المصدر المؤول أيضا في عبارة "فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُـوا"، بـدل "فتبينـوا خشـية إصابتكم" [2] للدلالة على ما يلي :

أ- تحديد الزمن، و هو المستقبل في لفظة " تصيبوا " و معنى هذا أنكم إن لم تتبينوا مـن أقوال الفساق فسوف يكون ذلك سببا في نيلكم من قوم أبرياء في مستقبل الأيام، بخلاف المصدر الصريح فلا دلالة فيه على زمن معين.

ب- الإشارة إلى إمكان وقوع الفعل أو إلى إمكان عدم وقوعه، لأن ما في المستقبل غيـب و لا يعلم الغيب إلا الله، و هذا ما أفادته << أَنْ >> الدالة على الإستقبال.

ج- التنبيه إلى أن العبرة بالإصابة في حدّ ذاتها و ليس بكيفية هذه الإصابة و لا بشـكلٍ من أشكالها، لأنه حينما ينزل الشر بديار قوم أبرياء، فلا حاجة بعد ذلك للتفكير في كيفية حلـول هذا الشر بقدر ما تكون هناك حاجة إلى التفكير في المخرج من هذا الشر.

4- في قوله تعالى : << ... أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًـا فَكَرِهْتُمُـوهُ... >>[3]

استعمل – كذلك – المصدر المؤول لأجل ما يلي :

أ- تعيين الزمن، و هو المستقبل – بلا شك – لما يفيده حرف الإستقبال (أن) لأنه لو قيل مثلا : " أيحب أحدكم أكل لحم أخيه " لكان من المحتمل أنّ فعل المحبة أو فعل الأكل قد وقـع و انتهى و ثبت عند البعض، لكن ذلك لم يكن لأن في صيغة الإستفهام المثبت ما يدل على نفـي المستفهم عنه، كما أن في استعمال المصدر المؤول دون الصريح، و بلفظ الإستقبال دلالة علـى عدم وقوع أحد الفعلين بعدُ، هذا على الأقل من جانب التركيبة اللّغوية.

---

(1)- الحجـــرات : 06.

(2)- مع مراعاة المحذوف و هو المضاف : (المفعول لأجله)، تراجع الصفحة 102 من هذه الدراسة.

(3)- الحجرات : 12.

ب- إمكان وقوع الفعل (من الجانب النظري بصرف النظر عن الواقع المحسوس)، وذلك ما تدل عليه التركيبة النحوية في قوله تعالى : << أَنْ يَأْكُلَ >> بلفظ الإستقبال، والمستقبل دوما مغيب، وكل ما هو غيب محتمل وقوعه، ولو كان من أبشع ما سيتقذر الإنسان مجرد التفكير فيه.

ج- لفت النظر إلى أن المعنيّ بالتهجين و الإستقباح هو الأكل ذاته [1]، وليست العبرة بذكر شكل من أشكال هذا الأكل، أو أنّ التحريم إنما كان من أجل حالة من حالاته و هيآته.

5- في قوله تعالى : <<...يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا>>[2] بدل "يمنون عليك إسلامهم"، و في ذلك من الدلالات ما يلي :

أ- تحديد الزمن و هو الماضي في كلمة "أسلموا" لأن فعل الإسلام (الذي جاؤوا به) قد حدث في السابق و ثبت أمره، بخلاف ما لو قيل : يمنون عليك إسلامهم، فقد يحتمل من هذا التعبير أنهم يمنون على الرسول صلى الله عليه و سلم بأنهم يدخلون الآن في الإسلام، أو بأنهم سيدخلون في الإسلام، لكن التعبير الشريف جاء بخلاف ذلك، أي:باستعمال المصدر المؤول مع الفعل الماضي لإثبات دخول هؤلاء الأعراب في الإسلام.

ب- الإشارة إلى إثبات الدخول في الإسلام في حد ذاته و ليس الغرض منصبا -باستعمال (أن أسلموا)- حول صفة من صفات هذا الدخول، أو حول سبب من الأسباب التي دعت إلى هذا الإسلام، إلا ما تضمنت عبارة <<قُلْ لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ>>[3] فهذا أمر آخر يتعلق باستعمال الإضافة، و قد أشرنا إلى ذلك، أي : إلى الغرض الأسلوبي من هذه النسبة[4].

أما الذي نحن بصدد الحديث عنه فهو استعمال المصدر المؤول بدل الصريح في قوله تعالى <<يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا>>[5].

6- في قوله تعالى : <<بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ>>[6] و فيه من الدلالات ما يلي :

---

(1)- و المقصود هو المشبه و هو : الغيبة المنهي عنها.
(2)- الحجرات : 17.
(3)- الآية نفسها.
(4)- تراجع الصفحة: 87 من هذه الدراسة.
(5)- الحجرات : 17.
(6)- الآية نفسها.

أ- تحديد الزمن، و هو الماضي في كلمة "هداكم"، ذلك لأن هداية الله هؤلاء الأعرابَ لطريقِ الحق قد وقعت في السالف منذ أن بيّن لهم – بواسطة الرسول صلى الله عليه و سلم – طريق الحق، و ميزه عن طريق الباطل.

أما لو قيل –مثلا– بل الله يمن عليكم هدايتكم للإيمان، فلربما يكون المقصود أن الله تعالى يمن على هؤلاء الناس أنه بصدد هدايتهم الآن إلى طريق الإيمان، أو أن الله سيهديهم مستقبلا إلى طريق الحق.

لكن التعبير الشريف جاء بما يدل على خلاف ذلك، أي أن الفعل المتضمن في حيز المصدر المؤول قد ثبت و انتهى أمره، طبعا مع مراعاة الفرق بين ما تدل عليه الحروف المتعلقة بفعل الهداية، و قد تناولنا هذا سابقا[1].

ب- الإشارة إلى إثبات فعل الهداية نفسه بصرف النظر عن صفة هذه الهداية أو عن حالتها، بمعنى : أن الله يمن عليهم أن هداهم وَ بَيَّنَ لهم طريق الحق و طريق الباطل، و أرشدهم إلى اتباع طريق الحق، و حذرهم من إقتفاء طريق الشر، سواء أوصلوا إلى ذلك وبلغوا مرتبة الرّاشدين المهديين أم لم يصلوا، لأن الهداية لا تعني بالضرورة الإهتداء[2].

أما لو قيل –مثلا– "بل الله يمنّ عليكم هدايتكم للإيمان"، فقد يكون المراد من هذا التعبير أن الله يمن عليهم أنْ كشفَ لهم طريق الحق و طريق الباطل و أرشدهم، و حذرهم بصورة معينة، و كيفية محددة يجدر الإنتباه إليها و الإهتمام بها.

لكن العبرة من النص – على ما يبدو – هي الإنتباه و الإهتمام بالفعل المتضمن في حيز المصدر المؤول في حد ذاته، و ليس بأمر آخر، هذا على الأقل كمرحلة أولى، و خطوة أساسية تمهد لغيرها من الخطوات.

---

(1)- تراجع الصفحة 139 من هذه الدراسة.

(2)- ينظر : التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج : 26، ص : 268 و 272.
ينظر كذلك : فتح البيان في مقاصد القران : البخاري، ج 13، ص : 156.

**استعمال عبارات متفرقة** : من لطيف ما يلفت انتباه القارئ لآيات السورة الكريمة هو استعمال بعض العبارات في بعض المواضع التي لو خُيِّر هذا القارئ – و تبارك الله أن يُفَضَّل على كلامه كلام– لإختار عبارات أخرى يبدو له أنها الأنسب و الأليق بالإستعمال، أو على الأقل أنه لا يجد أدنى اختلاف بين المعنى الذي تفيده كلتا العبارتين.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى : <<...لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ...>>[1] بدل "...في كل الأمر..."، و قوله كذلك : <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...>>[2] بدل "و إن طائفتان منكم"، و قوله تعالى : <<لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ>>[3] بدل "...بعضكم من بعض" و قوله <<لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ..... وَ لَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ...>>[4] بدل "قوم من نساء ... و نساء من قوم"، و غير ذلك من النماذج التي يتساءل القارئ –بالفعل– عن سر استعمالها بهذا النمط و النظم دون النمط و البنية التي هي أقرب إلى عقول الناس! .

ذلك ما سنحاول التعرف عليه من خلال أهم ما قيل في الشواهد التالية :

1– قوله تعالى : <<... لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ...>>[5] دون عبارة " لو يطيعكم في كلّ الأمر لعنتم..."، و ذلك –ربما– "ليعلم أنه قد يوافقهم و يفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقا لفائدة قوله تعالى : <<وَ شَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ>>[6] "[7]،و بالفعل فقد شاورهم الرسول صلى الله عليه و سلم في الأمر، بل و عَمِل برأيهم في مواقف مختلفة، كإختيار المعسكر الذي تقيم فيه جيوش غزوة بدر[8]، و كذلك عمل برأيهم في غزوة الأحزاب حين قبل فكرة حفر الخندق، بل لقد قال في بعض المواقف عن أنس و عائشة في الحديث الصحيح : "أنتم أعلم بأمر دنياكم"[9]، و هذا فيما يتعلق بأمور الحياة الخاصة.

---

(1)– الحجرات : 07.

(2)– الحجرات : 09.

(3)– الحجرات : 11.

(4)– الآية نفسها.

(5)– الحجرات : 07.

(6)– آل عمران : 159.

(7)– التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص : 124.

(8)– ينظر : التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 235.

(9)– صحيح الجامع الصغير و زيادته: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت– لبنان– 1408هـ1988م، ط 03، المجلد : 01، ص 312.

2- قوله تعالى : <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا>>[1] دون عبارة "و إن طائفتان منكم" "مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ>>[2] تنبيها على قبح ذلك و تبعيدا لهم عنهم، كما يقول السّيد لعبده : إن رأيت أحدا من غلماني يفعل كذا فامنعه، فيصير بذلك مانعا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن"[3]

و معنى هذا أن في استعمال عبارة "من المؤمنين" بدل "منكم" لفتا للأنظار بعيدا عن هؤلاء المُخَاطِبينَ كأنّ المعنيّ بالأمر هم قوم آخرون لا صلة لهم بهؤلاء المُخَاطَبين، و هو أسلوب رائع حيث كان الغرض إبعاد هؤلاء المخاطبين عن هذه الصفة، و تبرئتهم منها أو على الأقل الترغيب في أن يتبرؤوا من تلك الصفة و يبتعدوا عنها، و هذا لقبحها.

فكما أنّ أمرَ السيد للعبد بمنع الغلمان من فعلٍ معين يتضمّن منعَ هذا العبد من ذاك الفعل، فإن في قوله تعالى <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا>> ما يشمل المُخَاطِبينَ بالطريق الأولى، و فيه من استهجان فعل الإقتتال ما لا يخفى.

3- قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ>>[4] دون عبارة "لا يسخر بعضكم من بعض" كما في قوله تعالى : <<... وَ لَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضًا>>[5].

و هذا -ربما- "للنهي عما كان شائعا بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجه [الله تعالى] النهي إلى الأقوام"[6] بدل الأفراد، بيد أن هذا لا ينفي نهي الأفراد عن سخرية بعضهم من بعض، لأن العبرة -في غالب آيات القرآن الكريم- بالعموم لشمول النص القرآني و النص التشريعي عموما.

و لعله لأجل هذا الغرض عطف على النهي عن السخرية، النهيُ عن اللمز و التنابز، و هو من قبيل عطف الخاص على العام لزيادة توضيح المجمل، و تأكيد ما هو متضمّن في قوله تعالى : <<لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ>>.

---

(1)- الحجرات : 09.

(2)- الحجرات : 06.

(3)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص : 127.

(4)- الحجرات : 11.

(5)- الحجرات : 12.

(6)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج 26، ص 247.

4- قوله تعالى : <<...لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ..... وَ لَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ... >>[1] دون عبارتي "لا يسخر قوم من نساء ... و لا نساء من قوم"، و للعلماء المفسرين في ذلك أقوال و آراء منها :

أ- "أن سخرية الجنس من الجنس أكثر، فأقتصر على ذلك"[2] و معنى هذا أن سخرية الجنس من جنسه أكثر انتشارا من سخريته من الجنس الآخر، أي أن سخرية الرجال من الرجال أكثر من سخرية الرجال من النساء، و سخرية النساء من النساء أكثر من سخرية النساء من الرجال، و لذلك اكتفى بالنهي عن السخرية الأكثر وجودا و انتشارا، و ما هو أقل انتشارا يندرج تحت ما هو أكثر انتشارا بطريق الأولوية.

ب- "الإشعار بأن مجالسة الرجل المرأةَ مستقبح شرعا حتّى منعوها عن حضور الجماعة ... [ذلك] لأن الإنسان إنما يسخر ممّن يلابسه غالبا"[3]. و معنى ذلك أنه لما كانت مجالسة الرجال للنساء -عموما- من الأمور المذمومة و المستقبحة شرعا إذا لم تكن هناك مبررات شرعية كالمعالجة، و التشاور، و التعليم، فقد كان من الطبيعي أن لا يجد هؤلاء الرجال من يسخرون منهم إلا من كانوا على شاكلتهم، و كذلك الأمر بالنسبة للنساء.

ج- أن "عدم الإلتفات و الإستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال، لأن المرأة في نفسها ضعيفة فإذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر...، و أما المرأة فلا يوجد منها إستحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها في دفع حوائجها إليه. وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال و النساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح و هذا أشهر"[4].

و لعل ما في هذا الرأي من البساطة ما لا يحتاج إلى بيان، و من المطابقة للواقع -في أغلب الحالات- ما لا يحتاج إلى نقاش.

إلا أن الذي بوسعنا أن نقوله هو أن كل هذه الإحتمالات واردة، و لكن تبقى الحكمة من هذه الإستعمالات وسرّ كل هذه التعابير، الأول و الأخير، عند الله تعالى <<وَ مَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا>>[5].

---

(1)- الحجرات : 11.

(2)- غرائب القران و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص : 88.

(3)- روح البيان : البرسوي، ج 26، ص : 79.

(4)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص : 132.

(5)- الإسراء : 85.

5- قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ>>[1] بدل عبارة "...اجتنبوا كل الظن" ذلك "لأن المأمور باجتنابه بعض الظن [و ليس كل الظن]. و ذلك البعض موصوف بالكثرة"[2]، وكذلك "ليحتاط الإنسان في كل ظن و لا يسارع فيه بل يتأمل و يتحقق"[3]، ثم إن الله تبارك و تعالى "قد أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير فقال : <<لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ>>[4] "[5]، ففي التعبير الشريف إذن "إخراج الظنون التي عليها تُبْقَى الخيرات"[6]، لأن من الظنون ما هو واجب كحسن الظن بالله تعالى و بالأنبياء و المرسلين، و منها ما هو محظور كسوء الظن به و بأهل التقوى و الصلاح[7]، و منها ما هو مندوب و هو الذي يكون فيه المظنون به مجاهرا بالفسق، و لأجل ذلك أُمِر المسلمون بتبين الأقوال التي ينقلها الفَسَقَة. و لعل ما يعزّز هذا كله[8] هو قول الله تعالى: <<إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ>>[9] بما تتضمنه الآية من دلالة قاطعة على أن المراد بالإجتناب بعض الظنون و ليس كلّ الظنون، و مهما كانت الظنون المأمور باجتنابها كثيرة فإن هذا لا يمنع من أن يكون المَعْنِيُّ بالترك هو البعض لا الكلّ.

6- قوله تعالى : <<...وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...>>[10] دون عبارة "...واجتنبوا الغيبة" و هذا ربما "لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله <<أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا>>[11]، لأنه لمّا كان ذلك التمثيل مشتملا على جانب فاعل الإغتياب و مفعوله مُهِّد له بما يدل على ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحا"[12].

و المقصود بفاعل الإغتياب يكمن في قوله:«أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ»، و المقصود بمفعوله في قوله:«لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» .

---

(1)- الحجرات : 12.

(2)- تفسير النسفي : ج : 03، ص : 171.

(3)- صفوة التفاسير : الصابوني، المجلد : 03.

(4)- النور : 12.

(5)- جامع البيان : الطبري : المجلد 11، ج 26، ص 85.

(6)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص : 134.

(7)- ينظر غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص : 89.

(8)- أي : أن المأمور باجتنابه هو بعض الظن و ليس كل الظن.

(9)- الحجرات : 12.

(10)- الآية نفسها.

(11) الآية نفسها.

(12)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور : ج : 26، ص 254.

و نعل في هذا الإستعمال ما يزيد الصورةَ جمالاً أكثر، و الأسلوبَ روعةً أوضح، و ربما ما كان ليوجد ذلك الجمال و تلك الروعة بقدر ما وُجِدا بهذا النمط الذي جاءت به الآية الكريمة.

7- قوله تعالى : <<...وَ لَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُمْ بَعْضًا...>>[1] دون عبارة "و لا تغتابوا أنفسكم" كما في قوله تعالى : <<وَ لَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ>>[2] لأن "من إغتاب فالمغتاب أولا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل و لا تغتابوا أنفسكم لِمَا أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من إغتابه، و العيب حامل على العيب"[3].

ومعنى هذا أن اللمز سرعان ما يؤدي إلى وقوعه على ذات اللامز. أما الغيبة فلا يدري من أغتيب بأن عِرضه قد نُهش، فلا يكون منه رد فعل، بل قد تراه يفعل ويقول ما تقرّ به عين من يغتابه.

فربما لأجل هذا الغرض استُعملت في -اللمز- عبارة«وَ لَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ»، و في الغيبة عبارة«وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

8- قوله تعالى : <<قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا>>[4] مع أن "الذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا و لكن قولوا أسلمنا أو قل لم تؤمنوا و لكن أسلمتم"[5]، و هذا لِمَا في التعبير المستعمل في الآية الكريمة من "تكذيب دعواهم أولا و دفع ما انتحلوه فقيل : قل لم تؤمنوا، و روعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه فلم يقل : كذبتم، و وضع لم تؤمنوا الذي هو نفي ما إدعوا إثباته موضعه، ثم نُبِّهَ على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في صفة المخلصين <<أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ>> تعريضا بأن هؤلاء هم الكاذبون و رُبَّ تعريض لا يقاومه التصريح، و استُغْنِي بالجملة التي هي : لم تؤمنوا عن أن يقال : لا تقولوا آمنوا[6] لاستهجان أن يُخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ثم وُصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الإستدراك محمولة على المعنى، و لم يقل و لكن أسلمتم، ليكون خارجا مخرج الزعم و الدعوى، كما كان قولهم آمنا كذلك، و لو قيل أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم و الإعتداد بقولهم و هو غير معتد به"[7].

---

(1)- الحجرات : 12.

(2)- الحجرات : 11.

(3)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص : 134.

(4)- الحجرات : 14.

(5)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج : 06، ص 22.

(6)- الظاهر أن هناك خطأ مطبعيا فمن المفروض أن تكون كلمة (آمنا) في هذا الموضع.

(7)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج : 06، ص 22.

ينظر أيضا من أسرار التعبير في القرآن-صفاء الكلمة: عبد الفتاح لاشين: دار المريخ للنشر-الرياض 1403هـ-1983م،ص8-9

و خلاصة هذا الكلام أن في استعمال النظم الذي عليه الآية الكريمة فائدتين :

أ- مراعاة الأدب عند تكذيب دعوى هؤلاء الأعراب بالإيمان، و ذلك في قوله تعالى <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا>> دون عبارة "لا تقولوا آمنا" لِمَا في هذه الأخيرة من غلظة و فضاضة.

ب- التأكيد على أنهم لم يبلغوا درجة الإيمان، و التلويح بأنهم لم يصلوا حتى إلى درجة الإسلام، و ذلك في قوله تعالى : <<وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا>> دون عبارة "و لكن أسلمتم"، لما في هذه الأخيرة من الإعتداد بما جاؤوا به.

9- قوله تعالى : <<بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ>>[1] دون عبارة "أن هداكم" أو عبارة "أن أسلمتم" أو "أن آمنتم"، و فيه لطيفة رائعة و هي أن "إسلامهم كان ضلالا حيث كان نفاقا فما منَّ به عليهم، فإن قيل: كيف منَّ عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بيّن أنهم لم يؤمنوا؟ نقول : الجواب عنه من ثلاثة أوجه : (أحدهما) أنه تعالى لم يقل : بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان، بل قال (أن هداكم للإيمان) و إرسال الرسل بالآيات البينات هداية. (ثانيها) هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا، فكأنه قال أنتم قلتم آمنا، فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار، فقال : هداكم في زعمكم. (ثالثها) هو أن الله تعالى بين بعد ذلك شرطا فقال <<إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ>>[2] "[3] أي إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان فإن لله المنة عليكم في هدايتكم إليه، و لعل هذا هو الأقرب إلى الصواب، و قد أشرنا إلى هذه المعاني عند الحديث عن إيثار تعدية فعل الهداية باللام دون (إلى) و دون تعديته بنفسه، و ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل[4].

بعد هذا العرض لأهم ما ورد في الحجرات من نماذج لاستعمال العبارات و تفضيل بعضها على بعض، و بعد هذه المعاينة لأبرز الشواهد الصارخة و الناطقة بتفرد أسلوب القرآن في اختيار العبارات، لا يسعنا إلا القولُ بأن أسلوب القرآن الكريم قد علا -بالفعل- كعبُه و عزّ على البشر الإتيان بمثله، فما من جملة أوثرت على غيرها إلا لحكمة أرادها الله، و ما من نظم فُضِّل على غيره إلا لسرٍ ابتغاه الله تبارك و تعالى، سواء تجلّى للناس ذلك السر و بدت لهم الحكمة من ذلك أَمْ لَمْ يكن لهم من ذلك شيء.

---

(1)- الحجرات : 17.

(2)- الآية نفسها.

(3)- التفسير الكبير : الرازي، ج 26، ص : 144.

(4)- تراجع الصفحة من هذه الدراسة، أو ينظر : بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج : 02، ص 21 و 22.

لـ 139

و مع أن الجهود التي بذلت للكشف عن تلك الأسرار و الحكم قد وفقت في كثير من المواقف في إرضاء العقل البشري ببعض ما يشبع لهفته المعرفية، إلا أن ما يجب التنبيه إليه هو أن مراد الله تعالى من كلامه لا يمكن أن يدرك كلية من طرف عقولٍ هو خالقُها.

و مع ذلك يمكن الخروج بهذه النتائج :

أ- أن لإستعمال العبارات في القرآن الكريم و تفضيل بعضها على بعض دورا في توجيه العقيدة وجهة الصواب، و تصحيحها لدى بعض الناس، و لعل هذا ما يستنبط من قوله تعالى <<قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ>>[1] و قوله <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ>>[2].

و قد تحدثنا عن تفاصيل ذلك عند استعراض النماذج المتعلقة باستعمال عبارات متفرقة[3]، و استعمال الجملة الموصولة[4].

ب- أن لاستعمال العبارات في القرآن الكريم دورا في تعليم الناس حسن اختيار الكلمات المناسبة للتكذيب و رد الدعوى، و هذا الذي لمسنا أثره في قوله تعالى : <<قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا>>[5].

ج- أن لاستعمال العبارات دورا في التنبيه إلى مركز الثقل في الموضوع المتناول، و هذا الذي لمسنا أثره في قوله تعالى -مثلا- <<فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي>>[6] باستعمال الجملة الموصولة دون غيرها[7].

د- أن لاستعمال العبارات دورا في توضيح الكثير من الجوانب التشريعية، و قد لمحنا معالم ذلك من خلال قوله تعالى -مثلا- <<لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ>>[8]

---

(1)- الحجرات : 14.

(2)- الحجرات : 15.

(3)- تراجع الصفحة 191 من هذه الدراسة.

(4)- تراجع الصفحة 180 من هذه الدراسة.

(5)- الحجرات : 14. تراجع الصفحة 195 من هذه الدراسة.

(6)- الحجرات : 09.

(7)- تراجع الصفحة 180 من هذه الدراسة.

(8)- الحجرات : 07.

و تعرفنا على الفرق التشريعي و المعاملاتي بين ما تدل عليه هذه الجملة، و ما يمكن أن تدل عليه جملة "لو يطيعكم في كل الأمر لعنتم"[1].

و قريبا من هذا ما دلت عليه الآية <<... اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ>>[2] دون عبارة "... اجتنبوا كل الظن"[3].

ه- أن لاستعمال العبارات دورا في خدمة الجانب الأسلوبي، و الصورة البيانية الرائعة و التي لها الأثر الكبير بدورها في خدمة الجانب التشريعي، و مثال ذلك قوله تعالى : <<وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا>>[4] دون عبارة "اجتنبوا الغيبة"[5].

و غيره من النماذج.

---

(1)- تراجع الصفحة 191 من هذه الدراسة.

(2)- الحجرات : 12.

(3)- تراجع الصفحة 194 من هذه الدراسة.

(4)- الحجرات : 12.

(5)- تراجع الصفحة 194 من هذه الدراسة.

# المبحث الخامس

## أسـرار التقـديم و التأخيـر

تقـديم موضوعـات على أخـرى.

تقـديم مفـردات على أخـرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الذي نعنيه بـ"أسرار التقديم و التأخير" هو الكشف عن الأسباب و الأهداف التي من أجلها وجد في السورة الكريمة تقديم لفظ على لفظ، و عبارة على أخرى، و كذا تقديم الحديث عن موضوع قبل آخر.

فمن خلال قراءة متأنية لآيات السورة الكريمة لا شك أن يتساءل القارئ بينه و بين نفسه عن الحكمة من تقديم موضوع الحديث عن واجب المسلم مع ربه و مع الرسول صلى الله عليه و سلم على موضوع موقفه من الأنباء التي يأتي بها غير العدول، و كذا تقديم الحديث عن التحذير من نبإ الفاسق على موضوع الإقتتال بين الطائفتين المؤمنتين، و أيضا تقديم موضوع التحذير من سوء الظن على موضوع التحذير من التجسس على موضوع النهي عن اغتياب المسلم لأخيه المسلم، ...هذا كلّه من جهة.

و من جهة أخرى فمما يلاحظ على آيات السورة و بالتحديد على ألفاظها، هو تقديم لفظ على لفظ في كثير من المواضع، كتقديم "سميع" على "عليم"، و تقديم "غفور" على "رحيم" و تقديم الفعل على الفاعل في قوله تعالى : <<إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ>>[1] مع أن الفاعل قد قُدِّم على الفعل في موضع كهذا في قوله تعالى : <<وَ إِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ>>[2]، و قوله <<وَ إِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوِ إِعْرَاضًا>>[3]، بل و في السّورة مدار البحث نفسها في قوله تعالى : <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا>>[4]، و غير ذلك...

فما عساها تكون تلك الأسرار يا ترى ؟ و إلى أي حد يمكن أن يكون لهذا التقديم و التأخير في كلام الله تعالى أهداف و حِكَم و غايات ؟

ذلك ما سوف نحاول التعرف عليه من خلال الشواهد الواردة في السورة الكريمة، لكن و قبل الشروع في عرض هذه النماذج يحسن بنا أن نورد كلاما للجرجاني يشيد فيه بقيمة التقديم و التأخير في كلام العرب عموما، حيث يقول : "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، و يلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك و لطف عندك أن قُدّم فيه شيء و حوّل اللّفظ عن مكان إلى مكان"[5]. هذا و قد إهتمّ آخرون أيضا بهذا الفن، منهم :

---

(1)- الحجرات : 06.
(2)- التوبة : 06.
(3)- النساء : 128.
(4)- الحجرات : 09.
(5)- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، ص 117.

محمود السيد شيخون في كتابه:أسرار التقديم و التأخير في القرآن الكريم حيث يقـــول : "إن هذا الفن الجميل يشتمل على كثير من اللّطائف و الأسرار في اللّغة و القرآن لا يدركـها إلا أصحاب البصائر المنيرة و الأذواق السليمة"[1].

و كذلك ابن قيم الجوزية في كتابه : الفوائد المشوق، و غيرهم...

أما عن أسرار التقديم و التأخير في كلام الله، و بالتحديد في سورة الحجرات فإليك بيانـها من خلال هذين المطلبين :

**المطلـــب الأول** : تقديم موضوعات على أخرى : و الذي نعنيه بذلك هو مـــا يلاحَـظُ على موضوعات السورة الكريمة من تقديمٍ لبعض الموضوعات على موضوعات أخرى علـــى أساس ما يتضمنه كل موضوع، ربما لاعتبار الخطورة و الأهمية، أو لاعتبار التّرقي من الأدنى إلى الأعلى تماشيا مع سنة التدرج في التشريع.

و مـــن أمثلـــة ذلك ما يلـــي :

1- الترتيب الملموس في الموضوعات الخمسة الأساسية التي تضمنتها سورة الحجـرات، و قد أشرنا إلى ذلك -في التمهيد لهذه الدراسة- عند الحديث عن التّرابط الموضوعـــي لآيـــات السورة.و مُلَخَّص القول في ذلك أن الله تعالى قد أرشد المؤمنين -أولا- إلى وجوب الإنصيـــاع لأوامر الله تعالى بعدم التقديم بين يديه، و ذكرُ الرسول صلى الله عليه و سلم هنا لأن طاعة الله لا تُعلم إلا بطاعة الرسول عليه الصلاة و السلام، ثم أرشد الله المؤمنين إلى وجـــوب احـــترام النبي عليه الصلاة و السلام باعتباره المبلغ عن الله تعالى، ثم أمرهم بوجوب الإحتراز من أقوال الفاسق، مُبيّناً ما يمكن أن ينجر عن ذلك من الفِتَن بين المسلمين، ثم حذّرهم من إيذاء بعضـــهم البعض سواء في حضرتهم، أو في غيابهم[2]. هذه هي أهم موضوعات السورة الكريمة.

والمتأمل في هذه المواضيع العامة للسورة يجد أنها في غاية الترتيب، فما قُدِّم منـــها،مـــا كان من حقه إلا أن يُقدّم، و ما أُخِّر، ما كان من حقه إلا أن يُؤخر.

فإن قيل -مثلا- كيفُ يذكر الفاسقُ قبل الحديث عن حقوق المؤمنين على بعضـــهم بعـــد تأديتهم لحق الله تعالى بالطاعة، و للرسول صلى الله عليه و سلم بالإحترام ؟

---

(1)- أسرار التقديم و التأخير في لغة القرآن : محمود السيد شيخون، ص : 125.

(2)- تراجـــع الصفحـــة: 07 مـــن هـــذه الدراســـة.

نقول أن الله تعالى قد قَدّم "ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جانب الله، ثم جانب الرسول، ثم ذكر ما يُفضي إلى الإقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق... و أما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذِي المؤمنَ إلى حدٍّ يفضي إلى القتل "[1]، و لذلك ذكر الله تعالى -بعد الحديث عن نبإ الفاسق- قوله : <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا>>[2].

أما عن موضوع النداء المتعلق بالناس و موضعه من مباحث السورة، فمردّ ذلك أن الله تعالى لمّا حذر من إيذاء المؤمن و امتهانه و الإفتخار عليه بالجمال و الجاه و كثرة النفر و غير ذلك كالنسب مثلا، هتف الله بالبشرية جمعاء و بين لهم أنه لا مجال للتفاخر على بعضهم، لأن الكل من طينة واحدة، و إذا كان و لا بد من الإعتزاز، فإن ذلك يكون بمقدار العمل بأوامر الله تعالى و الإنتهاء عن نواهيه، و من تلك الأوامر و النواهي ما ورد في هذه السورة الكريمة،على سبيل الذكر.

2- تقديم موضوع النهي عن رفع الأصوات فوق صوت النبي صلى الله عليه و سلم و الجهر له بالقول، و موضوع الثناء على الغاضين أصواتَهم في حضرة النّبي عليه الصلاة و السلام على موضوع توبيخ الذين ينادونه صلى الله عليه و سلم من وراء حجرات نسائه نداء الأجلاف "لأن هذا[3] أولى بالإعتناء إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب"[4].

و معنى ذلك أن في تقديم الحديث عن الموضوعَيْنِ المذكورين على موضوع التوبيخ الذي تحدثنا عنه إشارة إلى أن الحكمة تقتضي أن يأتي النهيَ أولا ثم يُرْدَف بذكر النموذج من واقع الحياة، و إذا ما كان هناك نموذجان مختلفان،أحدهما في جانب الإيجاب و الآخر في جانب السّلب، فمن العدل أن يُبدأ بضرب المِثال الذي هو في جانب الخير لأهميته و الإشارة إلى وجوب الإعتناء به أولا قبل غيره، ثم بعد ذلك يؤتى بالمثال الذي في الجانب المغاير لقصد العبرة و الإتّعاظ.

3- تقديم موضوع التحذير من نبإ الفاسق على موضوع الإقتتال بين الطائفتين المؤمنتين، ولعل هذا النموذج من أوضح النماذج التي نوردها حول ظاهرة التقديم و التأخير، وذلك أنه لمّا "حذر -سبحانه- المؤمنين من النبإ الصّادر من الفاسق بَيّن...ما ربما ترتب على خبره من النزاع

---

(1)- التفسير الكبير : الرازي : ج 26، ص 119.

(2)- الحجرات : 09.

(3)- أي النهي عن رفع الأصوات و الثناء على الغاضين لها عند رسول الله صلى الله عليه و سلم.

(4)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج : 26، ص 218،و ذلك في الآيات : 2--3-4 من السورة.

بين فئتين و قد يؤول الأمر إلى الإقتتال"[1] بينهما، وبغي إحداهما على الأخرى، و هي نتيجة جدّ منتظرة عندما يكون هناك إصغاء لأقوال الفاسقين دون تبيّن الغثّ من السّمين منها.

و هو ترتيب منطقي في الكلام حيث ذكر السبب أولا ثم النتيجة المحتملة، و عليه فالتقديم هنا لم يكن عفويا، و إنما كان مقصودا، و حاشا لله أن يكون حرفٌ من كلامه العزيز قد جُلب وَ وُضع من باب التلقائية دون أن يكون لذلك الوضع هدف مرسوم.

4- تقديم موضوع النهي عن السخرية على موضوع النهي عن اللّمز على موضوع النهي عن التنابز بالألقاب : و هي -على ما يبدو- أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض[2]، "فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال و لا يلتفت إليه و يسقطه عن درجته، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب، و هذا كما قال بعض الناس : تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر، وأقل من أن يلتفت إليه، فقال لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم (الثاني)[3] هو اللمز و هو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته و هذا دون الأول، لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه (الثالث) هو النبز وهو دون الثاني، لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفا ثابتا فيه يوجب بغضه وحظ[4] منزلته،... فقال لا تتكبروا فتستحقروا إخوانكم وتستصغروهم بحيث لاتلتفتوا إليهم أصلا وإذا نزلتم عن هذا... فلا تعيبوهم طالبين حط درجتهم و الغض عن منزلتهم، و إذا تركتم النظر في معايبهم و وصفَهم بما يعيبهم فلا تسمّوهم بما يكرهونه"[5].

و خلاصة هذا الكلام أن الله تعالى نهي عن السخرية أولا باعتبارها الأخطر و الأكبر ضررا، ثم عطف على هذا النهي النهيَ عن اللمز و هو دون السخرية ضررا و خطرا، ثم عطف على هذا النهي النهيَ عن التنابز بالألقاب و هو الأقل خطورة و ضررا، و كلها من قبيل عطف الخاص على العام.

و للسائل أن يقول : إنه كان بالإمكان أن يُكتفَى بالنهي عن السخرية و هي أعمّ و أشمل لهما، فنقول : ربما ذلك من باب الزيادة في التفصيل و التأكيد على النهي عن كل أشكال السخرية و الإستهزاء و الحط من قيمة الغير.

---

(1)- تفسير المراغي : ج 26، ص 130. و ذلك في الآيتين : 6-9 من السورة.
(2)- ينظر التفسير الكبير : الرازي، ج : 26، ص 131. و هذا في الآية : 11 من السورة.
(3)- على تقدير أن (فالسخرية) هي (الأول).
(4)- هكذا وجدتها في النسخة، و لعل المراد (حط) و ليس (حظ).
(5)- التفسير الكبير : الرازي، ج : 26، ص 131.

و هو من باب التدرج من الأدنى إلى الأعلى، و معنى هذا -حتى لا تبدو أن هناك مفارقة بين قولنا أن النهي عن اللمز و التنابز بعد النهي عن السخرية هو من باب عطف الخاص على العام، و فكرة أن هذا من باب التدرج من الأدنى إلى الأعلى و السخرية هي الأعلى،واللّمز و التنابز هما الأدنى-، نقول : أن هذا تدرج من الأدنى إلى الأعلى، لأن التخلي عن العظائم و الكبائر على وجه العموم هو أخف على النفس من التخلي عن الصّغائر و أشكال اللّمم.

و السخرية هي أكثر وزرا -على أساس التعريف السابق- من اللّمز، و اللّمز أكبر من التنابز، و عليه فالذي يطيق الإنسانَ فعله هو التخلي -أولا- عن السخرية، ثم بعد ذلك اللمز، ثم بعد ذلك التنابز.

و هذا الذي نهدف إليه من قولنا أن في هذا العطفِ :ـعطفِ الخاص على العامـتدرّجًا من الأدنى إلى الأعلى.

فالرسل -مثلا- عليهم السّلام حينما جاؤوا أقوامهم إنما دعوهم أولا إلى التوحيد و نبذ كل أشكال الشرك ثم بعد ذلك نقلوا إليهم الشرائع العملية و تفصيلاتِها. و التوحيد -كما هو معلوم- أهم و أخطر و أولى بالإهتمام من غيره من الأحكام العملية التي تأتي تبعا له، و هكذا...

5- تقديم موضوع الأمر باجتناب الظن على موضوع النهي عن التجسس على موضوع النهي عن الغيبة : و ذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا...﴾[1]، فقد "جاء الأمر أولا بإجتناب الطريق الذي يؤدي إلى العلم و هو الظن ثم نهى ثانيا عن طلب تحقق ذلك الظن فيصير علما [و ذلك] بقوله [تعالى] و لا (تجسسوا) ثم نهى ثالثا عن ذكر ذلك إذا عُلِم، فهذه أمور ثلاثة مترتبة ظن فعلم بالتجسس فاغتياب"[2].

و هو تعبير -كما ترى- قمة في الحسن و الترتيب سواء من الجانب العقلي المنطقي، أو من الجانب الواقعي الميداني، فالظن غالبا ما يكون السبب في حصول كثير من المعلومات، و جل المعلومات التي يتلهف للحصول عليها و جمعها من طرف الخصماء إنما تكون عن طريق التجسس، و التجسس غالبا ما يدفع بصاحبه إلى التكلم في أعراض المتجسس عنهم ليشفي غليله فيهم، و هكذا...

---

(1)- الحجرات : 12.

(2)- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ج: 08، ص 115.

6- تقديم الحديث عن الخلق من ذكر و أنثى عن موضوع الجعل شعوبا و قبائل، و هذا في قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا>>[1]، و هذا لأن "الخلق يستعمل في الأصول أكثر و الجعل يستعمل فيما يتفرع عليه و لهذا قال [تعالى] : <<خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ>>[2]"[3] ذلك لأن خلق السماوات و الأرض إنما كان الأسبق من جعل الظلمات و النور، أي : الليل و النهار، كما أن السماوات و الأرض أشمل خلقا من الظلمات و النور، أو بالأحرى من مصدر النور، و هو الشمس في نظام الكون، ثم إن (السماوات و الأرض) أمر ثابت، أما الظلمات و النور فبينهما تعاقب و تداول، و عليه فتقديم موضوع خلق السماوات و الأرض -ربما- لأمور ثلاثة هي :

أ- الأسبقية، أي : الأسبقية في الخلق.

ب- الإتساع، أي : أن حجم السماوات و الأرض أكبر من حجم الشمس التي هي مصدر النور.

ج- الثبات، أي : أن من شأن السماوات و الأرض الثبات، بخلاف التعاقب الذي يكون بين الظلمات و النور.

هذا كله من جهة، و من جهة أخرى، فإن الخلق -في منطق القرآن الكريم- إنما هو للعبادة، كما جاء في قوله تعالى : <<وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ>>[4] أي : لغاية واحدة فقط، هي العبادة، و أما الجعل شعوبا و قبائل فللتّعارف[5].

و الأمر بالعبادة أولى من الأمر بالتعارف، و أشمل له، وأسبق منه، لأن التعارف جزء من التشريع، والعبادة هي التشريع، فهي الكل، وإذا ما كان هناك تخيير، فالخيار إنما يكون في جانب الله تعالى قبل النظر إلى جانب العبد بَلْهَ الشعوب والقبائل على اختلاف أجناسها ومعتقداتها.

و على "إعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة، كما أن الجعل شعوبا يتحقق بعدما يتحقق الخلق"[6] وما يقتضيه هذا الخلقُ، على الأقل من زاوية التصور القرآني لوظائف المخلوق في هذه الحياة.

---

(1)- الحجرات : 13.

(2)- الأنعام : 01.

(3)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 94.

(4)- الذاريات : 56.

(5)- ينظر التفسير الكبير : الرازي، ج : 26، ص 138.

(6)- التفسير الكبير : الرازي، ج : 26، ص 138.

وقريب من معنى هذه الآية الكريمة قوله تعالى : <<وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا>>[1]، فالجعل نسبا و صهرا إنما حدث بعد الخلق من الماء.

7- تقديم الحديثِ عن الإيمان بالله و رسوله، و الحديثِ عن عدم الإرتياب على الحديث عن المجاهدة بالمال ثم بالنفس : و ذلك في قوله تعالى : <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ>>[2].

فالإيمان بالله و رسوله صلى الله عليه و سلم مع عدم الإرتياب فيه إشارة إلى حصول العلم اليقين و الحكمة البالغة التي هي دليل قوة التفكر، أما المجاهدة بالأموال فللدّلالة على العفة و الجود، و هما بالضرورة تابعان لإصلاح قوة الشهوة، ثم المجاهدة بالنفس للدلالة على الشجاعة و الحِلم، و هما بالتأكيد تابعان لإصلاح قوة الحمية الغضبية وقهرها وإسلامها للدين[3].

إذن، و على ضوء هذا البيان، يمكن القول أن الآية بترتيبها الذي رُتّبت عليه قد شملت "مجامع القوى التي وجب على كل أحد تهذيبُها و إصلاحها تطهيرا لنفسه الحاصل به الفوز بالفلاح و السعادة... و هي قوة التفكر و قوة الشهوة و قوة الغضب"[4]، مع ما في ذلك من ترتيب رائع فالأهم ثم المهم ثم ما دونهما.

هذه جملة من أهم النماذج الواردة في الحجرات عن تقديم موضوعات على أخرى ذكرناها و حاولنا الكشف عن أسرارها، مستعينين في ذلك بشيء من النقل و شيء من النظر، وكما سبق و أن ذكرنا فإن كل هذه الآراء ما هي إلا جهود و محاولات قد تصيب كلّ الحقيقة، و قد لا تصيب إلا بعضَها، و تبقى الحكمة الأولى و الأخيرة، الظاهر منها و الباطن في علم الغيب عند الله، و ما عند الله لا يعلم كنهه و جوهره إلا الله تبارك و تعالى.

هذا عن تقديم موضوعات على أخرى، طوينا صفحة الحديث عنه لنفتح صفحة الحديث عن نوع آخر من التقديم و التأخير، و هو -كما ذكرنا في التمهيد- تقديم بعض الألفاظ على بعض، فما عساها تكون أبعاد هذا التقديم و أسراره يا ترى؟

هذا الذي نرغب في البحث عنه و الكشف عن بعض أهدافه من خلال الشواهد التي نقدمها إليك في المطلب التالي :

---

(1)- الفرقان : 54.

(2)- الحجرات : 15.

(3)- ينظر روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 95.

(4)- روح البيان : البرسوي، ج : 26، ص 95.

المطلـب الثـانـي : تقديم مفردات على أخرى : و الذي نعنيه بذلك هو وضع لفظ قبل لفظ، أو بتعبير آخر، هو استعمال كلمة قبل كلمة أخرى مع أن المعنـى-الظـاهر- لا يعتريـه أي خلل في حالة ما إذا قُدِّم اللفظ المتأخر، أو أُخِّر اللفظ المتقدم.

في الحقيقة لقد عجت آيات السورة الكريمة بهذا الضرب من التقديم و التـأخير، و قـد حاول كثير من العلماء و المفسرين كشف الستار عن هذه الأسرار. فإليك هذه النماذج مقرونـة ببعض ما ورد فيها من آراء و أقوال :

1- تقديم لفظ الجلالة (الله) على لفظ (رسوله) في قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ>>(1) و قوله أيضا <<... وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً...>>(2) و قوله كذلك : <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...>>(3).

أ- أما بالنسبة للآيتين الأولى و التي بعدها، فلأن طاعة الله هي الأصل، و لذلك قُدّم لفظ الجلالة، و أما طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم، فهي فرع مـن طاعـة الله تعالى، و لذلك أُخِّر لفظ (رسوله)، لأن حق الأصل أن يقدم على الفرع، هذا -علـى الأقل- من الجانب العقلي المنطقي، و لعل ما يؤكد هذا هو صريح مدلول قوله تعالى: <<مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ>>(4).

ب- و أما بالنسبة للآية الموالية، فقد قُدم لفظ الجلالة -أيضا- على لفظ (رسوله) لأن الإيمان بالله هو أولى من الإيمان بغيره، بل إن الإيمان بالله تعالى هو أصل للإيمـان بالرسول عليه الصلاة و السلام، فإن قيل : كيف هذا، و الرسول هو المبلغ عـن الله تعالى ؟ نقول : بأنّه لو لم يحصل إيمان خفي أو صريح بالله تعالى عند هذا الإنسـان حينما رأى من الآيات البينات و الدلائل القاطعة على وجـود خـالق و رب للكـون و مُسَيِّرٍ له و متصرِفٍ فيه، لما كان من هذا الإنسان أدنى استعداد للإصغاء إلى هـذا الرسول و الإيمان به و إتباع ما يأمر به و إجتناب ما ينهى عنه.

---

(1)- الحجـرات : 01.

(2)- الحجـرات : 14.

(3)- الحجـرات : 15.

(4)- النسـاء : 80.

2- تقديم (سميع) على (عليم) في قوله تعالى : <<... وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ>>[1]

المعلوم أن السمع إنما يكون للأصوات عموما، و للكلام على وجه الخصوص، و وسيلة التكلم -عند الإنسان- هي اللسان، و"حركة اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح و أشدها تأثيرا في الخير و الشر و الصلاح و الفساد، بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان فكان تقديم الصفة المتعلقة به أهم و أولى، و بهذا يعلم تقديمه على العليم حيث وقع"[2]، أي : تقديم (سميع) على (عليم) أينما وقعت هذه العبارة في آيات أخرى من القرآن الكريم.

و قد يعزز هذا ما قاله الرسول صلى الله عليه و سلم في شأن اللسان و ما تنطق به هذه الحاسة من ألفاظ لا يُلقي لها صاحبها بالا فتهوي به في النار، أو ألفاظ لا يلقي لها بالا فتكون السبب في رضوان الله عليه.

"فعن بلال بن الحارث المزني، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها له رضوانه إلى يوم يلقاه، و إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها له سخطه إلى يوم يلقاه"[3]"[4].

"و عن أبي هريرة، أنه قال : "إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم، و إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في الجنة" "[5].

"وعن عطاء بن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من وقاه الله شر اثنين[6] ولج الجنة" "[7].

"وعن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق و هو يجبذ[8] لسانه، فقال له عمر: مه، غفر الله لك، فقال أبو بكر : إن هذا أوردني الموارد"[9]، وربما كان يقصد المهالك.

---

(1)- الحجرات : 01.

(2)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : المجلد : 01، ج 01، ص 74.

(3)- قال ابن عيينة : الكلمة الأولى عند السلطان ليرده بها عن ظلم، والثانية ليجره إلى ظلم. هذا في موطأ الإمام مالك: رواية يحيى بن يحيى اللّيثي، إعداد أحمد راتب عمروش، ص 697.

(4)- المصدر نفسه.

(5)- المصدر نفسه.

(6)- يقصد فمه و فرجه ، االمصدر نفسه. ص 699.

(7)- موطأ الإمام مالك: رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عمروش، ص 699.

(8)- أي يجذب.

(9)- موطأ الإمام مالك: رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عمروش، ص 699.

هاته جملة من الشواهد التي تدل على مدى خطورة اللسان، و لعل هذا ما يعززه قول الله تعالى : <<مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ>>[1].

و لعل هذا وجهٌ من وجوه الحكمة في تقديم (السميع) على (العليم) في الآية الكريمة.

3- تقديم (مغفرة) على (أجر عظيم) في قوله تعالى : <<أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ>>[2] لأن "المغفرة إزالة السيئات التي هي في الدنيا لازمة للنفس، والأجر العظيم إشارة إلى الحياة التي هي بعد مفارقة الدنيا عن النفس، فيزيل الله عنه القبائح البهيمية و يلبسه المحاسن الملكية"[3].

أي : أن الله تعالى -يوم القيامة- يزيل عن عباده الصالحين كل آثار القبح و السوء التي علقت بهم في هذه الحياة حتى اللمم منها، ثم يزيد الله في إكرامهم فيكلل رحمته بهم و جزاءه إياهم برداء من نور، و نعيم لا يزول.

و قريب جدا من هذا ما ورد في فاصلتي الآية الخامسة، و الآية الرابعة عشر، و هو ما يدور عليه الكلام في النموذج الرابع من هذا المطلب.

4- تقديم (غفور) على (رحيم) في قوله تعالى : <<وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ>>[4]، و مثلها تماما في قوله تعالى : <<...وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ>>[5].

ذلك لأن العبد حينما يتوب إلى الله "يغفر سيئاته ثم ينظر إليه فيراه عاريا محتاجا فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة"[6]، وهو ما أشرنا إلى معناه عند الحديث عن تقديم (المغفرة) على (الأجر العظيم).

هذا و إن من لطيف و دقيق ما قيل في هذه اللّفتة أن "الرحمة أصل للمغفرة و شأن العلة أن تورد بعد المعلل بها"[7]، ومعنى ذلك أن السبب عادة ما يذكر قبل المُسَبَّب و النتيجة

---

(1)- ق : 18.
(2)- الحجرات : 03.
(3)- التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص 116.
(4)- الحجرات : 05.
(5)- الحجرات : 14.
(6)- التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص 118.
(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج : 26، ص 266.

و المغفرة أو الغفران هو سبب للرحمة، و الرحمة هي نتيجة للغفران، و لذلك ذكرت الرحمة بعد المغفرة، أو بالأحرى ذكرت صفة فاعل الغفران قبل ذكر صفة فاعل الرحمة، و هما -في الحقيقة- واحد، و إنما العبرة بتقديم الألفاظ هنا للإشارة إلى تقدم المعاني بعضها على بعض، و علاوة على كلّ هذا، "فالمغفرة سلامة و الرحمة غنيمة و السلامة تُطلب قبل الغنيمة"[1] فالعليل -مثلا- لا يطمح إلى الغنم و الترف و هو على فراش المرض، قبل تطلعه إلى البحث عن وسائل العلاج و كشف الأسقام، و لله المثل الأعلى.

5- تقديم الفعل على الفاعل في قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ>>[2]، فإن قيل -مثلا- "لِمَ لَمْ يقل : يا أيها الذين آمنوا إن فاسق جاءكم، أو إن أحد من الفساق جاءكم، ليكون الإبتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه، و هو كونه فاسقا ؟ نقول : المجيء بالنبإ الكاذب يورّث كون الإنسان فاسقا، أو يزداد بسببه فسقه، فالمجيء به سبب الفسق فقدمه"[3].

و بيان ذلك "أن المجيء بالنبإ الكاذب يورث كون الجائي به فاسقا سواء كان قبل ذلك فاسقا أم لا، و لو أخِر الفعل لم تتناول الآية إلا مشهور الفسق قبل المجيء بالنبإ"[4].

و بذلك تتجلى الحكمة، أو على الأقل وجه من وجوه الحكمة في تقديم الفعل على الفاعل، فقد يحدث أن توجد مثل هذه الظاهرة، و لكن لأغراض أسلوبية أخرى، كما قد يحدث أن يقدم الفاعل على الفعل أساسا كما في قوله تعالى : <<وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا>>[5]، و لكلٍ غرضٌ و حكمةٌ و أسرارٌ قد يتسنى للناس الكشف عنها و قد يخفي عليهم الكثير من ذلك، لأن فوق كل ذي علم عليما.

6- تقديم المجرور على متعلقه في قوله تعالى : <<... فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ>>[6].

و هذا "للإهتمام بذلك الفعل، و هو الإصابة بدون تثبت و التنبيه على خطر أمره"[7]،

---

(1)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية، المجلد : 01، ج: 01، ص 64.

(2)- الحجرات : 06.

(3)- التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص 127.

(4)- غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 79.

(5)- الحجرات: 09، وهذا بصرف النظر عن الحذف الذي قد يكون في فعل قبل (طائفتان) وقد أشرنا إلى ذلك في الصفحة 105 من هذه الدراسة.

(6)- الحجرات : 06.

(7)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج : 26، ص 234.

أي: على خطورة أمر هذه الإصابة بغير تبين لقوم هم أبرياء مما نسب إليهم من التهمة الباطلة التي بنيت على أساس النبأ الكاذب الذي جاء به ذلك الفاسق.

لأجل كل هذه المعاني -ربما- قُدِّم المجرور على متعلقه، بما حواه هذا المجرور في حيزه من الفعل المشار إليه، و الأخطار الناجمة عن هذا الفعل.

7- تقديم متعلق خبر (أنّ) على إسمها في قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾[1] و في ذلك من الفوائد ما يلي :

أ- "الدلالة على الحصر، و الإشارة إلى ما هو لازمه، فإنّ اختصاصهم بكون رسول الله صلى الله عليه و سلم فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد و يتجنّبوا الغيّ و يُرجعوا الأمور إليه ويطيعوه و يتبعوا أثره ولا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم"[2].

ب- "توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله صلى الله عليه و سلم لآرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه"[3].

ج- التنبيه "على أن واجبهم الإغتباط به و الإخلاص له لأن كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم و صلاح لهم"[4].

و بيان ذلك أن على المسلمين أن ينتبهوا إلى ما يلزم من وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم من وجوب اتباع الحق و اجتناب الزيغ، و كذا الإفتخار و الإعتزاز بهذا الموجود معهم و فيهم، وبالإضافة إلى هذا ففي تقديم لفظ (فيكم) على (رسول) إشارة إلى تأنيب من غفَل قلبهُ عن هذه الحقيقة الساطعة فصار ينظر إلى النبي عليه الصلاة و السلام كما ينظر إلى غيره من عامة الناس.

8- تقديم الفاعل على الفعل[5] في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾[6] "مع أن كلمة (إنْ) اتصالها بالفعل أولى، و ذلك [ربما] ليكون الإبتداء

---

(1)- الحجرات : 07.

(2)- الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي، ج : 18، ص : 317.

(3)- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري، ج : 06، ص : 16.
ينظر كذلك : البحر المحيط : أبوحيان الاندلسي، ج : 08، ص : 110.

(4)- التحرير و التنوير : الطاهر بن عاشور، ج : 26، ص 235.

(5)- على أساس أن ليس هناك حذف لفعل الشرط كما رأينا في الصفحة 105 من هذه الدراسة.

(6)- الحجرات : 09.

بما يمنع من القتال،... لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما"[1]، أو على الأقل أن لا يقع إلا نادرا مع وجوب المسارعة إلى الإصلاح بين هاتين الطائفتين.

ذلك لأن التذكير بصفة الإيمان كفيل بردعهما عن الإقتتال، أو بردعهما عن الاقتتال في حالة ظهور بوادره.

9- تقديم (الذَّكَر) على (الأنثى) في قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى...>>[2] وذلك تماشيا مع سنة الله تعالى في خلق الناس حيث "خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب... [ثم]... خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم [عليهما السلام] فقال في سورة النساء : <<يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَ نِسَاءً>>[3] "[4].

هذه وجهة نظر، و الظاهر أنها قائمة على أساس الأسبقية في الوجود، إلا أن هناك من يرى بأن سر هذا التقديم ليس لأن الذَّكر هو الأسبق من الأنثى فحسب، بل لكونه هو السبب في الإيجاد، أي : الإنجاب، و لا نعني بالإيجاد (الخلق) لأن الخلق لله وحده.

و تعليل ذلك فلأن "الأصل [في عملية الإنجاب] هو الذكر، فمنه البذر ومنه السقي، والأنثى وعاء ومستودع لولده تربيه في بطنها، كما تربيه في حجرها، ولهذا كان الولد للأب حكما و نسبا"[5].

وخلاصة هذا الكلام أن من أوجه الحكمة في تقديم (الذكر) على (الأنثى) هاتين الإشارتين:

أ- أن (الذَّكَر) هو أسبق إلى الوجود من (الأنثى).

ب- أن (الذَّكَر) هو السبب في إيجاد (الأنثى).

10- تقديم (الشعوب) على (القبائل) في قوله تعالى : <<يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَ أُنثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...>>[6]، و مما جاء في هذا التقديم أن مرده إلى أن الشِّعب أعم من القبيلة[7]، فعطفت القبائل على الشعوب عطف الأخص على الأعم.

---

(1)- التفسير الكبير : الرازي ، ج : 26، ص 127.

(2)- الحجرات : 13.

(3)- الآية : 01

(4)- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : الشنقيطي، ج : 07، ص 418.

(5)- التفسير القيم لابن القيم : ابن قيم الجوزية، ص : 443.

(6)- الحجرات : 13.

(7)- ينظر : غرائب القرآن و رغائب الفرقان : النيسابوري، ج : 26، ص 94.

"لأن القبيلة ما دون الشِعب و طبقات النسل عند العرب سبع : الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة"[1] أو الأقارب[2]، و لذلك أمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم بأن يبدأ دعوته بالأقربين فقال : <<وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ>>[3] قبل أن يأمره بالجهر بالدعوة أمام الناس أجمعين.

إذن من خلال هذا يظهر حسن تقديم (الشعوب) على (القبائل) تقديم الأصل على الفرع، أو تقديم الكل على البعض.

11- تقديم ذكر (الأموال) على (الأنفس) في قوله تعالى : <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ>>[4].

و قبل ذلك يحسن بنا أن نشير إلى الفرق بين تقديم موضوع الإيمان بالله و الرسول صلى الله عليه و سلم مع عدم الارتياب على موضوع المجاهدة بالمال على المجاهدة بالنفس، و موضوع تقديم (المال) على (النفس).

فبالنسبة للأول قد سبق و أن تناولناه في المطلب الأول من هذا المبحث[5]، و أما ما يتعلق بتقديم (المال) على (النفس) فربما مرد ذلك إلى مدى علاقة الإنسان بالمال و شدة حرصه عليه -أحيانا- أكثر من حرصه على نفسه وَ بَنِيهِ.

فمن جميل ما قيل حول هذا التقديم أن "المال شقيق الروح، و قد يبذل الإنسان روحه في سبيل تحصيل المال، و ما أكثرهم في هذا الزمن الذي رق فيه دين الناس"[6].

كما قد يكون مرجع هذا التقديم هو الترقي من الأدنى إلى الأعلى[7]، أي : من الجود بالمال الذي هو دون النفس إلى الجود بالنفس التي هي أغلى من المال.

---

(1)- التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج : الزحيلي، ج : 26، ص 248.
ينظر كذلك أنوار التنزيل و أسرار التأويل : البيضاوي، ص 494.

(2)- ينظر التفسير الكبير: الرازي ، ج : 26، ص 138. إلا أنّ الرازي . . . . . قد أسقط -في تفسيره- ذِكْرَ (العمارة)، كما أنه ذكر (الأقارب) بدل العشائر.

(3)- الشعراء : 214

(4)- الحجرات : 15.

(5)- تراجع الصفحة 206 من هذه الدراسة.

(6)- تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه : محمد علي طه الدرة، ج : 26، ص 618.
ينظر كذلك : فتح البيان في مقاصد القرآن : البخاري، ج : 13، ص 155.
و كذلك روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 169.

(7)- ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني : الألوسي البغدادي، ج : 26، ص 169.

و هذا ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية أيضا حينما قال -بشيء من التفصيل و البيان- أن: المال "محبوب النفس و معشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله و ترتكب الأخطار و تتعرض للموت في طلبه و هذا يدل على أنه هو محبوبها و معشوقها فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم و محبوبهم في مرضاته فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم و لا يكون في الوجود شيء أحبَّ إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها و هي بذل نفوسهم له فهذا غاية الحب فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه فإذا أحب شيئا بذل له محبوبه من نفعه و ماله فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه و آثرها على محبوبه ... فلم يرض الله من مُحبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتهم، و أيضا فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولا يقي به نفسه فإذا لم يبق له مال بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقا للواقع"[1].

هذا رأي-كما نلاحظ- يركز فيه صاحبه على فكرة واحدة، و هي أن مرد تقديم (المال) على (النفس) هنا إنما هو للترقي من الأدنى إلى الأعلى، و هي وجهة نظر مقبولة إلى حد بعيد، إلا أن كنه الحقيقة و جوهرها و سر هذا التقديم الأول و الآخر يبقى في علم الغيب عند الله، و مع ذلك نقول: إن ما ذهب إليه ابن القيم فيه مرضاة للعقل، و مشبعة للسّائل اللّهفان.

12- تقديم لفظ (السماوات) على لفظ (الأرض) في قوله تعالى : <<قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ>>[2]، و قوله أيضا : <<إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ>>[3]، بل و في أغلب آيات القرآن الكريم.

و كما جرت العادة، فإنه كلما تكررت ظاهرة من الظواهر، و كثر وجودها و أستمر، كلّما كان ذلك سببا في لفت الإنتباه إليها و الإدلاء بالرأي فيها، و ما أحد من حفظة القرآن الكريم، أو قرائه، أو مفسّريه، أو المهتمين بعلومه، أو أحدٌ من عامة المسلمين و أبسطهم ثقافة، إلا يعلم أن أغلب آيات القرآن الكريم الّتي ذُكرت فيها (السماوات و الأرض) و وردت بهذا الترتيب.

---

(1)- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : المجلد : 01، ج : 01، ص 78.

(2)- الحجرات : 16.

(3)- الحجرات : 18.

و هذا ما دفع ببعضهم إلى محاولة الكشف عن سر هذا التقديم، فقد ذُكِر أن مرد هذا إلى أنه "غالبا ما تُذكر السماوات و الأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته و ربوبيته، و معلوم أن الآيات في السماوات أعظم منها في الأرض لسعتها و عظمها و ما فيها من كواكبها و شمسها و قمرها و بروجها و علوها، و استغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرضُ و ما فيها كقطرة في سعتها، و لهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة و يتأمل استواءها و اتساقها و براءتها من الخلل و الفطور[1]، فالآية فيها أعظم من الأرض"[2]، و أسرارها أعظم مما في الأرض من أسرار و ألغاز.

و لعل ما في هذا القول من التفصيل و البيان كفيل بإقناع العقل و إرواء الظمإ المعرفي الذي يتطلع شوقا إلى معرفة سرّ هذا التقديم كلما قرئت آية من القرآن الكريم ذكرت فيها السماوات و الأرض بتقديم المقدّم و تأخير المؤخّر.

أما ما يتعلق بالآيتين المذكورتين في سورة الحجرات –على وجه الخصوص– فربما للتنبيه إلى أن الذي له في السماوات قبل الأرض آياتٌ عظيمة تدل على وحدانيته و ربوبيته هو أولى بأن يعلم كل ما في السماوات، سماء سماء، و جزءا جزءا، بل شبرا شبرا، قبل أن يعلم –أو بالأحرى– قبل أن يذكر أنه يعلمُ ما في الأرض جزءا جزءا، لأن الذي يعلم ما في السماوات أولى بأن يعلم ما في الأرض، لأن الذي يعلم الأعم أولى بأن يعلم الفرع.

هذا –على الأقل– من الجانب العقلي، أما من الجانب العقدي فالله تعالى يعلم كل شيء، كل كبيرة و كل صغيرة، لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم ما في السماوات في الوقت ذاته الذي يعلم ما في الأرض، و ليس هناك تقديم لوقت علم على وقت علم آخر، فهو يعلم في الآن الواحد كل شيء.

و ما هذا التقديم و التأخير –في ظاهره– إلا لأغراض –ربما– أسلوبية لغوية لنقل العقل البشري من مجال إلى مجال، من الكليات إلى الجزئيات، من باب الإقناع و التأكيد، و احترام الأولى من زاوية التصور المنطقي الإنساني للأشياء.

---

(1)– قال الله تعالى في سورة الملك : ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ﴾ الآيتين : 3 – 4.

(2)– بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : المجلد : 01، ج : 01، ص 74.

إذن، بهذا النموذج من أهم النماذج الواردة في سورة الحجرات لظاهرتي التقديم و التأخير في كلام الله، نأتي إلى ختام هذا المطلب، و إلى طي سجل الحديث عن ظاهرتي التقديم و التأخير بنوعيه الذين تحدثنا عنهما في هذا المبحث، راجين أن نكون قد وُفّقنا في جمع و إيراد أهم ما قيل في كل شاهد من كلام حول أسرار تقديم بعضه على بعض، و الكشف عن أبعاد ذلك و أغراضه التي أشرنا إليها عند عرض الشواهد و التي منها :

أ- البعد العقدي : و قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن تقديم السماوات و الأرض.

ب- البعد التربوي : و قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن تقديم موضوعات السورة بعضها على بعض، كتقديم الحديث عن واجب المسلم مع ربه على موضوع واجبه مع الرسول صلى الله عليه و سلم، على موضوع واجب المسلم مع الناس عموما بما فيهم الفاسق ثم المؤمن الحاضر ثم المؤمن الغائب...

ج- البعد التشريعي، و قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن النهي عن السخرية ثم النهي عن اللمز، ثم النهي عن التنابز...، و كذلك عند الحديث عن النهي عن الظن ثم التجسس ثم الغيبة.

د- البعد النفسي : و قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن وجوب المجاهدة بالمال ثم بالنفس.

ه- البعد الكوني : و قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن تقديم (الذكر) على (الأنثى).

و- البعد المنطقي : و قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن تقديم (الخلق) على (الجعل)، و كذا تقديم (الغفور) على (الرحيم)... و غير ذلك.

نرجو أن نكون قد وفقنا في إقناع القارئ بأنه ما من كلام يقدم على غيره، و ما من عبارة أو موضوع يؤخر على موضوع آخر، و ما من ألفاظ تأتي بترتيب ما إلا لحكمة ربانية ما، أو لِحِكَمٍ إلهية، قد يتجلى للإنسان بعضٌ من وجوهها أو كلُّها، و قد يستأثر الله تعالى بأسرار ذلك في علم الغيب عنده، و ما يصل إليه الناس من نتائجَ قد لا يكون إلا بصيصا من نور عِلْمِهِ الفيّاض الذي وسع آباد الأزمان، و تجاوز آفاق العوالم، فيجعل الناس من ذلك الشعاع مصابيحَ تنير لهم الطريقَ، و تعينهم على تجاوز العقبات، و تُبلغُهم درجةَ الأبرار و الرّاشدين فتُكتَبُ لهم سعادةُ الدارين.

بهذا نأتي إلى نهاية الفصل الثالث من هذا البحث، و الذي دار فيه الحديث عن استعمال الألفاظ و العبارات في سورة الحجرات، لنخرج بالنتائج التالية :

1- إن لفظة القرآن الكريم لا تقتصر على كل المحاسن التي يُشترط وجودها في الكلام العربي الفصيح[1]، بل تتعداها إلى الإعجاز[2]، و هذا لِمَا تتميز به من جمال الوقع و اتساع الدلالة و إتساق كامل مع المعنى[3].

2- ضرورة الإهتمام بفقه اللغة للتمكن من الوقوف على الإختلافات الدقيقة بين معاني الألفاظ المترادفة، و بين الصيغ الصرفية المتباينة. " فنحن ننظر إلى المعنى إجماليا لكن حين نتناول المعنى بكل زواياه و لقطاته نجد أن هذه الآية لا يصلحها إلا ذلك اللفظ، و تلك الآية التي في مثل معناها لا يصلحها إلا ذلك اللّفظ "[4].

3- ضرورةُ الإنتباهِ إلى الإستعمالات المتباينة للعدد و ما ينطوي تحت ذلك من أسرار، و الإنكارُ على من يدّعي إمكان استعمال عدد مكان آخر حتّى و لو كان المهمل –في الظاهر– هو الأَوْلى بالإستعمال، و العكس. ففي " القرآن الكريم، في موضوعاته، في ألفاظه، بل في حروفه من أوجه الإعجاز العددي... ما يجعله يُقدِّم للعالمين آية حديثة على إعجاز القرآن الكريم و دليلا على نبوة سيّدنا محمّد النبّي العظيم صلى الله عليه و سلم "[5].

4- ضرورةُ الإنتباه إلى الإستعمالات المتباينة للزمن، وبطلانُ القول بإمكان استعمال زمن مكان آخر، حتى و لو كان المستعمل هو الأولى بالترك، و العكس.

" فقد كان القرآن الكريم دقيقا في اختيار ألفاظه، و انتقاء كلماته، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب، و إذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، كذلك إذا كان اللفظ مفردا كان ذلك لمقتضًى يطلبه، و إذا كان مجموعا كان لحال يناسبه، و قد يختار الكلمة و يهمل مرادفَها الذي يشترك معه في الدلالة "[6].

---

(1)- والتي منها: أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة، وأن لا تكون الكلمة ساقطة عامية، وأن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة، وغيرها من الشروط /ينظر : الإعجاز الفني في القرآن: عمر السلامي، ص71

(2)- ينظر : الإعجاز الفني في القرآن: عمر السلامي، ص72.

(3)- الإعجاز في نظم القرآن: د/ محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر، القاهرة، 1398-1978م، ص8،

(4)- القضاء و القدر : الشعراوي، ص 113.

(5)- الإعجاز العددي للقران الكريم: عبد الرزاق نوفل، ديوان المطبوعات الجامعية-بن عكنون الجزائر 11-89، ص173- 174

(6)- من أسرار التعبير في القرآن – صفاء الكلمة- : د/عبد الفتاح لاشين، ص : 15 – 16.

5- إن لاستعمال الجمل و نظم الكلام -في القرآن الكريم- طابعا خاصا و دقة رائعة فذة تتجلى في ذلك التلاؤم و الإتساق الكاملين بين الكلمات، و في التآلف بين الحروف و الأصوات، و كذا في دلالتها بأقصر العبارات على أوسع المعاني التامة المتكاملة[1]، و لذلك يصف لنا الرافعي الجملة القرآنية بأنها العربيةُ الفصيحةُ الساميةُ القائمةُ على تربية الملكة و إرهاف المنطق الواصلةُ بيننا و بين عهد النبوة الأطهر. و بأخصر العبارات فهي الجملة التي تقتن عن الإنشغال بغيرها من الجمل[2].

(1)- الإعجاز في نظم القرآن: د/ محمود السيد شيخون، ص86.

(2)- ينظر: الجملة القرانية : مصطفى صادق الرافعي، تذييل الأمير شكيب أرسلان، تصحيح و تعليق عبد البديع القادري، دار القادري للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت – دمشق، 1412 هـ – 1992م، ص 24.

# الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد هذه الرحلة الممتعة مع بعض الجماليات الأسلوبية في سورة الحجرات، والتي حاولنا -من خلالها- كشف الستار عما أمكن من الفوائد التي تنطوي خلف الإستعمالات المختلفة للألفاظ والجمل، ومختلف الأساليب وأغراضها، فإننا نخرج بالنتائج التالية :

1- إن معظم الأخبار الواردة في سورة الحجرات تهدف -بالإضافة إلى فائدتها- إلى لوازم وأغراض كثيرة ومتنوعة تفهم من سياق الحديث.

2- إنه كلما استعمل النداء في مطلع آية من آيات السورة كلما كان ذلك لغرض مختلف ولو كان المنادَى واحدا، ولذلك فالواجب الإنتباه إلى الفرق بين الغرضين. كما أن استعمال الحرف (يا) في نداءات السورة لم يكن عفويا، بل كان لحكمة وغرض ما كان ليتحقق باستعمال غيره من الحروف.

3- خروج النهي عن مقتضى ظاهره لإفادة أغراض أخرى، كالأمرمثلا أو التحذير، أو التوبيخ، وفي السورة من الشواهد ما يغني.

4- أكثر الأوامر الواردة في السورة سيقت للإجابة عن مسألة معينة، ولتكون -في الوقت ذاته- تشريعا مستقلا قائما بذاته.

5- ليس المراد بالإستفهامين الواردين في السورة ظاهرهما، بل المراد هو أغراض أخرى تفهم من السياق، كالتعليل لما قبل الإستفهام، أو التوبيخ والتقرير، أو الإنكار، أو التأكيد.

6- شمول جمل المدح الواردة في الحجرات لمعنى الذم، فقد تضمنت بعض الجمل التي فيها ثناء صريح على أهل الصدق تعريضا بسوء ما صنع غيرهم.

7- للإلتفاتات الواردة في السورة دور كبير في تجلية الحقائق، وإزالة اللبس لفهم المراد من كلام الله تعالى فهما صحيحا ودقيقا.

8- إن الرجاء الوارد في السورة في قوله تعالى : << لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ >> لا يراد منه ظاهره، بل يفهم بمجازه، وهو التسبب.

9- ما من لفظ ذكر في الحجرات أو حذف، وما من عبارة ذكرت أو حذفت إلا لحكمة إلـهية، وغاية من الغايات التشريعية.

10- ما من مفردة أو عبارة في السورة أوثرت على غيرها إلا لسبب بُيّن وحكمة ربانية بالغة.

11- ما من مفردة أو عبارة في السورة قُدّمت على غيرها إلا لهدف ينبغي الكشف عنه.

12- ما من زمن، وما من عدد استُعمل في السورة دون غيره إلا ومن وراء ذلك أسرار وغايات عملية كثيرة.

- إن أسلوب سورة الحجرات لنموذج حي، حري بأصحاب الكتابة وروّاد الأدب أن يجعلوه نبراسا يُقتدى به لتحسين مستوى أسلوبهم، والرفع من نوعية نتاجاتِهم الأدبية بعيدا عن الحشو والإسهاب فيما لا يسمن ولا يغني من جوع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الفهارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## فهـرس المصـادر و المراجـع.


- **القـرآن الكريـم** – برواية ورش عن الإمام نافع.
- **الإتقـان في علـوم القـرآن**: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت–1988م.
- **الإعجاز العددي للقرآن الكريم** : عبد الرزاق نوفل، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الساحة المركزية بن عكنون – الجزائر. 11–89.
- **الإعجـاز الفنـي في القرآن** : عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريـم بـن عبـد الله، تونس 1980م.
- **الإعجـاز في نظـم القرآن** : د/ محمد السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر – القاهرة – 1398هـ – 1978م.
- **الأسلوبية في النقد العربي الحديث** : نور الدين السد، رسالة دكتوراه، 1993 – 1994 غ / منشورة.
- **البحـر المحيـط** : أبوحيان الأندلسي الغرنـاطي، ط:01، مطبعـة السـعادة بجـوار محافظة مصر، 1328 هـ.
- **البيان في غريب إعراب القرآن** : أبو البركات عبد الرحمان بن محمـد أبـي سـعيد الأنباري النحوي، تحقيق : د: طه عبد الحميـد طـه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1400 هـ – 1980م.
- **التبيان في إعراب القرآن** : أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، ط: 02 – دار الجيل بيروت – لبنان – 1407 هـ – 1987م.
- **التحرير و التنويـر** : الطاهر بن عاشور، الدار التونسية – تونس– ، المؤسسة الوطنية للكتاب –الجزائر– 1984م.

- **التعبير الفني في القرآن** : د: بكري شيخ أمين، ط: 04 ، دار الشروق – بيروت– 1400 هـ– 1980م .

- **التفسير الكبير** : محمد الرازي فخر الدين، ط: 03، دار الفكر للطباعة و النشر و لتوزيع، بيروت – لبنان – ، 1405 هـ – 1985م.

- **التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج** : د: وهبة الزحيلي، ط: 01، دار الفكر، دمشق –سوريا–، دار الفكر المعاصر، بيروت –لبنان 1991 م.

- **التفسير القيم لابن القيم** : جمعه محمد أوبس الندوي، و حققه محمد حامد الفقي، دار العلوم الحديثة، بيروت – لبنان –.

- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** : د/ محمد السيد طنطاوي، مطبعة السعادة، 1406هـ – 1986م.

- **الجامع لأحكام القرآن** : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، 1387 هـ–1967م.

- **الجملة القرآنية** : مصطفى صادق الرافعي، دار القادري للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت – دمشق –، 1412 هـ – 1992م.

- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** : عبد الرحمان الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان –.

- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** : شهاب الدين أبو العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم، ط : 01، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – 1414هـ – 1994م.

- **الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل** : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر، دار المصحف القاهرة – مصر –

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ط: 01، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. 1413 هـ – 1993م.

- **المعجم المفصل في علوم البلاغة – البديع و البيان و المعاني**– د: إنعام فوال عكاوي، ط: 02، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – 1417 هـ – 1996م.

- **المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية** : د: إميل بديع يعقوب، ط: 01، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – 1417 هـ – 1996م.

- **الميزان في تفسير القرآن** : محمد حسين الطباطبائي، ط: 01، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان – 1411 هـ – 1991م.

- **النكت و العيون** : تفسير الماوردي : أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري، ط: 01، حققه خضر محمد خضر، مطابع مقهوي – الكويت 1402هـ– 1982م.

- **الفريد في إعراب القرآن المجيد** : حسين بن أبي العز الهمذاني، تحقيق د/ فؤاد علي مخيم، و د/ فهمي حسن النمر، دار الثقافة – الدوحة.

- **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان** : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم إمام الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

- **القضاء و القدر** : الشعراوي.

- **أنوار التنزيل و أسرار التأويل** : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر محمد الشيرازي البيضاوي، ط: 02، المطبعة البهية المصرية، 1344هـ – 1925م.

- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** : محمد الأمين بن محمد المختـــار الجكنـــي الشنقيطي، ط: 01، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان– 1417هـ – 1996م.

- **إعراب القرآن** : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، تحقيق د/ غازي زاهد، ط: 03، مكتبة النهضة العربية، بيروت – لبنان –، 1409هـ – 1988م.

- **أسرار التقديم و التأخير في لغة القرآن** : محمود الســيد شــيخون، مكتبــة الكليــات الأزهرية بالأزهر، القاهرة، 1983م.

- **أساليب النفي في القرآن** : د/ أحمد ماهر البقري (كليـــة الآداب – جامعـــة المنيـــا)، دار المعارف، ط: 02، 1984 م.

- **أشعار الشعراء الستة الجاهليين** : يوسف بن سليمان بن عيسى، ط: 02، دار الآفـــاق الجديدة، بيروت – لبنان – 1401هـ – 1981م.

- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** : أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمـد عبد الله بن هشـــام الأنصـــاري المصـــري، المكتبـــة العصرية صيدا – بيروت –.

- **بدائع الفوائد**: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الفكر للطباعة والنشـــر والتوزيع، المكتبة العصرية: صيدا –بيروت– لبنان.

- **تفسير ابن كثير** : أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي، ط: 04، دار الأندلس، – بيروت – لبنـــان.

- **تفسير أبي السعود** : أبو السعود محمد بن محمد العمادي، ط: 02، مؤسســـة التـــاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنـــان – 1411هـ – 1990م.

- **تفسيـــر الجلاليـــن** : جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي.

- **تفسير المراغي** : أحمد مصطفى المراغي، ط: 03، دار الفكر، 1394هـ – 1974م.
- **تفسير النسفي** : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان –، 1402هـ – 1982م.
- **تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه**: محمد علي طه الدرة، ط: 01، دار الحكمة دمشق بيروت – 1411هـ – 1990م.
- **جامع البيان في تفسير القرآن**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ط:04، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت –لبنان– 1400هـ–1980م.
- **دلائل الإعجاز** : عبد القاهر الجرجاني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، – الجزائر –، 1991م.
- **ربع يس المفسر** : سميح عاطف الزين و كامل سليمان و علي حسين عبد الله، دار الكتب الإسلامية – دار الكتاب اللبناني – دار الكتاب المصري، 1408 هـ – 1988م.
- **روح البيان** : إسماعيل حقي البرسوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان – .
- **روح المعني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني** : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1403 هـ – 1983م.
- **كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** : إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، ط: 04، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان – 1405هـ – 1985م.
- **من أسرار التعبير القرآني – دراسة تحليلية لسورة الأحزاب** – : محمد أبو موسى، دار الفكر العربي.
- **من أسرار التعبير في القرآن – صفاء الكلمة**، د/ عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر الرياض، 1403هـ – 1983م.

- **معجم الشعراء المخضرمين و الأمويين** : د/ عزيزة فوال بابتي، ط: 01، دار صادر، بيروت لبنان – 1998م.
- **موطأ الإمام مالك** : رواية يحيى بن يحيى الليثي، ط: 08، دار النفائس،بيروت –لبنان– 1404هـ – 1984م.
- **صحيح البخاري بشرح الكرماني**، ط: 03، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان– 1405 ـ – 1985م.
- **صحيح الجامع الصغير و زيادته** : محمد ناصر الدين الألباني، ط: 03، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان –، 1408هـ – 1988م.
- **صفوة التفاسير** : محمد علي الصابوني، ط: 04، دار القرآن الكريم، بيروت 1402هـ – 1981م.
- **فتح البيان في مقاصد القرآن** : أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1412 هـ – 1992 م.
- **فتح الرحمان يكشف ما يلتبس في القرآن** : أبو يحي زكريا الأنصاري، حققه محمد علي الصابوني، ط: 02/ 1408هـ – 1988 م.
- **في ظلال القرآن** : سيد قطب، ط: 10، دار الشروق (بيروت – القاهرة)، 1402هـ – 1982م.
- **غرائب القرآن و رغائب الفرقان** : نظام الدين القمي النيسابوري (على هامش تفسير الطبري، ط: 04)، دار المعرفة، بيروت – لبنان– 1400هـ – 1980م.
- **سنن ابن ماجة** : ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر العربي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# فهـــرس الموضـــوعـــات


| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| **المقدمة :** ..... | أ – ح |
| **التمهيد :** في رحاب الحجـرات ..... | 1 – 9 |
| **الفصل الأول : بين الخبر و الإنشاء** ..... | 10 – 64 |
| – تمهيد : ..... | .11 |
| – المبحث الأول : دلالات الأسلوب الخبري..... | 12 – 31 |
| – المبحث الثاني : أبعاد الأسلوب الإنشائي..... | 32 – 57 |
| – المبحث الثالث : براعة الإلتفات ..... | 58 – 63 |
| – خاتمة : ..... | .64 |
| **الفصل الثاني : بين الذكر و الحذف**..... | 65 – 114 |
| – تمهيد : ..... | .66 |
| – المبحث الأول : فوائد الذكر..... | 67 – 89 |
| – المبحث الثاني : بلاغة الحذف..... | 90 – 113 |
| – خاتمة : ..... | .114 |
| **الفصل الثالث : استعمال الألفاظ و العبارات**..... | 115 – 218 |
| – تمهيد : ..... | 116 – 117 |
| – المبحث الأول : البعد الفني في اختيار اللفظ..... | 118 – 157 |
| – المبحث الثاني : الدقة في استعمال الزمن..... | 158 – 166 |
| – المبحث الثالث : الدقة في استعمال العدد..... | 167 – 175 |
| – المبحث الرابع : إيثار نظم على نظم..... | 176 – 198 |
| – المبحث الخامس : أسرار التقديم و التأخير ..... | 199 – 216 |
| – خاتمة ... ..... | 217 – 218 |
| **الخاتمـــة** ..... | 220 – 221 |
| **الفهارس** ..... | 222 – 230 |
| – فهرس المصادر و المراجع ..... | 223 – 228 |
| – فهرس الموضوعات ..... | .229 |


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية